

أنيس فنلند

اثنين.. اثنين

دار الشروق

اِثْنَيْنِ.. اِثْنَيْنِ

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الطبعة الثالثة

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دارالشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٢٣

فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) - تليكس : 93091 SHROK UN

بيروت : ص.ب. : ٨٠٦٤ - هاتف : ٢١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

برقيا : داش-روك - تليكس : SHOROK 20175 LE

أكثر من اثنين دائما ١ .

عندى مسرحية كوميدية اسمها « الأحياء المجاورة » . ظهرت في الستينات . والمسرحية لها بطلان : سناء جميل وحمدى غيث . فى ثلاثة فصول . ليس لها أولاد ولا خدم . ولا يزورهما أحد . ولكن من المتوقع أن ييئ أحد غير أن أحدا لا ييئ . ولكن هذا الاحتمال وهذا التوقع هو الذى يجعلها ، ويجعلنا نتلفت إلى الباب والشباك .. ولكن أحدا لا ييئ . وعلى الرغم من أن الزوجين لا ينفصلان ولا يتركان المسرح إلا قليلا ، فالدنيا كلها عندهما .. أخبارها واسرارها ومشاكلها .. ثم ان الراديو ينقل إليهما آخر الأحداث والكوارث .. التى أصابت العالم وأصابت هذه الأسرية أيضا . فليسا وحدهما . ولكن الدنيا الصغيرة تنتقل إليهما من تحت الباب .. من الأصدقاء فى الشارع وعلى السلم .. من الراديو ..

فعلى الرغم من أنها اثنان فقط ، فالحقيقة أنها ليسا كذلك فى أى وقت .. وبعد عشرين عاما من ظهور هذه المسرحية قررت أن أعدل فيها .. وبدأت التعديل بأن جعلت لها اسما آخر هو : أكثر من اثنين دائما ١

أى أن هناك أكثر من اثنين فى أى مكان وفى أى وقت . منذ آدم وحواء فى الجنة ومعها الشيطان والأفعى والملائكة ومخافة الله ، حتى نزلا إلى الأرض فامتلات بهما الدنيا ..

بل ان الإنسان إذا كان وحده فى زنزانه فى سجن .. أو كان راهبا فى صومعة .. أو

كان جاجارين في أحد الأقمار الصناعية .. فرائد الفضاء الروسى كان وحده في القمر الصناعي ، ولكن عشرات الألوف من العلماء يتابعون نظراته وأنفاسه وقطرات العرق على وجهه ودقات قلبه .. أنه يشبه سائق سيارة بلا عجلة قيادة .. فالعجلة والقيادة على الأرض في أيدي العلماء .. فهو-إذن- ليس وحده في أى وقت .. بل إنه في عيون وآذان مئات الملايين من سكان الأرض ..

و « روبنسون كروزو » بطل الرواية المعروفة التى كتبها دانييل ديفو ، لم يكن وحده في الجزيرة .. فن اللحظة الأولى لهبوطه هذه الجزيرة كان وحده .. لم نز غيره ولم ير هو غيره .. ولكنه هو خلاصة الحضارة الغربية .. بملابسه وأفكاره وقدرته على أن يصنع لنفسه بيتا وأن يدافع عن نفسه بما حمل من أسلحة هى من صنع الحضارة الأوروبية .. فهو ليس وحده في أى وقت ..

وعندما سئلت رابعة العدوية المتصوفة وقد جلست وحدها : من معك ؟

قالت : أنا وحدى مع الله وحده ؟

وأنت عندما تنظر إلى أعماقك فلست وحدك .. فأنت أكثر من إنسان ، أكثر من صورة لنفسك ..

فأنت كما ترى نفسك

وأنت كما يراك الناس ، أصدقاؤك وأعداؤك

وأنت كما تتمنى أن تكون ..

وأنت الأب وأنت الابن .. وأنت المرءوس وأنت الرئيس ..

فأنت كثيرون !

ومن أجل أن تتخذ صورتك شكلا اجتماعيا فلا بد من امرأة .. نحبها وتزوجها ، أو تتزوجها بلا حب .. أو تستخدمها أو هى تستخدمك .. تكون فى يدها ، أو تكون هى فى عنقك .. فى قلبك أو على قلبك ..

والناس أمام المرأة نوعان :

ساسة وعشاق ..

والرجل السياسى هو الذى يرى أن كل الناس « أدوات » لتحقيق طموحه .. أنهم مثل السكين والملعقة .. أنهم مثل السيارة والجزمة .. أنهم « وسيلة » لتحقيق مايتمنى ولذلك فلا إنسانية عنده ، ولا إنسانية لهؤلاء الناس .. إنه جردهم من كل صفات الإنسان .. وجعلهم « أشياء » تخدم مصالحه ، وتحقق له القوة التى يريد .. ولذلك كانت قسوة الساسة وحشيتهم وسفالتهم أيضا :

والمرأة - عندهم - هى الأخرى أداة من هذا النوع .. هى ضرورة اجتماعية .. ضرورة من أجل الأناقة ، وسيلة لكى يظهر السياسى مستقبها اجتماعيا يجب الأسرة والزوجة والأولاد ، مثل كل الناس ..

فعالم السياسة ، عالم بلا إنسانية .. عالم ليس فيه ناس ..

والعاشق هو الذى لا يرى فى دنياه إلا المرأة التى يحبها .. هى الناس .. وكل من عداها لاشيء .. فلا يرى أحدا غيرها ، ولا يسمع سواها .. وكل الطرق تؤدى إليها ، أو تدفعه أن يبلغها ..

فالناس جميعا أدوات ووسائل من أجلها .. هوامش على طريقها .. فراشة على أشجارها ، سحاب فوق غاباتها .. وهو مستعد أن يضحي من أجلها ، وب نفسه أيضا .

فعالم العشاق ليس فيه ناس .. عالم العشاق فيه المحبوبة .. ويتمنى العشاق والمعشوق أن تملأ الدنيا لها ، فلا رقيب ولا حسيب ولا عدول ولا حسد ..

السياسى يريد القوة

العاشق يريد الغناء

السياسى يرى الناس جميعا أشراً

العاشق يرى الناس طيبين والمحبوب أطيبهم ..

السياسى يكذب حين يتحدث عن المبادئ ..

العاشق لا يكذب ولا يتحدث عن المبادئ ، فالذى يعمل هو المبدأ ، والذى يعانیه هو العقيدة ، والمحبة هي الكائن المقدس ..

وإذا كان السياسى عاشقا ، فهو سياسى فقط .. مهما قال ..

وأمر الساسة وأكثرهم سفالة هو مترنيخ .. كان عاشقا لعشرات من الأميرات والغانيات .. ولكن جميعا يعملن جواسيس له .. يعملن أجهزة للتصنت ، شباكا ومصائد لخصومة السياسيين .. فقد استغل أشكالا كثيرة من الضعف .. ضعف المرأة وضعف الرجل أمام المرأة .. وضعف الاثنين أمام المال .. وخوف الجميع من الغدر ..

* * *

وليس فى الأدب العالمية مثل هذا العدد من « الثنائيات » التى جاءت فى كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني من الجوارى والعشيقات والمغنيات والملهمات والقاتلات ومصاصات دماء الأمراء من أجل الشعراء ، وقاتلات الشعراء من أجل الأمراء .. ولكن القاتل والقتيل فيها صفة مشتركة : حب الجمال .. جمال الجسم والصوت والفن ..

كلهم عاشوا وماتوا من أجل العشق ..

لاشغلتهم السياسة ولا الحكم ولا السلطة : فالسلطان هو الشعر .. والملك هو الحب .. والمملكة كلها : تسودها المرأة وتلعب بها . والرعايا سعداء أن يكونوا ألعوية : الخمر والموسيقى والجنس .. والجمال دائما !

بل فى كتاب « الأغاني » تجد الزوج المحافظ الغيور يدخل بيته والسيوف فى يده فيجد زوجته على راحتها مع رجل غريب .. ويرفع السيوف فى وجه الغريب .. حتى إذا قالت له زوجته : أنه الشاعر فلان ..

هنا يهبط السيوف ويجلس الزوج يستمع مع زوجته إلى الشاعر ..

فالذنب مغفور والعذر مقبول إذا كان الغريب شاعرا .. وإذا كانت الفتنة هي
الجمال .. ويجلس الرجل يسمع الشاعر يتغزل في زوجته ، ويسمع زوجته ترد عليه وتشيد
برجولة زوجها وإخلاصه لها وإخلاصها له .. وبالسعادة والأمان الذي يعيش فيه ..
والفضل للزوج الذي اتسع صدره للغريب مادام شاعرا !

ولانهاية للشائيات في التاريخ الإنساني ..

فهناك نساء تمر ، ولم تترك أثرا .. ولكن هناك من حاولن ..

وهناك نساء أمسكن التاريخ وجعلن منه عجينا وضعن منه تماثيل .. وهناك نساء
حولن مجرى التاريخ ، عندما وضعن قلب الرجل في مكان عقله ، وعقله تحت الأقدام
فالنساء نوعان :

المرأة « الحادث » ..

والمرأة « القدر » ..

أى المرأة التى كانت حادثا عابرا لم تترك أثرا .. وإنما لفتت نظرا ، واحتلت أذنا ،
وشغلت قلبا ، وراحت ضحية عقل .. وفي حياة المشاهير كثير من هذا الطراز من
النساء .. لأنهن مثل الفراش حول الضوء .. يدرن حوله ويحترقن به ، وتجئ غيرهن إلى
نفس النهاية ويتسلى العظماء برؤية الفراش يتحول إلى رماد ..

وهناك المرأة « القدر » التى تجذب العظماء فيدور العظيم حولها فراشة .. فاذا هى
تدخل حياته .. وتكون حياته .. وتوجهه يسارا ويمينا .. وتضيف إليه بغريزتها العميقة في
البقاء والسلطة والابداع أيضا .

وهذه هى المرأة التى تلهم الشاعر ، وتحمى ظهر السياسى ، وتصون العالم ، وتعكس
الإبداع ..

وفى التاريخ زوجات شهيرات وعشيقات أيضا وعاشقات ولكن لسن جميعا
« قدرا » ..

فزوجة سقراط كان جهلها بعظمة الفيلسوف سقراط نكتة أطلقها هذا الفيلسوف ..
ولكنها لم تجعله يكره المرأة ويحتقرها .. فبقى هذا الاحتقار عشرات القرون .. فليس
بسبب زوجته كره المرأة ، ولكنه احتقر المادة والجنس والرغبات العابرة ، ولم ير أرفع من
الفكر والتأمل والفلسفة .. وكانت زوجته تراه رجلا عاطلا باطلا لا يأكل ولا يشرب ولا
ينشغل ببيته وزوجته .. فليس عنده وقت ، ولا عنده وظيفة ، ولا هو يحب النساء ..
كان يفضل الغلمان .. فهي امرأة مشهورة فقط . وهي المرأة « الحادث » وليست المرأة
« القدر » .. وكذلك زوجات الأديب لورانس وأوجيني والحديدو إسماعيل وجولييت آدم
ومصطفى كامل وطه حسين وسوزان ..

ولكن المرأة « القدر » هي دوقة وندسور وهي ايغا بيرون وهي كليوباترة ..

وشجرة الدر التى قتلت زوجها بالقباقيب وقتلها ابن زوجها بالقباقيب وثار عليها
العلماء وفى مقدمتهم قاضى القضاة العز بن عبد السلام . لم تكن « قدرا » فلم يترتب على
وجودها أو اختفائها أى تحول فى مسار الأحداث والتاريخ ..

بينما كليوباترة التاسعة ملكة مصر التى قتلت نفسها ، حتى لا تقع أسيرة فى أيدي
أعدائها ، ولم تكن جميلة . وإنما كانت سمراء متوسطة القامة ذكية هى التى غيرت تاريخ
المعارك وتاريخ الحكم فى الدولة الرومانية بعد وفاة الإسكندر ..

أما النساء « القدر » فهن :

الراهبة هلويز التى أحبها الراهب ايبيلار ، والفتاة بياتريشة التى أحبها الشاعر دانتي
وكلاهما التى أحبها الشاعر بتراركة .. وسالومى التى أحبها الفيلسوف نيتشه والعالم فرويد
والشاعر ريكله .. وكذلك زوجات فرويد وكارل ماركس وداروين ولفتجستون ..
ومئات من ساحرات البادية : لبنى ولىلى وعبله وعزة وهند وغنية وغنيمة وفاضية
والفارغة والى فاطمة وآم الفضل وفكينة وقرة العين وأم كلثوم وكلثم ولبابه ولهب ولحاظ

ولؤلؤة وألف عائشة وعاتكة وعاصية وعبرة وعثمة وعفيفة وعمره وزاهده وزلنى وزمرد
وعين النساء وعين العرب وألف زينب وزنوبيا وسارة وست الأجناس وست الأخوة
وست الأدب وست الأهل وست الجميع وست الشام وست العراق وست العلماء وست
القضاة وست الفقهاء وست النعم وسديده وألف سعاد وسعدى وسعده وألف سكينه
وسلامة وسلطانة وسلمى وسمراء والشطباء والشعثاء والشقراء والشليبة وصالحه والصماء
والصاخبة والطافية وطيبة دماء السماء ومارية وماوية ومحبوبة ومملكة ومزاج ومضباح
ومعترزة وملح وملك وملكة ومليكة ومنورة ومنية ومهرى وموافقة ومؤنسة ومية وميسة
وميسون وميمونة ونائلة ونائفة وناجية ونزهة ونشوان وهاجر وهيلانه ووالهة ووجيهه وولادة
وياسمين .. وغيرهن كثيرات فى كتب الأغاني والعشق فى الأدب العربى القديم ..

* * *

وسوف تمضى الثنائيات فى التاريخ علنا وسرا ..

ومنذ قال امرؤ القيس ، عندما وقف عند جبل « عسيب » بالقرب من أنقره :

أجارتنا إن المزار قريب
وأنى مقيم ما أقام « عسيب »
أجارتنا أنا غريان ههنا
وكل غريب للغريب نسيب
حتى قال كامل الشناوى :

أحببتنا وظننت أن لقلبها
نبضاً كقلبي
لأتقيده الضلوع
أحببتنا
ولذا بها قلب بلا نبض

سراب خادع
ظماً وجوع
فتركتها

لكن قلبي لم يزل طفلاً
يعاوده الحنين إلى الرجوع
وإذا مررت وكم مررت -

بيتها

تبكي الخطى منى

وترتعد الدموع !

ومنذ قال عمر بن أبي ربيعة :

تقول وليدتي لما رأته

طربت وكنت قد أقصرت حيناً

أراك اليوم قد أحدثت شوقاً

وهاج لك الهوى داء دفيناً

وكنت زعمت أنك ذو عزاء

إذا ماشئت فارقت القربان

بربك هل أذاك لها رسول

فشأقك أم لقيت لها خديناً

فقلت شكاً إلى أخ محب

كبعض زماننا إذ تعلمينا

* * *

وذو الشوق القديم وإن تعزى

مشوق حين يلقى العاشقين !

حتى قال إبراهيم ناجي :

أحببت مية حبا لا يعادله
حب وأفانيت فيها العمر أجمعه
أحب عمري الذى فى قرب مئى وما
قد مر من دونها ما كان أضيعة
يامئى يا قلبى الثانى أعيش به
وإن يكن فوق ظنى أنئى معه
يابضعة من كيان الصب نابضة
بكل حب به الرحمن أودعه !

ومن القائد هانبيال الذى طلب من ضباطه أن يمر على البيوت حتى وتصرخ النساء
ويبكى الأطفال ، فتتحطم قلوب الرجال ..

حتى هتلر الذى قال : سوف أجعل لكل امرأة المانية عشرين طفلا .. فالمرأة الألمانية
لكى تلد ، ويتضاعف الجنس الارى ليسود العالم .. فالمرأة أم أولا وزوجة ثانية وعاشقة
معشوقة ثالثا ..

سوف تبقى المرأة هنا فى الظل ، أو تجعل كل شئ فى الظل ، لتبقى هى فى النور
وغيرها فى النار ، أو هى النار والنور الذى يحرق ويضىء ..
سوف يكون هناك اثنان .. بل أكثر من اثنين دائما !

أليس غصن

القاهرة ١٨ أغسطس ١٩٨٧

هذا النوع من النساء

الناس يقولون: لطيف.. تقول هي: بل رجل ضعيف..
يقولون: عبقرى.. وهي تقول: مجنون.. يقول عنه الناس: كان
من الممكن أن يكون نبياً.. أما هي فتقول: يجوز.. ولكن من
المؤكد لا يصلح ملكاً.. وإن كان يصلح ملكاً بعض الوقت، فلا
يصلح زوجاً أي وقتاً!

ويقول المؤرخون: أكبر غلطة أنه تزوج هذه الفتاة.. أما
الفتاة فتقول: بل أكبر غلطة ألا أتزوجه.. إذ كيف أجد كل هذا
العدد الهائل من العشاق، بعلمه واختياره وقراره وعلى جثته
وكبريائه أيضاً!

أما هي فاسمها مسالينا (٢٢ ق.م - ٤٨م) أقوى وأقوى امرأة
في التاريخ. زوجها الأمبراطور كلوديوس، أرق الملوك في
التاريخ.. والقاعدة: وراء كل ملك لطيف امرأة عنيفة.. وراء
كل ملك يكتفي بشرب الماء، امرأة لا يرويها الدم. جميلة كاذبة
محدثة لبقة. قادرة على إقناعه بأي شيء. إذا أرادت منه شيئاً بكّت
وتلوّث وتمرّغت عند قدميه.. ثم مرّغته في الوحل بعد ذلك.
وكسّنت قادرة على إقناعه بأن هذا الذي يعمل به نفسه، هو قمة
الحكمة والتواضع

كانت أمها تعمل بالسحر والدعارة . وقد ورثت عن أمها الدعارة ،
وسحر كل الناس أما الدعارة فكانت ترغب الجميلات على أن يقبلن
ذلك ثم تفضحن أمام أزواجهن !
إبنتها تزوجت الإمبراطور السفاح نيرون .
تباهى مسالينا وهي على فراش الموت : لم أكن مخلصه لرجل واحد
يوماً واحداً !

لماذا؟ تقول هي أيضاً: يكفي أن تخلصي للرجل وأنت بين
ذراعيه . . إنهم لا يستحقون أكثر من ذلك !
كانت متسلطة سليطة . وكانت تريد أن يظل زوجها الإمبراطور
كلباً مربوطاً في ذيلها . ولا يهم أن تلتفت إليه ، أو لا تفعل ذلك . .
ف عزلته عن كل الناس . ولما علمت أن الإمبراطور يحب زوج أمها ،
قتلته . وإذا نظر الإمبراطور في إحدى اللوائم إلى واحدة . إلى ذراع أية
سيدة ، قطعنها . . أو إلى ساقها بترتها . أبعدته تماماً عن كل الناس ،
وأخافته من الحارس والطبيب والصديق .

وكان الإمبراطور يؤمن بالأحلام ويتفاءل ويتشاءم . فاتفقت مع

خادم له بأن يروي للأميراطور أنه يحلم كل ليلة بأن أحداً قد علّق
الأميراطور من شعره، وأغمد سكيناً في بطنه. ثم راحت تروي
للأميراطور نفس الحلم!

هرب الناس من البلاد وانتحرت النساء، خوفاً من مسالينا.
وأحبت راقصاً جميلاً ووضعت تماثيله في كل مكان. . . وكان يحب فتاة
أخرى. أتت به أمام الأميراطور وشكت أنه لا يطيع أوامرها. . . أمره
الأميراطور بأن يطيعها. فكان عشيقها بالأمر. ثم قتله بالسم.
ثم أحبت رجلاً طويلاً عريضاً وسيماً وطلبت إليه أن يطلق زوجته.
فطلقها. ثم قررت أن تتزوجه بالإضافة إلى زوجها الأميراطور. وأن
يكون ذلك في حفل راقص، وفي غياب زوجها.

وكان عندها خادم قتلت زوجته لأنها تحبه! فذهب إلى الأميراطور
ونقل إليه أن الأميرة قد أقامت قصراً للعشيق وملأته بالتحف من
قصر الأميراطور. فاستدعاها الأميراطور لتعترف أمامه. فطلبت أن
يكون لقاؤهما غداً، حتى يهدأ. وكان في نيّتها أن تساعد العشيق على
الهرب. ولكن حراس الأميراطور حاصروها، وخيروها بين أن تموت
بيدها، أو بأيديهم. . . وأخرجوا من صدرها منديلاً معطراً. ثم أتوا
بالعشيق وقتلوه أمامها. وشنقوها بمنديلها. . . وعند العشاء تذكر
الأميراطور أنه أمر باستدعاء زوجته والتفت حوله في هدوء: لماذا لم
تحضر الأميرة؟

ف قيل له: لن تحضر يا مولانا. . .
فهز رأسه: أعرف. . . لا بد أنها نائمة!

فقالوا: نعم!!

* * *

إمرأة أخرى دخلت التاريخ باسم «المرأة الذئبة». وهي تختلف عن مسالينا في أن الإخلاص ليس مما يناسب زوجات الملوك والكهنة. فهؤلاء الرجال قد اختاروا شيئاً أهم وأبقى. واختاروا المرأة تكملة لذلك. فإما أن تقبل المرأة أن تكون هذه التكملة. . هذه البقية. . أو هذه الإضافة، وإما أن تخرج من حياته. . أو تخرجه هو من حياتها. . وإن لم تجد المرأة كلاماً كالعسل، فلديها ما لا نهاية له من السم تضعه في الكلام والقبلات والطعام والشراب.

إسمها ليفيا (٣٠ ق.م - ٢٩م). وهي بكل المقاييس امرأة متوحشة. تكره باسم الحب وتقتل في سبيله، وتعيش على جثث غيرها من أجله. . سمع القيصر عن جمالها. فناداهم ومعه زوجها وقال له: أعطني زوجتك الآن!

وأحنى الرجل رأسه، بينما اتجهت الزوجة فوراً ووقفت إلى جانب الأمبراطور. واندesh الزوج فلم يكن يعرف أنها سوف تستسلم بهذه السرعة. . وأشارت إلى بطنها. أي أنها حامل. ولما ولدت بعث الأمبراطور بالطفل لكي يقوم زوجها السابق بتربيته. وانشغل الأمبراطور بالحرب. فهزم مارك أنطونيوس في موقعة أكتيوم. وبعدها انتحرت كليوباترا فقد خافت أن تقع في يده فيمسح بها شوارع روما قبل أن تقبل قدمي الأمبراطورة ليفيا.

كانت تقول له: أنا مثلك. . أنت تستعرض الشباب بملابسهم العسكرية. . وأنا أفضل أن يكونوا بلا ملابس. . صدقني أن منظر

رجل عريان تماماً، مثل تمثال من الرخام بلا حياة!
بدأ الخلاف على العرش . . مات أولادها في يوم واحد قتلت أحد
أبناء الأمباطور . . وحفيداً له . .

كانت أذكى وأقوى وأشجع . ولم يكن غريباً أن تقول له في إحدى
الليالي : هذا العرش الذي تجلس عليه أنا دافعت عنه سرّاً . . فمن
أجله قتلت فلاناً وفلاناً . . وأحرقت فلاناً وشنقت فلاناً . . فعرشك
على كفي . تعال وامسح وجهك في هذه الكف . . انهض!

ويكون الأمباطور قد شرب حتى سقط على الأرض . . ويسانده
الحراس حتى يقبل كفيها وقدميها!

تقول له : تظن أنني سعيدة بأن أرى الرجل الذي سبحت من أجله
في بحور الدم هكذا ضعيفاً . . إن فما يقبل قدمي امرأة يجب سده
بالسم . . إن هذه الأكف لم تخلق إلا لصفع النساء!

وقبل أن تموت ليفيا، استدعت خادماً لها . وقالت : أنت تمنيت أن
تلمس قدمي . . وتلمس يدي . . الآن هذه فرصتك وفرصتي الأخيرة!
وأشارت إلى كرباج من الجلد المجدول بالذهب : أغمسه في
النار . . ثم في النيذ . . ثم في النار . . وأقتلني به . . فقد تمنيت أن أرى
القسوة في عيني رجل واحد . . لقد حرمتني الآلهة من كل شيء
يوجعني . . فلم أر إلا دموعاً، وإلا صراخاً!

ولم يقو الخادم على ذلك . فأتت بآخرين يضربونه ولم يقبل :
فشتموه وعيروه بأنه أعور وأنه أعرج وأنه لم يكن رجلاً قط . . فغضب

وثار وانها على الأمبراطورة . . حتى ماتت سعيدة بهذا الهوان !

* * *

في الطريق إلى موسكو قالت لها أمها : إبتني . . أكذبي لتعيشي . .
لا تصدقي أن الرجال يحبون الصدق . . كلما كبر الرجال كان
استعدادهم للكذب أكثر . . وأكثر الناس طلباً للكذب هم الملوك . .
إنهم ولدوا في ظروف خرافية ، وكل من حولهم يكذب عليهم . .
فالصدق مثل الشمس ، ولأنهم عاشوا في القصور فهم لا يرونها ، ولا
يجبون ذلك . . ولن يعطيهم أحد هذه الفرصة . .

ولم تفهم ابنتها . ولكن الأم عادت تقول لها : أنت ألمانية مائة في
المائة . . وفرنسية ٥٠٪ . . ولكن ليست في عروقتك قطرة دم روسية . .
وسوف تكونين أمبراطورة على روسيا . . فما لم تكذبي على كل الناس فلن
يصدقك أقرب الناس . .

فقالت ابنتها : سوف أفعل !

وقالت الأم : أشكرك . . على هذه الكذبة . . أعرف أنك لن
تفعلي . ولكن لن أموت قبل أن أراك أجمل وأعظم كذابة في أوروبا !
إنها كاترينا الثانية (١٧٢٩ - ١٧٩٦) - حكمت روسيا ٣٤ عاماً .
وهي أعظم ملكة في التاريخ . ذكية قوية . ناعمة عفيفة . ليس لها إلا
مطلب واحد من كل الناس ابتداء بالأمبراطور وانتهاء بكلبها : الطاعة
المطلقة !

إن التاريخ قد وضع علامات استفهام كثيرة عن مقتل رجال
واختفاء نساء وانتحار فتيات . ولكن من المؤكد أنها وراء كل ذلك -
وكان زوجها واحداً من ضحاياها .

يوم استدعوها إلى القصر الملكي ليروها إن كانت تصلح زوجة لولي العهد، لم تكن لديها ملابس تليق . كانت شاحبة . ولكن بذكائها الفريد استطاعت أن تعرف من هم الذين سيحيطون بها ، ومن الذين سوف ينقلون أخبارها ومغامراتها يوماً بيوم ، وتزوجت . وفي أول ليلة جاء ولي العهد مخموراً مترنحاً . قيل له أن الألمانية لهن سيقان جميلة وصدور أيضاً . فانكفاً يفتش في ملابس العروس عن مفاتها . فنقلته العروس إلى السرير . وفوجئت به قد أخرج من جيوبه «لعباً» - على شكل دبة وثعالب . . تركته يلعب ، ونامت على الأرض !

وأيقت العروس من أول لحظة ، أن هذا الزواج صامت - أي لا حوار بينهما . لا هي تقول ولا هو قادر على أن يكمل حديثاً بدأه . . إنه زواج فاشل !

وعرف زوجها أن لها عشيقاً متزوجاً ، فاستدعاه هو وزوجته . وطلب من الجميع أن يلعبوا الكوتشنية حتى الصباح !

وأنجبت ولداً آخر من عشيق لها . وفي إحدى الولاثم قال زوجها ، وقد أصبح أمبراطوراً : في الدنيا سؤالان بلا جواب . . الأول : كم عدد النجوم في السماء ؟ . . والثاني : من هم آباء أولادي ؟

وغضبت الأمبراطورة كاترينة وغابت عن القصر وباتت في أحضان عشيق ثالث وعاونها هذا العشيق وإخوته على انقلاب ضد الأمبراطور . ونجح . وحبست الزوج . وعندما ذهبت تزوره في السجن وجدت سجيناً يقال له السجين الأول . عمره ٢٢ عاماً ، دخل السجن

وهو في السادسة . . ولا يعرف شيئاً إلا السجّان والقضبان . . وهو واحد من المطالبين بالعرش . . ولم تعد الأمبراطورة إلى قصرها إلا بعد أن أعدمّت هذا الشاب وقلبتّه برجلها جثة هامدة على الأرض ! وكان لا بد أن تتخلص من الذين ساعدوها على الانقلاب . فهربوا إلى عواصم مختلفة . واحد منهم اختفى في باريس . ثم أرسل إليها أعظم ماسة في التاريخ واسمها «نادر شاه» . . ولكن عرفت بعد ذلك باسمه هو «ماسة أورلوف» . . وكانت كلما تذكرته تقول لمن حولها : كل خلية في جسمي تناديك أيها المتوحش . . ولما علمت أنه مات أغمي عليها . فلما أفاقت قالت : أين هو؟ فسألوها : من هو . .

فذكرت اسماً لم يعرفوه . . وكان ذلك عشيقها الجديد الذي يصغرها بثلاثين عاماً . ولما علمت أنه انتحر طلبت أن يأتوا بشفتيه وأن يسحقوهما وتشربهما في كأس من النبيذ في ضوء الشموع والموسيقى وقالت عبارتها المشهورة : نحن الملوك اعتدنا على أن نحتوي كل الأشياء وكل الناس . . فإن لم نستطع اكتفينا بسلب أرواحهم !

* * *

كانت القضايا المعروضة على مجلس الوزراء هامة وعاجلة . وتلفت نابليون إلى القادة والخبراء وسأل أين . . فلم يرد أحد . . واقترب منه واحد ليقول كلمة في أذنه . وظهر الغضب على وجه نابليون قائلاً : مرة أخرى يا بولين ! مرة أخرى !

أما بولين (١٧٨٠ - ١٨٢٥) فهي أخته . : أحب الناس إليه . .

رقيقة ناعمة جميلة . . لطيفة . . تجلس على ساقيه كأنها قطعة صغيرة
وتضع رأسه على صدرها وتلعب في شعره القليل وفي أذنيه وفي
شفثيه . . وقبل أن يلومها - وكان يلومها دائماً - تقول: ما ذنبي . . أخي
أعظم رجل في التاريخ . . وأنا أجهل امرأة . . عظمتك تحتم عليك أن
تدخل المعارك وأن تنتصر فيها . وجمالي يحشد العشاق حولي وأخوض
معهم معارك لا بد أن أنتصر فيها . . أنت وأنا محكوم علينا بالعذاب . .
عذاب المجد، وعذاب الحب . . إنني أجِد لك ألف عذر، فاعذرنى!
وكانت بولين قد اتخذت من أحد معاوين نابليون عشيقاً لها،
وانفردت به في الغرفة المجاورة لمجلس الوزراء . . وهي لم تترك واحداً
من معاونيه من الشبان . . فقد كان يختار أجهل الشبان، وكانت هي
سعيدة بذلك . .

وهي رقم ٦ بين إخوته الثلاثة عشر . وكانت ترافق نابليون في كل
مكان إعجاباً به وحباً له . وانتقلت من جزيرة كورسيكا، فتاة ريفية
عادية، إلى بريق باريس . . فأخذتها الأضواء، ودوّختها، وكانت هي
المرجع نجوم باريس جمالاً وانحلالاً . .

عندما تزوجت كتب إليها نابليون: بولين حبيبتي . . أحبي
الناس . . أحبي زوجك وبيتك، أسعدي نفسك . واعقلي . عمرك
الآن ٢٤ سنة . أنت ناضجة . كوني عاقلة!

دار حولها رجال كثيرون فأداروا رأسها، ودوّختهم . كان عندها
٦٠٠ فستان ومجوهرات بالملايين . وعربتها تجرها ستة خيول . كانت

تخرج من الحمام لتدخله مرة أخرى . . تستحم بالزيوت واللبن والعطور - في زمن لم تكن المرأة الفرنسية تعرف الاستحمام إلا نادراً . . كانت تبدو كأنها مخلوقة فوراً، كأنها نزلت من السماء برسالة محددة إلى الأرض أن تكون معبودة معشوقة عاشقة!

وكان عندها خادم زنجي يحملها إلى الحمام الدافئ ثلاث مرات يومياً . . وأحياناً خمس مرات . . حتى هذا الخادم عندما زوّجته فتاة زنجية جميلة، كانت تصر على أن يحملها من الحمام وإليه . .

وعندما عاتبها أخوها الأمبراطور كيف تفضح نفسها وتفضحه فتجلس عارية تماماً أمام الفنانين لكي يصنعوا لها تمثالاً مثل فينوس . قالت : لم أشعر بالبرد فقد كانت هناك مدفأة!!

وتزوجت مرة أخرى . . وأرسلها بعيداً إلى إحدى جزر المحيط الهادي . ومات زوجها هناك لتعود تبحث عن عشيق جديد . ثم زوجها نابليون ثالثاً . . ولكنها خانتة . . وعندما نفي نابليون إلى جزيرة ألبا، سافرت معه . وكان نابليون يبحث عنها فيجدها قد جلست عارية فوق إحدى الأشجار . وقبل أن ينطق بكلمة كانت تقول له : ألا ترى أنني آخر أساطير الإغريق . . ألا ترى أنه يتحتم عليك أن تجعلني آلهة للجمال والحب؟

ثم تقول : لا داعي . . لقد جعلت من نفسي آلهة . . كما أنك قد وضعت بيدك التاج على رأسك!

آخر كلماتها : كانت حياتي تفسيراً يومياً لهذه الحكمة : أتعس

الرجال أقواهم جداً وأتعب النساء أجملهن جداً. . . وكنت أتعس الجميع فقد كنت الجمال والقوة معاً!

* * *

لم يعرف الجنرال الكبير أن المقعد الأمامي قد تصلب لا يندفع لا إلى الأمام ولا إلى الوراء. . . فكان لا بد أن يجلس إلى جوار السائق - وكان السائق جندياً جميلة. . . ولم يلاحظ أيضاً أن «الجوب» قد نقصت بضعة سنتيمترات. ولا أن الوقوف المفاجيء للسيارة كان ينتهي عادة بأن تلتوي السائقة إلى ناحيته لعله يرى شيئاً من صدرها. . . وكانت لكل هذه الخيل نتيجتها. . . فقد قرر أن يتزوجها. وتقدم لها ولكن الرئيس ترومان منعه من ذلك!

ذلك هو الجنرال أيزنهاور (١٨٩٠ - ١٩٦٩) قائد الحلفاء في أوروبا وبطل غزو نورمانديا وبداية النهاية للحرب العالمية الثانية في أوروبا وشمال أفريقيا. وأمامه استسلم الألمان يوم ٧ مايو سنة ١٩٤٥ ، إنه بطل الحرب، رئيس الجمهورية لفترتين (١٩٥٣ - ١٩٦١).

أبوه بائع لبن. فقير طبعاً. كان يعمل لينفق على إخوته. . . ثم دخل الجيش. تزوج ابنة رجل غني. الزوجة اسمها ميمي. قال لها يوماً: أقول من أول يوم في زواجنا: أحب بلادي أولاً ودائماً. وأنت ثانياً. وهو كجندي محترف تنقل في أماكن كثيرة في هذا العالم - ٣٤ مكاناً في أمريكا وفي آسيا وأوروبا.

وكان صديقاً لكثير من القادة، فكانوا يبحثون عنه لأنه بارع في لعبة البريدج. لم يكن من الذين يحبون المرأة. لقد بكرها صغيراً. وكان

يرى أن الزواج علاقة كمالية . . إنه مثل الكرافة : لا تدفع الصدر .
ولكنها تتعلق من رقبة كل إنسان ، كالزوجة بلا سبب معقول .
كانت زوجته تضيق بالسكنى مع الضباط . أول أبنائه مات بالحمى
القرمزية . وقرر ألا يكون له أولاد . . ولكن جاء الأولاد . .

ولم يعرف الحب إلا يوم عرفت السائقة الإيرلندية أن تثيره . ولكنه
قال لزملائه القواد : شيء غريب قتله الزواج في أعماقي ، قتله
بالتدريج . . إنني غير قادر على أن أحب . .

وكتب في مذكراته . . استطاعت هذه الفتاة أن تنفخ في كل
شيء قد مات في جسمي ونفسي . . فهذه النهضة الجسمية والنفسية
هي من حقها وحدها . وسوف أتزوجها !

ولكن الجنرال ماريشال عندما علم بذلك قال : لو فعل فسوف
أطرده من الجيش . وكان يكتب لها خطابات غرامية . . وهدده ترومان
بأن هذه العلاقة سوف تنسف مستقبله السياسي .

وكان مرشحاً للرئاسة . ونجح وانشغل . ولكنه في إحدى الليالي
قال : لم تعطني الرئاسة شيئاً . . ولا أنا أحببت زوجتي ، ولا هي
أحبتني . . إن أجمل كلماتها في ساعات السعادة والهناء العائلي : أنت
رجل مجنون !

وعندما كان أيزنهاور ضابطاً صغيراً كان هو الذي يعد القهوة
ويطهو الطعام ويحيك الملابس لزوجته . ويرى تفسيراً لذلك : أنه ليس

الحب العائلي . وإنما هي روح الجندية . فالجندي يعتمد على نفسه . .
وإذا احتاجت جارته إلى مساعدة، ساعدها!

وآخر كلماته : عشت طول عمري حريصاً على حياة مئات الألوف
من البشر، وعندما انفردت بوحدة، لا أنا استطعت حمايتها، ولا هي
استطاعت . . فقط تلك الفتاة التي كانت تقود سيارتي، كان في
استطاعتها، أن تجعل هذه السيارة قمراً صناعياً في الطريق إلى الجنة . .
وأنا في داخله أدعو الله ألا تهتدي إلى الجنة . . فنحن معاً - وهذا يكفي !

* * *

يقول : لا تصدق أن المرأة تكره الكذب . . إنها تحب من يكذب
عليها إذا كان يتحدث عن جمالها وذكائها . . فاكذب عليها . .
اكذب . . حتى لو تأكدت أنها لا تصدقك !

وكان يواجه الناس بأزياء مستعارة من ريش البغاء : البنطلون
أخضر . والجاكete زرقاء والكرافطة حمراء . . والزراير ذهبية . . وعينان
تلمعان كأنهما من الماس الأسود . . ثم لديه هذه القدرة النادرة على
الحديث وإطلاق النكت واحتمال النساء . . ثم يعود إلى البيت يحسب
الخسارة والمكسب في رصيده اليومي . ثم يقول لنفسه دائماً : اليوم
كسبت . وسوف أضاعف هذا المكسب غداً !

إنه دزرائيلي (١٨٠٤ - ١٨٨١) رئيس وزراء بريطانيا، أقدر
رؤساء الوزارات ومستشار الملكة ومؤسس حزب المحافظين . وأكبر
ذئب عرفته ليالي لندن .

خاض الطريق الصعب إلى مجلس العموم ليبقى فيه ٣٠ عاماً . إن

السلم الذي صعد عليه كل شبر منه : إمراة ترفعه إلى الأمام أو إلى الخلف . ولكن الأيدي التي امتدت إليه كانت ناعمة دائماً !
يصفه خصومه : بأنه انتهازي حقير .
وكان يرد على ذلك قائلاً : دلوني على طريقة أخرى لكي ينجح أي سياسي !

وهو رجل صناعته الأدب . . أدب في الحديث وأدب في الكتابة أيضاً ، يقول : تحدث دائماً إلى المرأة . في أي مكان . ولا تكف عن الحديث إليها ومعها وعنهما . سوف تكون حديث المدينة . سوف يتضايق منك الرجال . استعن بالمرأة أيضاً . سوف يكون لك نفوذ . لا تحاسب نفسك على كل ما تقوله للمرأة . ولا تكن حساساً . قل ما شئت في أي وقت . لا تخف إن المرأة تريد أن تسمع الكثير عنها وعن غيرها وعنك ومنك .

ويتنقل من عشيقة إلى عشيقة نبيلة ثم إلى غنية . ثم اختار عشيقة أرملة أكبر منه ١٢ عاماً . طلب إليها في يوم من الأيام أن تتزوجه قائلاً : بدلاً من أن أكون عشيقاً مأجوراً ، أكون زوجاً مجانياً !

فصفعته على وجهه . ولكنه تمسك بثوبها . . وأخرج ورقة وقلماً وراح يكتب لها اعتذاراً من ألفي كلمة . واعترف بأنه كان وقحاً . فقد أنساه الغرور من تكون سيدته ، وما الذي فعلته من أجله . . واعترف بأنه أرادها لفلوسها ، ولكنه الآن يريد لها هي .
ووافقت على الزواج الذي دام ٣٣ عاماً .

تقول زوجته في مذكراتها: يسألونني إن كان مخلصاً. وجوابي ما دمت قد اخترت من كل الطيور نسراً عظيماً، فكيف يكون نسراً لا يطير. . ولا يمزق ملابسك بمخالبه ولا يهددك بمنقاره. . وكيف نحاسبه على أنه يعيش في القمم، وأن رائحة الدم تفوح من ريشه الطويل الجميل؟!

* * *

عندما قابلها الصحفيون وسألوها إن كانت تريد حقاً أن تفضح عشيقها؟

أجابت: ليس أسهل من ذلك. . ولكنني فُكرت كثيراً. وبكيت على فشلي معه. وضحكت على سذاجة عظمتة: إنه يستطيع أن يحمي قارة، ولكنه لا يستطيع أن يحمي امرأة واحدة!

ذلك هو ماك آرثر (١٨٨٠ - ١٩٦٤) ألمع قادة الحرب الأمريكيان وأكثرهم نياشين وحفلات تكريم. . وأعظمهم عند الشعب. طويل عريض قوي. من معالمة: منظاره الأسود والكاب والعصا والبايب. أعداؤه يصفونه: بارد جامد شرس.

أصدقاؤه يصفونه: لطيف. . رقيق ودود.

الأصدقاء والأعداء معاً: بل مغرور بلا حدود!

طلب منه الرئيس الفليبي كرزون أن يكون قائداً لقواته المسلحة. فكان صاحب أكبر أجر في تاريخ العسكرية في العالم. وعندما أعلنت أمريكا الحرب على اليابان اختاروه ليكون القائد الأعلى لقوات الحلفاء في المحيط الهادي. وأمامه استسلمت اليابان سنة ١٩٤٥.

وأصبح دكتاتور اليابان . واستدعته الأمم المتحدة ليدافع عن كوريا الجنوبية . واختلف مع الرئيس ترومان ، الذي استدعاه وفصله ، لأنه تجاوز سلطاته العسكرية ، وراح يصدر قرارات سياسية !

ولكنه فشل في معركتين للحب . عرف فتيات كثيرات . وفي إحدى المرات فوجيء بأنه عرف الكثيرات . وقال : لم أكن أتصور أن تكون لي مثل هذه العلاقة مع الأعداء !

عرف فتاة غنية مطلقة تحب الحفلات والرقص حافية ونصف عارية . تزوجها . لم تحضر أمه هذا الزواج . فقد كانت تتمنى لابنها من هي أجمل وأشد تمسكاً بالدين والشرف !

سافر مع زوجته لوزة هذه إلى الفلبين . لم تطق الحياة هناك ولا أحد كان يطيقها ، قررا الطلاق - وتم الطلاق .

وعرف إيزابيلا فتاة صينية الأم اسكتلندية الأب . عاشت معه . نقلها إلى واشنطن أسكنها في جناح بأحد الفنادق . اشترى لها كل ملابس النوم ، ولم يشتر لها فستاناً واحداً تخرج به - حتى ترى الشارع مطلقاً ! وكان ينفق عليها ببذخ . وفي غيابه ترددت على صناديق الليل وعرفت عدداً كبيراً من العشاق وسافرت إلى كوبا وخسرت أموالها في القمار . كتبت إليه تقول : عندي التهاب رئوي . ربما البرد !

فأدهشه ذلك وكتب يقول : هذه أول مرة أعرف أنه من الممكن أن يصاب الإنسان بالتهاب رئوي في السرير . . احرصي على قفل النوافذ والباب ، فقد قرأت أن الجو شديد البرودة ؟ !

وماك آرثر قد أغضب بعض الصحفيين . فتصيدوه ووصفوه

بالمتوحش الدكتاتور. وكان قد طرد الفتاة الصينية بعد أن اكتشف خيانتها له، فاتصل بها الصحفيون الذين اشتروا لها ملابس أنيقة. وحصلوا على خطابات الغرامية لها. وهددوه بالنشر. ودفعوا لها مبلغاً كبيراً من المال. وسحب شكواه ضدهم وكان قد طلب مليوني دولار تعويضاً على القذف والتجريح. وفتحت الفتاة الصينية صالوناً للحلاقة.. ثم هاجرت إلى كاليفورنيا. وهناك انتحرت في ظروف غامضة!

ومن عباراتها التي نشرتها الصحف أيضاً: أنا أحب سذاجته الفخمة.. فهو قائد عظيم.. ولكنه عبيط عظيم أيضاً!

وقالت: شيء واحد كان يحبه جداً وهو أن أستمع إليه وأنا جالسة عند قدميه، وهو يروي معاركه العسكرية وكيف فكّر ودبر وانتصر.. وأحياناً كان يأتي بالخرائط.. أحب هذه العظمة.. أحب هذه القوة في صوته وفي حركاته.. أحب هذا القائد، وإن لم أكن قد فهمت شيئاً واحداً مما يقول!

وقالت أيضاً: ليس صحيحاً أن الرجال العظماء يحبون الكلام.. ولكن الصحيح هو أن المرأة تحسن الاستماع.. وعندما يتحدث الرجل فإنه لا ينظر بدقة إلى وجه المرأة أو عينيها ليتأكد إن كانت تسمعه.. إنه يريد أن يقول.. ولا يهمه كثيراً إن كانت تسمعه.. وهنا تكمن قدرة المرأة على الصبر.. وهو صبر مثل شبكة حريرية ناعمة، أعدتها غريزة المرأة ليسقط فيها هذا الصياد المغرور!

الكبار والكبائر والكلمات الصغيرة!

في البدء كانت الكلمة الصغيرة. والكلمة الصغيرة سمعتها أذن مرهفة. والتقطت الكلمة نفس متوهجة، فكان الانفجار العظيم ..

وتكون الكلمة: أحبك ..

أو تكون: كرهتك ..

أو تكون: بل أحبيتك لأن فيك شياً من فلان ..

أو تكون: كرهتك لأنك لا تحب فلاناً ..

وشيء عجيب من مثل ذلك .. فهذا الساحر الذي اسمه الحب قادر على أن يجعل الصغير عملاقاً، والعملاق قزماً، ويجعل الجنة ناراً، والنار فردوساً ..

وإلا فكيف يتحول قديس إلى إبليس .. وكيف يتحول رجل يدعو الناس إلى حب الله، إلى رجل يدعو إلى الحب الذي يجعل الناس ينسون الله ..

إنها كلمة تقولها فتاة، دون أن تدري، إلى من قالت وكيف قالتها. . ثم تمضي إلى حياتها، فإذا العاشق الكبير فاسق أكبر، وإذا بالمحب الغارق في دموعه، وحش يخوض في دموع الأخريات. .
إنها «كيمياء» عجيبة التي تجعل الكلمات دماراً على العاشق والمعشوقة. وعشرات الأبرياء. .

مثلاً: كيف استطاع البابا جون الثاني عشر (٩٣٨ م - ٩٦٤ م) أن يستولي على أموال الكنيسة، وأن يجعل الكنيسة ماخوراً وأن يحكم روما والعالم المسيحي بمعاونة عدد من النصابين والبلطجية. وكيف أنهم كانوا يستوردون له العشيقات وهو ما يزال في العشرين من عمره. . فتيات من كل طول وعرض ولون. كيف وقف البابا يتصيد المؤمنات الجميلات ويستدرجهن إلى فراشه. .

مرة واحدة فقط رأى أحد الأزواج البابا وهو يطيل النظر إلى زوجته. . وإلى زوجة تخرج من الصفوف وتتجه إلى قداسته، والإثنان معاً يتجهان إلى الداخل. . وسار وراءهما الزوج. . ثم

انهال ضرباً على البابا حتى مات بعد أيام . . وكان الزوج لم يكفه ما فعل بل راح يستعدي عليه الناس جميعاً . يصرخ ويقول: أنت الذي تمسك مفاتيح السماوات . . أنت مجرم مقدّس . . أنت؟

أما البداية فقد كانت أن البابا وهو في الثامنة عشرة قد رفضته فتاة صغيرة . تهجّم عليها . فأسقطته . وداسته بقدميها . ونهض البابا الصغير ينفض خجله وعاره ويتوعد . . ولكن الفتاة اختفت لتظهر عشرات الفتيات ينتقم منهن البابا!

إنها مرة أخرى قصة الملك شهريار الذي خانتته زوجته، فقرر أن ينتقم من كل النساء . فكان يقتل واحدة كل ليلة . . حتى ظهرت له شهرزاد تشغله عن الاستمرار في الجريمة ألف ليلة وليلة!

وحتى في القرن العشرين عندما ظهر رجل في نيويورك يدعي الألوهية . . إنه الأب المقدّس (١٨٧٧ - ١٩٦٥) جورج كيلر الذي أسس بعثة السلام . وسارت وراءه ألوف النساء يعشن بلا جنس ، حتى لو كنّ متزوجات . ولكنه كان غارقاً في الجنس . وفوجئت المؤمنات بأنه متزوج من زنجية . . ثم من واحدة بيضاء . . وله عشيقات . . وفي سنة ١٩٣١ اعتقل البوليس هذا المقدس الزنجي .

ولما سئل كيف تكون مقدّساً تدعو إلى الطهارة وأنت هكذا . . وإلى الإخلاص ، وأنت بلا إخلاص ، كيف تعتدي على المؤمنات؟ فأجاب: بل إنني أخرج الشر من أجسادهن ، ثم أقضي عليه! وأدخلوه السجن عشرات السنين . وفي السجن كتب اعترافه

يقول: زوجة أبي عندما وجدتني أعانق فتاة صغيرة بيضاء بالإكراه، أمسكتني ووضعت رأسي عند ذيل إحدى الأبقار وهي تقول: يجب أن نعطيك ما هو أسوأ من الوحل . . ولم أنس هذه الكلمات ولا هذه العقوبة . . ولا أعرف كيف انقلبت هكذا على كل الناس!

* * *

وكذلك السيدة المقدسة إيمي ماكفرسون (١٨٩٠ - ١٩٤٤) مؤسسة الكنيسة العالمية، وأتباعها كثيرون. وفي سنة ١٩٢٦ أعلن البوليس أنها نزلت إلى البحر فغرقت . . ولكن اكتشف البوليس أنها ظهرت في المكسيك وقد أقفلت الكوخ على نفسها وعشيقها عشرين يوماً . .

وأفلحت في أن تقنع المؤمنات بأنها في ذلك الوقت تتلقى الوحي . . وجاءها الوحي وأمرها بأن تعود إلى الكنيسة، لأن ألوف النساء سوف يسرن وراءها . . وصدقته النساء، وتضاعف عددهن!

أما سر هذه المقدسة فقد أعلنه واحد من عشاقها بعد ذلك. إنها لم تكن جميلة ولا مثيرة . . ولكن صوتها فقط. فهي تصب كل مشاعرها في حنجرتها إنها مطربة لا تغني . . فإذا استمع إليها أحد وهي تهمس في أذنه فهو ضحيتها لا شك، وإذا زارت مريضاً، أصبحت هي المرض الجديد . . وإذا هنأت عروساً بزفافها، أحس العريس أنها هي التي يجب أن تكون عروساً . . فصوتها دافئ

هامس . . كأن كل نبراته أصابع ناعمة تلمس وتدغدغ وتثير. وهي تعلم ذلك تماماً!

أما مأساتها فقد اعترفت بها إلى إحدى المؤمنات . . فقد وقفت أمام المذبح تقول: يا ربي . . يا سيدي أنت خلقتني شديدة الحساسية، نافذة الصبر . . مفتونة بالرجال . . لا أقوى على انتظار عقابك . . ساحني . . اغفر لي . . سأتولى عنك تعذيب الرجال . . فإن كان عذابك أكبر من عذابي، فعاقبني، وإن كان دون عذابك، فالذي فعلته يرضيني . . ساحني!

أما عذابها الذي دفعها إلى الانتقام: فقد أكرهتها زوجة أبيها على أن تكون عشيقة لعشيقتها هي أيضاً - وكانت في الثامنة عشرة! أما التفسير النفسي لهذا الطراز من الناس فهم جميعاً يعدّون ويتعدّون. فكلما اعتدى واحد على واحدة بكوا لذلك . . ولكنهم لا يستطيعون أن يتوقفوا. لا يقدرّون على أن يكفوا. يغسلون أيديهم في الدم ثم يشربون، ولا يرتوون. أما الضحية فقد كان عذابها ساعات، أما القاتل فعذابه سنوات . .

* * *

وفي تاريخ الحب ثلاث قصص تناولها الأدباء والشعراء والموسيقيون. وفي هذه المآسي الثلاث كثير من الدم والعار، وكثير من الآهات والأسى . . وفي واحدة: رجل يقول أنه ظل الله على

الأرض . . وهو قد أذل الإنسان ومسح العرض بالأرض . . وفي
المأساة الثانية : الحب أقوى من كل عاطفة أخرى . . وباسم هذا
الحب ترتكب المعاصي والجرائم . . وأقصى وأقصى درجات ودركات
العذاب والهوان على الناس . . وفي الثالثة : لا حب ولا قداسة وإنما
وحشية تتسلط على النساء، فيركعن عند قدمي القداسة
المتوحشة . .

لا أحد لا يعرف قصة البابا إسكندر السادس (١٤٣١ -
١٥٠٣) . وليس من رجال الدين واحد لا يضع يديه على عينيه
عندما يقرأ اسم الرجل ، وليس من الراهبات واحدة لا تهرب من
سماع اسمه . . والجميع على حق : فقد استباح هذا البابا كل
المقدسات باسم القداسة ، واعتدى على كل الحرمات ، وكان مجنوناً
ويدعو إلى الجنون أيضاً . .

ولد في أسبانيا . واستطاع أن يصل بالمال والمغامرة إلى مكانه
الرفيع في الكنيسة الكاثوليكية . ولا أحد يعرف على اليقين ، كم
عدد أولاده غير الشرعيين .

وقد اعتمد هذا البابا على أسرته الغنية القوية : أسرة بورجيا .
واستخدم المال في الحصول على لذاته وشهواته . . ثم أنه ككل أفراد
أسرة بورجيا قد احتكر صناعة السموم . فهو يضعه في النبيذ . وهو
أول من استخدم حبات العنب ووضع فيها السم ينقله من فمه إلى
فم المعشوقة ، لتموت بين يديه وسعادته الصارخة . . وبدأ حياته ،

الفاجرة في سن مبكرة . . وكانت له عشيقة وهو في السادسة عشرة . . وثانية وثالثة . . وكان الناس يسمون عشيقته «عروس السماء» .

وامتلأت الغرف المقدسة بالفتيات العاريات . . الراهبات والمؤمنات . . والراقصات . . وكانت للبابا نزوات شاذة . . فقد كان يأتي بالراهبات العاريات، ويلقي على أجسادهن «أبو فروة» ساخناً ملتهباً . . وكنّ يصرخن، وهو في غاية السعادة . . ثم يلقي على أجسادهن الملتهبة بالنبيذ، ليزداد صراخهن ونشوته . .

وكانت إبنته لوكريسيا، سفاحة دموية . . وكان أبوها المقدس يدرّبها على الجنس فكانوا يأتون لهما بالخيول والكلاب ويشرح لها أبوها بالضبط ما هذا الذي يفعله الذكور بالإناث . . وأن هذه الطرق أفضل وأقوى وأمتع . .

ولا أحد يعرف إن كانت لوكريسيا هذه قد أنجبت أولادها من أبيها أو من أخيها . . وهذا الفاجر المقدس يجد له المؤرخون مكاناً عريضاً في عالم الفن . . فهو قد شجع الفنانين على الرسم والنحت . . وأنفق عليهم الكثير من المال . . أما تفسير ذلك فهو أن قداسته كان يجب أن يكون جو المذابح فنياً فريداً . . أي أنه يجب أن يعتدي على الفنانين أيضاً، وأن يشركهم معه في الجريمة . . وليس الفنانين وحدهم، وإنما الملائكة أيضاً . . وكان في جنون نشوته يقول: إنني أرى الملائكة تتدلى من سقف الكنيسة تبارك هذا

السحر الحلال والقداسة الحرام!

أما كيف كانت بداية هذا الفجور فالبابا قد رواه بنفسه في إحدى الليالي وقد جلس على العرش البابوي . . وهو لا ينسى ذلك اليوم حين اعتدت سيدة كبيرة عليه وهو طفل وقد أحبها بجنون . . والفارق كان ثلاثين عاماً . . أكرهته . . ضربته . . ثم أكرهته فأحبها أكثر . . ثم هددته بأن تحرقه بالنار . . ثم أحرقته . . وكلما صرخ من الاحتراق غطت جسمه بالزيت . . وراحت تبكي لبكائه، ثم ألبسته فستاناً من الحرير وأشعلت فيه النار . . هو يصرخ وهي تبكي على ذلك . . ولم ينقذه إلا حين أغمي عليها . .

ولم يكن البابا في حاجة إلى أن يرفع صوته، عبر القرون، لنسمعه وهو يقسم على أن ينتقم . . وقد انتقم!

* * *

وفي سيبيريا السوفياتية ظهر فلاح ضخم طويل عريض . . كان يتهجم على الفتيات . . وكان يتوارى وراء الأشجار . . ولا يكاد يرى فتاة تمشي وحدها، حتى يقترب منها . . وبعد لحظات يعتدي عليها . . ثم يعتذر لها ويقول: لا أعرف . . إن في داخلي شيطاناً يستولي على عقلي ويسخرني لخدمته!

وعرفت النساء هذا الفحل راسبوتين (١٨٧١ - ١٩١٦). وتحذثن عنه. وتعرضن له في الطريق. وقد أدرك بذكائه أن المرأة هي أحسن داعية لأي شيء . . وكان لا بد أن يهرب من القرى خوفاً

من غضب الآباء والأزواج . ولم يجد مفراً من أن يتزوج ، حتى يأمن
له الناس . في العشرين أنجبت له الإبن الأول . . والرابع
والخامس . .

وكانت له ذاكرة قوية . فقد حفظ كتاباً في السحر والعلاج
الروحي . . وكان ذلك سبيلاً مضموناً لقلب المرأة ، ولجسمها قبل
ذلك . وكان قد درس الدين . وأقسم أن يكون قسيساً . . وهكذا
تجمع له الدين والسحر والجنس .

ولا أحد يعرف كيف استطاع هذا الفلاح القس أن يعالج
المرضى ، وأن يشفي النساء من كل مرض . . لقد كان مرضاه من
النساء . وكن أكثر الناس إيماناً بقوته وعظمته وقداسته أيضاً . وكانت
النساء تقف بالطابور . وكل واحدة تعرف بالضبط ما هو العلاج
الذي ينتظرها . . وكان قادراً على شفاء عشر وعشرين في جلسة
واحدة !

وانتجه إلى العاصمة . وانتقلت سمعته إلى آذان الأمباطورة .
وقبل أن يصل إلى العاصمة كانت جلالته تفكر في طريقة للوصول
إليه . . فإذا به يصل إليها ويستولي عليها وعلى القصر وعلى كل قرار
تصدره جلالته . وفي القصر عرف أجمل جميلات الأسرة المالكة .
وبدأت مغامراته بالجملة : زوجات الأمراء وعشيقاتهم وزوجات
الجنرالات وعشيقاتهم وخادمااتهم . . وتسلمت إليه أيضاً نبيلات
الدول الأوروبية . . وكان راسبوتين يجد متعة في أن يتحدث عن

قدراته الخارقة، ويجد سعادة أكبر من أن يترك النساء يتحدثن عن ذلك. . . ويطلب إليهن المزيد من الوصف الدقيق. وله نظرية: إذا أردت أن تستولي على امرأة، فاترك امرأة أخرى تمهد لذلك. . . فهي أقدر على فهم المرأة. . . وهي في نفس الوقت لأنها مغرورة سوف تتباهى وتضيف إلى نفسها صفات ليست لها. . . وهي بذلك تتحدى كل امرأة أخرى أن يكون لها حظ معي. . . ولا شيء يشعل النار في امرأة، إلا غيرها من امرأة أخرى. . . وإذا أردت أن تحطم قلب امرأة، فاطلق عليها امرأة أخرى. . . وإذا كان من الصعب أن تستخدم امرأة في القضاء على امرأة، فأسهل من ذلك أن تقضي على رجل. . . أي رجل. . . والسلاح هو المرأة دائماً. . .

وكانت له عقيدة دينية - هي لا دينية أيضاً، يقول كيف نطلب من إنسان أن يستغفر إذا لم تكن له خطيئة. . . كيف يعفو الله عن الذين لم يرتكبوا إثماً. . . إذن لا بد من الخطأ والخطيئة حتى يكون العفو والمغفرة، والجنة بعد العقاب والحساب. وكلما كانت الخطيئة فادحة كان احتياجنا إلى الصلاة وطلب العفو أكبر!

وطبعي بعد ذلك أن يتكاثر عليه أعداؤه - الذين أهينوا في عرضهم، والذين يتطلعون إلى السلطة التي استولى عليها عندما احتكر الأمباطورة والأمباطور. . . ووضعوا له السم. فكان أقوى من السم. فأطلقوا عليه الرصاص، وكان أقوى من الرصاص. فألقوا به تحت الجليد. . . ليموت رجل الدين الذي ادعى أنه كان

يعبد الله على طريقته . . والذي كان يساعد العدل السماوي على تحقيق الرحمة والعفو عن الناس!

وراسبوتين يشغل مكاناً بارزاً في علم نفس الجريمة . . وعلم نفس الشذوذ . . . وقد حاول كثير من العلماء أن يتسللوا إلى نفسيته المعقدة، وكان لكل واحد رأي . ولكن راسبوتين، لم يدع لأحد أن يجتهد في تفسير هذا الساحر النصاب . فقد جاء في مذكرات له نشرت في سنة ١٩٤٧ أنه اكتشف فجأة هذه القدرة الشاذة . وأدرك أيضاً أنه من الصعب أن يكون داعياً للحب والرحمة والاعتدال والزهد . فقد أكل عشرين سمكة وشرب وراءها زجاجة فودكا وابتلع رطلاً من السكر، وكان في الثانية عشرة من عمره!

وفي إحدى الليالي أمسك فانوساً ووقف أمام البيت حتى الصباح في انتظار والدته - وعندما طلع النهار كان مثل تمثال من الجليد، تطل منه عينان لامعتان لم تعرفا النوم - وكانت أمه قد عادت دون أن يدري بذلك . ولم يصب بمرض!

أما البداية الأليمة فعندما استدرجته إحدى الغانيات إلى فراشها . . ولم تمض لحظات حتى ألقت به من فوق السرير وهي تقول: كأنك ثور خرج من الزريبة تواء!

ولم يكن من عادته أن يستحم!

ويعلق راسبوتين على هذه الحادثة بقوله: منذ ذلك الحين

قررت ألا أستحم حتى الموت . . وأن تكون رائحتي الكريهة هي
العطر المفضل عند النساء!

* * *

ومن خمسة وعشرين عاماً صدرت مذكرات الفيلسوف الألماني
الكبير باول تليش (١٨٨٦ - ١٩٦٥) وهو أيضاً من رجال الدين .
وقد تحدث عن راسبوتين . وراح يبرر كل خطاياهم . . إلا أنه لا
يستخدم الماء، ويفضل عليه العرق! ويختلف معه في أن أجمل ما في
المرأة، ليس وجهها وإنما قدمها . . ففي هذه القدم توجد كل
ملامح الوجه: العينان والشفتان والنعومة والانسياب . .

تقول زوجة الفيلسوف تليش: لولم ير قدمي، ما تزوجني!

ويقول: إن الإغريق والرومان قد اخترعوا الأحذية . . ولكن
لأنهم عشاق لأقدام المرأة، جعلوا الصندل في قدميها مئات
السنين . . وقد عرفت المرأة ذلك، فكانت تضع العطور بين
أصابعها . . وتضع الخواتم الماسية أيضاً . . وكان من عادة المرأة
الرومانسية أن تلقي بالخاتم من إصبعها في أقذار النبيذ . . وكان
الرجال يتبارون في امتصاصه ووضعه في أطراف أصابعها ليتوالى
سقوطه حتى الصباح!

ويقول تليش أيضاً: وعندما انتشرت موضة شرب النبيذ في
أخذية راقصات الباليه، كان السبب هو أن النبيذ الذي يتساقط من
الأقدام لا يكفي لارتواء الرجال . .

وكان راسبوتين هو الذي يضع النبيذ في حدائه الضخم،
وتتسابق النساء في شربه . . أو إلقائه على أجسادهن!

* * *

وأخيراً . . لا بد أن تحتار العيون مع هذه المأساة الخالدة . . هل
نبكي عليها بعين واحدة . . هل نلطم خدّاً واحداً . . هل تفتح
الجنة لهما، عفواً عنهما؟ هل نكمل عذابهما حين نتعاون على إلقائهما
في النار التي دخلها معاً في باريس وفي أديرة أخرى كثيرة . . هل
لأنه رجل دين، ولأنها راهبة، فالعقاب أعنف واللوم أشد والقذوة
الحسنة واجب . . هل لأن الحب سيد الموقف الأمر الناهي . . هل
لأن الموت هو الأمل . . ولذلك فقوانين الأرض والسماء لا تسري على
المحبين . . هل نرفع أيدينا فلا نرجمهما بالطوب والحجارة . . أو هل
نبني لهما بالطوب والحجارة قبراً من الشوك والأفاعي - عذاباً لا نهائياً
لهما؟!!

إنه الفيلسوف الديني أبيلار (١٠٧٠ - ١١٤٢) من أسرة غنية
قادرة على أن تستأجر وتشتري له بيتاً فخماً. وأن تساعد على بناء
المدارس والأديرة لمن يؤمن بفلسفته التي اصطدمت بالأفكار المنتشرة
في ذلك الوقت . .

هل لأنه بتكوينه الطبقي والفلسفي غير تقليدي، ومخالف
للمألوف، قد اندفع دون أن يدري إلى حب إحدى تلميذاته . .
راهبة اسمها هلويزه في الرابعة والعشرين من عمرها وكان في الثامنة
والأربعين، إنها كارثة. مصيبة سوداء. أن يفتح الفيلسوف كل

كتاب ويقلب صفحاته فلا يجد إلا صورتها، وإلا صوتها. إذا دقت
الكنائس أجراسها أحس كأنه عريس شرف وأن هذه الأجراس
زغاريد. .

وكلما أحس بالفجعة التي سوف تصيب راهباً عظيماً، انكفاً
يكتب على طريقة العصور الوسطى خطاباً باللغة اللاتينية إلى أحد
الأصدقاء يعترف بما أصابه. وبما سوف يصيبه. إنه الحب العنيف.
إنه سلطان سلاطين مملكة الفكر وشيطان شياطين الحب.

وكانت هلويزه تعيش مع عمها. وعمها رجل بخيل. ولم
يعترض على أن يقوم أبيلار بإعطائها دروساً خصوصية - ما دامت
بالمجان. وليس معروفاً إن كان عمها. فلا أحد يعرف شيئاً عن
أبيها وأمها وأسرتها. ولكن هذا العم يتكفل بها. وكانت هلويزه
جميلة ذكية واسعة الثقافة الفلسفية والدينية والأدبية. وعندما
اكتشف الأثريون بقايا جسمها من قرون لاحظوا أنها عريضة الجبهة
وأن جسمها متناسق وأنها رقيقة.

وكان أبيلار لا يمل وصفها في كل رسائله. يقول: لا أرى لك
نظيراً بين النساء. ولا لك نظيراً بين العلماء. ولا أرى لي حياة
بغيرك، ولا سعادة مع سواك، فهذا قدرتي وقدرك، هذا قدرنا. .
كما أن العذاب قدرنا.

وتقول هي: لا ملك ولا فيلسوف يرقى إلى مستواك. . يا من
هو أعلى من كل جبل، وأسمى من السماء، وشمس تبهر الشمس!

يقول الفيلسوف أبيلار أنه القلم وليس اللسان وسيلته الوحيدة
لأن يعيش الحب، وأن يصلي له . . إنها وحدة الكلمات المكتوبة .
أما الكلام فذلك شيء بعيد . .

وهرب أبيلار إلى الحياة في الأديرة يقاوم الحب الذي جرفه
بعيداً عن الدين . وظل في الدير سنوات . وبعدها خرج أكثر
اندفاعاً يبحث عنها .

وعاد عم هلويزه يطلب إلى الفيلسوف أن يتفرغ لتعليم هلويزه
ليلاً ونهاراً . يقول أبيلار: وهكذا وجد الذئب الجائع هذا الحمل
الوديع !

ويقول: في تلك الأيام قلنا معاً كل ما له علاقة بالحب والحنان
والحرام والحلال والهرب والانتحار، كل هذا قلناه ولمسناه
وعشناه . . وقررناه، وكل ما عدانا أصبح صغيراً، وكل من حولنا
أصبح شبحاً وظلاً . . لقد كبرنا جداً، وصغرت الدنيا جداً . . لقد
حكمتنا بالإعدام على الكون، وأفرغناه من الناس والقوانين، وظلت
لنا الكرة الأرضية: بلا أحد !

وأرهقته الليالي الطويلة . ولاحظ الطلبة أن أستاذهم لم يعد
قادراً على أن يكون أستاذاً . انشغل بنظم الشعر وتأليف الأغاني
والموسيقى . .

وفاجأ العم الفيلسوف والراهبة في فراش واحد . وكانت صدمة
للعلم . وطردهما، أما هي فكانت سعيدة . تقول: أخيراً وجدت
واحداً، أي واحد، رأى وأيقن من هذا الحب الذي بيننا !

ثم دخلت أحد الأديرة وأنجبت ابناً الذي أسموه «أسطراب»
- وهو اسم تلك البوصلة القديمة التي يضعونها في السفن. ولكن
أحداً لم يعرف لماذا هذا الاختيار؟

وذهب أبيلار إلى عمها يعده بالزواج من هلويزه!

واختلف العاشقان: هل يتزوج الرجل الذي نذر نفسه لله.
إن القديس بولس لم يتزوج، والفيلسوف شيشرون والحكيم
سنيكا. . فكيف يتزوجان؟

إن أبيلار يقُدّس الله، وهي تقدّس الله الذي في داخله.
ولكنها تقدّس النظام الذي أهانها وفضحها. . إنها تقدّس رجلاً
أهان الدين والقداسة!

وقالت له: إن زواج سقراط كان فادحاً. . فضيحة. . فلم
يكن من السهل أن يتزوج فيلسوف. فالفيلسوف يجب أن يتفرغ
لشيء ليس عادياً، والزواج يجعله رجلاً عادياً. .

وقد طلبت منه ألا يتزوجها. ولكنه كان العاشق الغيور عليها
من أن تحتويها أحضان رجل آخر. .

وتركا الطفل عند أخته في شمال فرنسا ولم يذكره واحد منهما
بعد ذلك. .

وعاد الإثنان إلى باريس وتزوجا سرّاً.

وقرر عمها أن يعرف الناس هذا الزواج . فأقام حفلاً دعا إليه كل الأصدقاء والأقارب والخدم والأعداء ، وتحدثت باريس عن هذا الزواج ، الذي أنكره أبيلار وهلويزه .

ولكن العم قرر أن ينتقم منه . فاستأجر عدداً من البلطجية . وهجموا على أبيلار ومزقوا أعضائه ! وتواري أبيلار في أحد الأديرة مع الفضيحة والعار عشر سنوات . لم يشأ أن يبحث عنها . ولا أن يبحث لها بخطاب واحد . .

وسافر إلى روما ، والتقى برجال الدين والبابا . . يكسب عطف الناس عليه . .

ومات بعد ذلك بعشرين عاماً . وفي هذه العشرين عاماً كان يحدث الناس عن عذابه وعن هوانه . . وكانوا يستمعون مرة إلى عذابه ومرة يشمتون في هوانه . . وكان له أعداء في الفلسفة والدين ، وأصدقاء في الحب والعشق . .

والتقى بهلويزه . . ورأت كهلاً محطماً . ورأت قبراً يمشي على قدمين . ورأت أفكاره مثل تراب القبر ، وقلبه مثل كهف مظلم رطب . . ولكنه في داخل الكهف ما تزال شمعة الحب تضيء ، ولو لم يكن هناك أحد .

ومات ودفنوه . ولما ماتت هي أيضاً دفنوها في نفس القبر . ويقال أنهم عندما أنزلوها إلى القبر نشرت ذراعيها ونشر هو

ذراعيه . . واستأنف الإثنان عناقهما الأبدي !

* * *

تقول هلويزه في رسائلها : ما حيلتي . . إذا كان الإيمان يجعلني
بلا جسد، وإذا كان الحب يجعلني بلا إيمان . . وإذا كنت أجد فيك
الحب والإيمان . فما تقوله لي : أمر . . وما تفعله : واجب مقدّس . .
فكيف أقاوم من استطاع أن يجعل السماء لحماً وشحماً ودماً ونوراً
ودفناً؟ قل لي أرجوك كيف؟ !

ويقول أبيلار : أنت أحسن حالاً . . أنت استطعت أن تفرّقي
بين السماء والأرض . . بين الإنسان والملاك . . بين الله
والشيطان . . بين نداء الحب وصوت الرب . . ولكن أنا لم
أستطع . . لم أعرف الفرق بين الألوان . . وبين الأصوات وبين
الناس . . فكل الأصوات صوتك، وكل الناس أنت، وكل نجوم
السماء عيناك، وكل رحيق الزهور شفتاك، حتى أنا أجدني فيك . .
فأنت أنا وأنا أنت، والذي اختاره لنفسي، لنفسك أيضاً . . فنفسي
نفسك . . وليس عندي وقت أفكر فيما تقولين، فالذي تقولين هو ما
أقول . ولا أعرف كيف أفكر فيما أقول . . فأنا مندفع إليك . . بل
إنني لا أبرح نفسي . . فأنا مندفع في داخلي . . اعذريني . لم أعد
ذلك المدرّس القادر على الشرح . فالدرس صعب، والمدرّس قليل
الحيلة، ولا أتوقع منك خطاباً، فخطابي إليك هو خطابك إلي . .
اعذريني . فأنا عندما حاولت بك ولك ومعك أن نمحو الكون كله،
من أجل أن نبقي وحدنا، نسيت ومحوت نفسي ومحوت نفسك .

محونا أنفسنا . . فأنمحيننا . . إن عذمي يخاطب عذملك . . فيا عذمي
الذي هو أقوى من الوجود . . لم أعد في حاجة إليك ، فقد استغنيت
بك عن كل شيء وكل الناس . . استغنيت بك عنك !

أما ردها عليه ، وهو آخر كلماتها إليه معك حق . . معي
حق . . أنت وأنا : الحق !

المستحيل : زوجة السلطان؟

هذا فيلسوف عاشق لم أجد اسمه بين الفلاسفة أو العشاق .
هي الصدفة التي جعلتني أقفز في أعماله الأدبية وحياته . هل هي
مأساة؟ هو يقول أنها كذلك ، إنه دوموس فيكتور . من أصل
إيطالي؟ يجوز . من أصل مجري؟ ربما . . هل لا أصل له؟
محتمل . .

ولكن من المؤكد أنه «عجري» الطباع . . نافر . . بعيد . .
متباعد . . وحريص على أن يظل كذلك . هو يقول : إنني لم
أتزوج ، وليس في نيتي . والحقيقة : أنه متزوج . . ويفسر ذلك
بقوله : إن الزواج شعور بقيود كثيرة ، ولكني لست أشعر بشيء
من ذلك . . ولا يريد!!

يقول كثيراً وطويلاً هكذا: لها حياتان: حياتها وحياتي! نحن
عقلان في رأس واحد: رأسها!
أفضل أن أذهب إلى طيبة الأسنان، فعندها أجد من يقول
لي: إفتح فمك!

أحب أن أنظر إلى الأرض عند قدميها كلما حدثتني: إنها قطعة
أرض في مقابل قطعة سلام!
ليس صحيحاً أن المتزوجين أطول عمراً، فقط إنهم يشعرون
بأن سنواتهم تتحرك ببطء!

أنا وهي نحب شخصاً واحداً: هي!
تزوجنا على الحلوة والمرّة - لم أستطع أن أكون أحلى، ولم
تستطع هي أن تكون أكثر مرارة!
متناسبان تماماً: فكل منا يكره الآخر!

الحب كأفلام التصوير يجب تجميعها وطبعها في الظلام.

وكأفلام السينما القديمة لها نهاية سعيدة.. . وكأفلام السينما الجديدة،
لا تنتهي بالزواج!

— أحب ومستعد أن أموت من أجلك؟
— متى؟

— ما الذي يجعلك على يقين من أنها مخطوبان؟
— هي تضع دبلة وهو مفلس!

— ما الذي تعرفه عن الحب؟
— كثيراً جداً.. . لقد عملت سائق تاكسي لخمس سنوات!

— لقد أرهقني حبها؟
— إنها غلطتك لماذا لا تكف عن الجري وراءها!
قبل الزواج وعدتني أن تمسح وتكنس وتكوي - فلم تتوقف عن
مسح دموعها، وكنسي من البيت.. . ثم كوتني بنار الغيرة!
لم أكد أوافق على الزواج حتى أخرجت ورقة من جيبها
وكتبت: الشقة ومدرسة الأولاد.. . وهل من الضروري أن تزورني
أمك ما دامت لا تتفق مع والدتي!

— يقال أنه سوف يتزوج!
— يستاهل. إنني أكرهه!
— هل هو زواج سعيد؟

— أعتقد ذلك . . فهو ما يزال يبتسم رغم مرور يومين على هذا
الحادث!

ليس عاراً أن تكون فقيراً، ولكنه في غاية التعاسة!

قلبها من ذهب: جامد لامع بارد!

من المؤكد أن قلبها معي، ولكن بقية أعضائها، مع الآخرين!

بعض فساتينها تفضحها، ولكنها تفضح أكثر فساتينها!

أسميها: قهوة - فقد عرفت معها الأرق والليالي الطويلة!

* * *

إن قصة هيامي بالغجر وحياة الغجر طويلة . . فإنني أرى حياة
الغجر أنسب حياة للفنانين والفلاسفة: أن يكونوا بعيداً عن الناس
ولكن يرقبونهم . . ومن حين إلى حين يذهبون إليهم، يتزودون
بالمعاني ثم يعودون إلى أبراجهم يفكرون ويتأملون . . دون أن
يطاردتهم حاكم أو قانون أو تقاليد: إنهم دودة قز . . إنهم حيوان
لؤلؤ . . إنهم نسور يبنون أوكارهم فوق! سعداء؟ ليس من
الضروري . . فالسعادة ترف عظيم . . إنهم على الحافة بين الرضا
والسخط، بين الأمن والقلق، تعساء؟ ليسوا سعداء ولكنهم
معذبون بما لديهم من حساسية شديدة . . هل هناك حل؟ لا حل
فهم مشكلة إنسانية مهمتها حل مشاكل الإنسانية . . إنهم مثل
مخترعي العدسات . . أكثرهم ضعيف النظر. ولكن مهمتهم خلق

شيء يستخدمه الناس ليروا أوضح وأبعد وأعمق . .
فما الذي يريده دوموس فيكتور (٨٥ عاماً) من حياته ومن
غرامياته؟
إنه اختار المستحيل . وكفى .

وكل فنان يختار نوعاً من المستحيل ، ويمضي العمر كله يحاول
الوصول إليه . . كل الشعراء أحبوا القمر . . ولياليه . . وأحبوا معه
المحوبة . . وكرهوا مع لونه الغيرة ، وخافوا مع اختفائه من الهجر
والموت . . وأحبوا الأماكن البعيدة المهجورة . . ليبقى الحبيبان
وحدهما .

وكان الشاعر الجاهلي القديم يقول لمحبيبته : لو كنا جملين
أجربين في صحراء مقفرة - فلا يقربهما أحد ، ولا يراهما .
وكل فتاة تحلم بمن يجيء والناس نيام ويضعها على حصان
أبيض . . ويظل الاثنان على ظهر الحصان حتى الموت . . أو قبل
الموت بدقيقة واحدة في مكان مهجور . . فقط تريد أن تكون وحدها
معه ، حتى ولو لم يكن هناك هدف - حتى في القبر !

وفي الأساطير القديمة : كانت بنت السلطان - أي الرجل القوي
العظيم صاحب القلاع والحراس ليلاً ونهاراً . . ثم يجيء الحب
ويدوس القلاع والحراس ويجمع بين العاشق الولهان وبنت السلطان
المحرومة من السعادة . . ولكي يصل العاشق إلى بيت السلطان ، لا
بد من معجزة . . وتكون المعجزة أن تهرب بنت السلطان . . أو

تجىء ساحرة وتساعد العاشق على دخول قصر السلطان . . أو
يمرض السلطان ويرى في نومه أن شاباً فقيراً واقفاً بالباب هو وحده
الذي سوف ينقذه من الموت، وتكون المكافأة: زواجه من بنت
السلطان!

وكانت أول قصص دوموس فيكتور أنه أحب ابنة قائد الشرطة
التي حاصرت أحد مخيمات الغجر على حدود مدينة ميلانو
الإيطالية .

وفي نومه قام بطل قصته «وعلقت حذاءها في عنقي» وقتل
جميع أفراد القبيلة . . ثم فرش بملابسهم الأرض . . وزرع رؤوسهم
أشجاراً، ومن زراير بداهم عقوداً وأقراطاً . . ثم ألقى بقلوبهم في
النهر . . لتجىء ابنة قائد الشرطة لترى الفضيحة التي قدمها
العاشق . . فتعلق حذاءها في عنقه . . وأسعده ذلك . . وفي نهاية
القصة يقول: هناك شعوب خلقت للعرش، وشعوب للركوع
أمامه، وشعوب تتفرج على ذلك . . ونحن نكتفي بذلك الشرف
العظيم: أن نكون على مقربة من حفلة التتويج هذه. وأن أحمل إلى
قومي دليلاً على صحة ما حدث . . فهذا حذاء بنت السلطان قلادة
في عنقي!



ولكن دوموس اكتشف، مع الأسف الشديد، أنه يجب زوجة
السلطان . . متوسطة الطول سمراء لها ابتسامة جميلة ونظرة أجمل
ولسة من أصابعها مع هزة من رأسها، والتفاتة من جيدها، تجعله

يدوخ في مكانه، ويتقلب في فراشه.. ولكن ما الذي يقوله لأحد.. إنها زوجة السلطان.. ولكن ما الذي يستطيعه السلطان لمن يحلم كل ليلة بزوجته ويجعلها زوجته.. ويحدثها طويلاً عن السلطان الذي هو سلطان لكل الناس.. ثم لا أحد يحب السلطان.. ولا هي.. ولكنه هو وحده الذي يستطيع أن يعطي وأن يقول.. وأن يرد لها إنسانيتها.. وأن يوقظ النائم في أعماقها: قلبها.. كرامتها.. أنوثتها.. وما قيمة السلطان.. إنه رأس رسمي مزركش.. هو يصفق له والناس لا يحترمونه.. أين هذا من الفستان الحريري والسرير الحريري والعطر المترنج في فراشه كل ليلة.. أين هذا من المغنيات والراقصات على سقف الغرفة وعلى جدرانها كل ليلة.. أين العرش من زورق حالم على سطح الماء، وهي على سطح الزورق وهو.. كل ليلة.

— فاشل هذا الحب؟

— نعم. وكل حب فاشل. فالذي يتحقق قد انتهى. والذي انتهى لم يعد حباً وإنما هو ذكرى حب. فالحب الحقيقي يولد ولا يموت! وإنما الحب يتوالد.. كالشمس تشرق وتغرب وتشرق.. والحب كالشمس أطول عمراً على الأرض التي يشرق عليها.. ولكن إذا ماتت الأرض فلا شروق ولا غروب.

فهذا الحب من عمر عمري.. ومن فشلي أيضاً! ثم أن أكثر الشعوب حضارة أكثرها فشلاً في الحروب: ألمانيا وفرنسا والصين

والنمسا والمجر وتركيا ومصر!

— هل هو حرام؟

— ليس حراماً . . ولكن العذاب حرام ، ما ذنب المحب إذا
اختار المستحيل فالذي يحب المستحيل لا يستحق الموت ، فليس
مجرماً ، ولا يستحق العذاب فهو لم يغتصب حقاً ولم يهتك عرضاً . .
إنه يضع خياله وأحلامه ويبكي على عمره!

* * *

ويوم اختلف دوموس مع صاحب الفندق . ولم يدفع فهدده
بالحبس فقال له :

— الحبس أرجوك .

— لماذا؟

— أنا حبس طول عمري . في هذا الجسم . في هذا المجتمع .

في هذه الطبقة . . في هذه الفئة الضالة من مخلوقات الله . .
حبس هذه الأرض . . ضعني في السجن يا سيدي . . ففي السجن
سوف أشعر ببرودة الجدران والأرض والسقف والحشرات . .
احبسني يا سيدي . . ففي السجن سوف أجد عذاباً محدداً . وخارج
السجن فلا حدود لعذابي .

— هل هو القدر؟

— قدري يا سيدي . . لو كنت عند بدء الخليقة لسألت الله :
ولماذا قلب واحد يا رب؟ لماذا لا يكون لي ألف قلب ، فيكون ذلك

توحيداً للعذاب وتركيزاً له في عضو واحد ومكان واحد . . لسبب واحد هو أنني أحببت زوجة السلطان . . أحببت المستحيل . . أحببت عرشاً أحلم بأن أجعله فراشاً وثيراً . . بل حصيراً ممدوداً . . بل تراباً ناعماً أتمرغ عليه في شمس الوفاء . . وأموت بعد لحظات من ذلك . . هل هذا كثير؟ . . ليس كثيراً!

— وبعد؟

لا بعد . . هذا هو «بعد» . . فلا بعد وراء ذلك! انتهى كل شيء . . إنها نقطة في نهاية السطر . . إنها ذرات الكلمات في هذا السطر . . بل إنني صدى أصداء التراب على التراب . . حرام والله يا الله!

— ليس حراماً ما أراده الله!

— آمنت بالله . . ولكنه حرام!

— كيف تؤمن بالله وترى الحرام حلالاً؟

— إنه حلال فوق، حرام تحت . . لو سقط نيزك من السماء،

فلا أحد في السماء يشعر به، ولكن الأرض تهتز والزرع يموت والحيوانات . . وأنا أحترق . . ألا يحق لي أن أرفع صوتي صارخاً:

حرام يا رب!

— سقوط نيزك ليس حراماً . . إنه حجر ملتهب يسقط على

حجر بارد . . ولكن الحرام هو أن كل هذا الكون يتحرك ضدك . .

أن تتصور ذلك وتصدقه وتحاول إقناعنا به . . وأنت المظلوم، لا واحداً من ملايين، ولكن الواحد المظلوم . . فلست عظيماً إلى هذه

الدرجة ، ولا هذا الكون تافهاً إلى هذه الدرجة!
— ولكن ألا ترى أن صرخة مظلوم في وجه الكون، شيء
جليل . . ألسنت ترى أن يكون للإنسان ألف قلب، أكبر من
احتماله . . ألا ترى أن كائناً طويلاً جداً يحرق رأسه في قرص
الشمس . . ألا ترى أن قزماً صغيراً جداً، يتخبط برأسه في بيوت
النمل . . ألا ترى في ذلك درجات من العذاب بلا جريمة!!

* * *

وعندما دخلت الخادمة عليه وقد ألقي أوراقه على الأرض . .
ثم نهض وكدسها في جانب من الغرفة . . ثم عاد ففرّقها على
الأرض . . وقسّمها يميناً وشمالاً . . ومسح بها عرقه ودموعه . . ثم
أعاد ترتيبها والتفت إليها . فقالت له : كل هذا للحريق!

فأجابها : بل بسبب الحريق!

وهزت رأسها وكتفيتها وأقفلت الباب . فلم تفهم!

* * *

والتقى به أحد رجال الدين ، ولم يقل لنا من أي دين . فتارة
يوهمك بأنه يهودي وتارة بأنه مسلم أو بوذي شيوعي أو ملحد . . أو
وجودي أو غجري . ثم لا نعرف من الذي يسأل ومن الذي
يجيب؛

— كان من الممكن أن نصبح واحداً من رجال الدين .

— نعم . كذلك كان من آمال العالم الفلكي كبلر وعالم الأحياء

داروين وعالم النفس فرويد . . فلا بد أن يكون للإنسان دين . .
وكل من يجب هو مؤمن .

— ولكنك فيلسوف لم تكتب إلا قصة واحدة وقصيدة واحدة .
— وتشرشل كتب رواية واحدة وكذلك موسوليني والممثلة سارة
برنار . فعندما كتبوا كانوا أدباء ، وإن كانت لهم اهتمامات أخرى
أكثر بريقاً !

، — وفي هذه الرواية كانت جنتك ؟

— جنتي هي حيث أكون . إنني أستطيع أن أعيشها فوراً .
أغمض عيني فلا أرى غيرها ولا أسمع سواها . . واللجنة هي أحلام
يقظة الشعوب أيضاً . . فما من شعب إلا ويقنع نفسه بأن الجنة
سوف تكون على أرضه ، مصر والعراق واليمن وأندونيسيا
 وأمريكا . . وربما الصين وروسيا . . فهم جميعاً يحلمون بأن يكونوا
شعب الله المختار . وأرضهم هي الجنة الموعودة . . ولكنهم ينتظرون
حتى تقوم القيامة . . أما أنا فأقيم الدنيا وأقعدتها . . وأبني جنتي فوق
كتفي وأحملها ذهاباً وإياباً . جنة وهمية وجهنم مؤكدة !

* * *

تعلم دوموس فيكتور في مدرسة صغيرة في إحدى القرى
الصغيرة لمدينة تورينو الإيطالية . ورحل إلى مدينة أخرى . . ثم
رحل إلى الثالثة . . وكان ينظر من فتحة في العربة التي تنقله إلى
الحقول والوديان والجبال والغابات ولا يفهم شيئاً . . لماذا كل شيء
له صوت . . له دوي . . لماذا كل شيء متحرك . . وحتى عندما

تتوقف القبيلة الغجرية فإنه ينقل السرير وأدوات الطعام والمقاعد .
ويجري من السوق إلى الخيمة . . وفجأة .

يعاد كل شيء إلى ما كان عليه وترحل القبيلة الغجرية . . مرة
واحدة أدخلوه السجن . فقد رأى أحد عساكر المرور جليلاً مهيباً
فقفز من العربة واتجه إليه وحاول تنحيته عن مكانه ليقف بدلاً منه
راسخاً ثابتاً وكل شيء يتحرك حوله بأمره وإذنه . . فقد كان يرى في
عسكري المرور أعظم إنسان في الكون . . فهو الأمر الناهي . .

ومرة أخرى دخل السجن . فقد تسلل إلى إحدى الكنائس
وألقى طوبة على القسيس فقد رآه أبيضاً لامعاً مشرقاً . والناس
ينحنون له ويسجدون ثم يقبلون يديه ويتركونه !

ثم دخل المستشفى بعد أن أصيب بالتهاب رئوي ، فبحث عنه
أهله ووجدوه قد ربط نفسه بالحبال فوق شجرة في يوم مطير . . ولما
سألوه قال أنه قرأ قصة لأحد الرهبان قد جلس فوق شجرة يأكل
ويشرب بعيداً عن الناس الذين يمشون حوله فيصق عليهم !
وظهرت موهبته الفنية . .

فقد علمته أمه أن يغني وأن يرقص وأن يمد يديه بخفة إلى
جيوب الناس وأن يسرق وأن يهرب . . وأن يتلع الذي سرقه إن
كان ذهباً أو كان من الماس !

وظهرت موهبته في العزف .

وعلمه أبوه ترقيع الأحذية وعلمه أيضاً ذبح الطيور . .

وكان أعظم يوم في حياته عندما علمه أبوه، أن يقود السيارة .
رغم صغر سنه . ولكن والده بدأ يشكو من آلام الروماتيزم . ولم
يكن أبوه لطيفاً ولا كان عنيفاً . ولا شيء على وجهه يدل على أن
لديه أي نوع من الإحساس .

وفي يوم سأله دوموس وكان في الخامسة عشرة من عمره :

— يا أبي هل كانت أمك تضربك؟

— كثيراً .

— وهل كنت تتعذب لذلك؟

— نعم .

— وإذا تذكرت هذه الأحداث الآن ألا يحزنك ما حدث؟

— جداً .

— ولكن شيئاً من ذلك لا يبدو على وجهك !

— نحن يا ولدي بلا وجوه .

— كيف؟

— إن أجداً لا ينظر إلى وجوهنا . . لا يعرف ماذا نريد . .

لأنهم يعرفون ماذا نريد ولذلك فلسنا في حاجة إلى تعبير . . ولا إلى

وجه يبدو عليه هذا التعبير !

— أأست بشراً؟

— لا يا ولدي !

- إذن من نحن؟
- كما ترى .
- بشراً! . .
- سوف تغير رأيك عندما تكبر . .
- ولكنني كبرت .
- عندما تكون في سني؟
- وما رأيك الآن يا أبي؟
- لسنا بشراً . . ولكن الذي يرانا عن قرب يخيل إليه كذلك!
- لأننا من الغجر؟
- نعم .
- والغجر ليسوا بشراً؟
- ما داموا بلا دولة!
- ولكن أناساً كثيرين لهم دول، يعيشون فيها كالحوانات . .
- كالكلاب . .
- ولكن لهم دولة . . فهم كلاب رسمية . . ونحن كلاب ضالة!
- وإذا كنت أخالفك في هذا الرأي!
- سوف تتفق معي فيما بعد!
- لن أتفق!
- ستفقد كثيراً يا ولدي . . معي أولاً . . ومعهم ثانياً!
- وبعد؟

— إني مريض يا ولدي .. لا ترغبني على أن أعود إلى قيادة السيارة حرصاً على حياة أمك وأخوتك .. فأنت الآن لا تصلح لقيادة السيارة .. أو قيادة هذه القبيلة .. كنت أريد أن أعلن لك عن اختيار القبيلة لك .. فهم يرون فيك أملاً لمستقبلهم ..

— أنا شيخ لهذه القبيلة؟

— ولكنك الآن خذلتني ..

— أنا شيخ لهذه القبيلة؟

— نعم ..

— لماذا؟

— لأنك ذكي .. لأنك مطرب وراقص .. وشاعر .. ولأنك

ولدي .. فقد كان جدك شيخاً لهذه القبيلة!

— لكي أعمل ماذا؟

— لكي تواصل ..

— أواصل ماذا؟

— تواصل هذا!

— وما هذا؟

— هذا الذي لا تراه على وجهي ..

— الصمت والغموض ..

— .. والهرب ..

— من ماذا؟

— من أن نبقي في مكان واحد فيتسع أمامنا فنفكر في حالنا ..

وإذا فكّرنا أصابنا ما أصابك . . فثرنا على حالنا . . فندخل السجن
فنفقد الشيء الوحيد الذي نحرص عليه: الهرب . . الهرب . . ولو
لم تكن هناك جريمة . . وإلا قل لي ما هي الجريمة التي ارتكبتها
الحمار ليكون كذلك . . والخنزير والكلب والصرصار لا جريمة . .
وكذلك نحن بلا جريمة وبلا خلاص ولا أمل في ذلك!

* * *

وأما أعماله الأدبية فهي دراسات عن التاريخ والإنسان. وعن
الجماعات المنعزلة على أطراف الغابات ووسطها والواحات
وجماعات الغجر في المجر وبولندا وأسبانيا والمغرب . . وكتب أخرى
في الصناعات اليدوية . . وقراءة الطالع . . وتدوين للأغاني
الغجرية، وبحث عن مصادرها الأوروبية والآسيوية . .

ومن أشهر أعماله رواية «أشجار لا تعرفها الطيور» ولها نفس
المعنى الذي يتعذب بها أبناء الغجر . .

وله ديوان من الأغنيات الشعبية الإيطالية والفرنسية والألمانية
والبولندية والصحراوية والزنجية . وقد حاول أن يجعلها رمزية . وقد
ظهرت كل أعماله في لغات كثيرة . ولأنه بلا جنسية فهو لا يتعاقد
مع أحد . وإنما يعطيها للناس ويتقاضى أجرها فوراً ويتوارى .

* * *

وأما بطولات قصائده فلها أسماء سلافية أو خليط من الشرق
والغرب: تها . . توخا . . هالينا . . سؤزي . . سوزان . . منونة . .
وأحدث أعمال دوموس الأدبية هو الذي نشره قبل مرضه . إنه

مذكرات أدبية . أو مذكرات بأسلوب أدبي ، وإن كانت مواقف
ومحاورات ذاتية - مونولوجات .

يقول :

- يا دوموس حيرتني : إن كنت مريضاً فليس عندي شفاؤك .
إن كنت سليماً فليس عندي ثوابك .
- أعرف ولكن كيف لا أشكو . . كيف لا أشكو . . كيف لا
أشكو نفسي لنفسي !

* * *

- يا دوموس إن كان كل الذي تريده هو السلطان ، فهذا
سهل . كثيرون استطاعوا أن ينالوا السلطة وأن ينالوا من
السلطان . . ولكن زوجة السلطان يا دوموس كيف ؟
- ولكن كيف لا أحلم بذلك ؟

- ولكن من هو الحالم الذي لا يريد أن يكون الحلم حقيقة ؟
- أنا الذي لا أريد الحقيقة . . والذي أعرفه من الحقيقة
يوجعني . أعرف حقيقة أننا بشر ولسنا بشراً ! وأعرف أننا أناس دون
الناس . أعرف أننا أحياء فضلاً وكرماً من الناس . . أعرف أننا لا
كلاب ولا طيور ولا خنازير . . بل دون ذلك . . فكيف تتصور
لحظة واحدة أنني أريد الحلم أن يكون حقيقة ؟ ! فقط أحلم !

- ولا حق لك في أن تحلم . . فلست مؤهلاً لذلك . . يحلم أن
يكون ضابطاً من هو جندي ، يحلم بأن يكون قائداً من هو

ضابط . . يحلم بأن يكون سلطاناً من هو ابن السلطان . . يحلم
ببنت السلطان ابن سلطان آخر يحلم بزوجة السلطان مجنون . .
حتى أنت لست مجنوناً . . فالمجنون يجب أن يكون وأنت لست
كائناً .

— بل كائن!!

نعم . ولكن على هامش الكائنات!

يسعدني كثيراً أن تموت كل النساء من أجلي!

. تراحمنا ووقفنا وجلسنا حول الرئيس السادات في بيت السفير المصري في واشنطن نريد أن نعرف أسرار «كامب دافيد» وكان الرئيس مرهقاً يمسح عرقه بمناديل من الورق ويديه ولكن في غاية الحيوية . وفجأة طلب واحد منّا وكان صادقاً فيما يقول: ألا ينشر خبر استقالة وزير الخارجية حتى لا يؤدي إلى إفساد هذه البهجة باتفاقية السلام. . أو حتى لا يكون بقعة سوداء في ثوب الزفاف. .

وثار الرئيس السادات: وقال كلاماً موجعاً واندحشت عندما سمعته يقول:

ميمي ييه. . أما ميمي ييه حقة!

و«ميمي بيه» إسم شخصية كاريكاتورية لم يعد أحد يرسمها أو يتذكرها. هل لأن هذه الشخصية انقرضت بعد أن ظهرت كرد فعل على الخشونة المطلوبة بعد ثورة يوليو؟ أو لأن «ميمي بيه» أو «ميمي» لم يعد بينهما فرق كبير. فكلهما أصبح يضيق بالخشونة والتقشف!

فكيف تذكر الرئيس السادات «ميمي بيه» ووصف ووصم به أحد الزملاء. لا بد أن الرئيس السادات قصد من ذلك أن يصف موقفه بالضعف وبأنه لا يفهم في السياسة العنيفة. أو لا يعرف ما يجب أن يفعله السياسي الخشن في مثل هذه المواقف.

سألت الأستاذ الكبير مصطفى أمين متى ظهرت هذه الشخصية الكاريكاتورية. فقال لي أنها من اختراع المرحوم علي أمين والفنان الكبير رخا. وأنها كانت بقصد السخرية من الشخص الناعم أي من الرجل الأنثى - أي أقصى درجات الرخاوة والطرادة!

وظهرت في الخمسينات في مصر أيضاً تعبيرات لها نفس المعنى:

جيمس دين . . وهو الممثل الأمريكي الذي مات في حادث سيارة .
وقد أطلقته السينما الأمريكية رمزاً للفتى الضعيف الذي يثير عاطفة
الأمومة عند كل امرأة . وكانت له خصلة تتدلى على جبهته . . وكنا
نصف من يقلده أنه جيمس «دون» !

ومع ظهور أغنية عبد الحليم حافظ «أبو عيون جريئة» . . ظهر
بعض الشبان ولهم شعر جيمس «دون» ولهم عيون تبحلق في
الفتيات . . وكان ذلك نوعاً من الخروج على الآداب والتقاليد . . أو
على الانضباط المطلوب من أبناء مصر بعد ثورة يوليو . وقد اعتقل
المشير عبد الحكيم عامر عدداً من هؤلاء الشبان وحلق رأسهم
بالموسى - وهو نوع من الانضباط العنيف !

ولنفس الأسباب ظهرت شخصية مارلون براندو . . وأصبحنا
نطلق هذا الاسم على الناس الذين يعتنون كثيراً بالوجاهة والأناقة
وجاذبية النساء . حتى أننا أطلقناه على الشيخ عبد الباسط عبد
الصمد ، أجمل الأصوات في ذلك الوقت وأكثر القراء أناقة وشياكة ،
فقلنا عبد الباسط براندو !

وقبل ذلك كنا نغمز ونلمز عند مرأى رجل أنيق أو سيدة
«قنزوحة» : هه . . بتوع نادي الجزيرة !

أول مرة سمعت اسم نادي الجزيرة كان في اجتماع التحرير
لمجلة «روزاليوسف» سنة ١٩٥٠ . . فقد سمعت محرراً اسمه
إسماعيل سري ، ابن أخي رئيس الوزراء حسين سري باشا يشكو

الأستاذ صلاح حافظ للأستاذ إحسان عبد القدوس . أما الشكوى فجاءت هكذا : إنني لا أستطيع أن أدخل النادي . . سوف يأكلون وجهي . . هل معقول أن ترتدي «مولى» - يقصد آمال الشقراء الجميلة الفارعة - جوباً أسوداً وبلوزة حمراء بنقط سوداء؟ إنني أضحوكة نادي الجزيرة . . ثم أنني نُبِّهت صلاح حافظ أكثر من مرة أن يراعي الدقة . . أن «روزاليوسف» هي نكتة نادي الجزيرة . . أقسم بشرفي !

أما الخطأ الفادح فهو أن صلاح حافظ عندما أعاد كتابة هذا الخبر جعل لون البلوزة أحمر، مع أنه كان أبيض؟ !

وفي ذلك اليوم تسلفت مع أحد أقاربي الأغنياء إلى نادي الجزيرة . . ولا أذكر بوضوح ما الذي رأيت . . هل صحيح أن كل الموجودين كانوا من الخواجات . . هل كانوا جميعاً يتكلمون الفرنسية . . هل كل سيدة تسحب وراءها كلبها وزوجها . . وكل شيء كان لامعاً : العيون والصدور والأذان والأصابع والأكواب . . والدموع في عيني . . عندما أمسكني أحد موظفي النادي وسألني إن كنت عضواً ! (وهذا قد يفسر لي أنني عضو في نادي الجزيرة من ثلاثين عاماً ولم أدخله إلا خمس مرات - ربما؟ !).

وبعد ثورة ١٩١٩ ظهر تعبير أصحاب «الجلاليل الزرقاء» . أي الفلاحين والعمال في مواجهة أصحاب القمصان البيضاء . والبدل - أي الطبقة الأرستقراطية . . ثم ظهر أصحاب «القمصان

الزرقاء» أي شباب حزب «الوفد» . . ومع ظهور الفاشية في إيطاليا ظهر أصحاب القمصان البنية . . ومع ظهور النازية ظهر أصحاب القمصان السوداء . . أي الذين لا يهتمون بمظهرهم الخارجي . . والذين لا يحرصون على الملابس المتنوعة الأشكال والألوان . وإنما هم أصحاب الزي الواحد الموحد . . أي الذين يطالبون بالمساواة القومية بين العمال والفلاحين والجنود، في مواجهة الطبقة النبيلة : الأغنياء ورجال الأعمال والأسرة المالكة !

* * *

ولسبب ليس واضحاً تماماً ومن مائتي عام ظهر في بريطانيا اتجاه اجتماعي اسمه : شباب المكرونة . . ولم تكن المكرونة نفسها - تلك العجائن المعروفة - شيئاً جديداً في بريطانيا ولا حتى في أوروبا . . فهي اختراع قديم صنعه الصينيون وانتقل إلى ألمانيا واستقر في إيطاليا بأحجام وأشكال وألوان متنوعة لذيدة .

ثم ظهر في بريطانيا في سنة ١٧٧٠ سلوك اجتماعي وصفه الناس بأن هؤلاء الرجال : مكرونة . .

ثم كان النادي المعروف باسم «نادي المكرونة» وقد اتخذ النادي هذا الاسم لأن المترددين عليه يرتدون زياً مختلفاً : القميص الأبيض الحريري والبنطلون الأبيض ورباط العنق الأحمر المانع . والوردة الحمراء في الصدر ثم الإيشارب الأزرق والبنطلون المفتوح من أعلى المخنوق من أسفل . . ثم أنهم يفضلون الوقوف أمام باب النادي . ومن عاداتهم أيضاً أنهم يدورون بعيونهم وأجسادهم كلما

مرت سيدة جميلة. وكانوا حريصين على الانحناء يمينا وشمالاً تحية للجمال العابر. . وبعضهم كان يحمل زجاجة من العطر في جيبه. ويلقي بقطرات منها في يده. . وأحياناً في يد غيره. . أو يلقي بالزجاجة كلها عند قدمي أية حسناء.

وأكثر هؤلاء الشبان لم يكن أحد يعرف إن كانت لهم وظيفة، أو أنهم من أولاد الذوات. .

ومن علاماتهم أيضاً: أنهم ينادون بعضهم البعض بأسمائهم الصغيرة. فلا أسماء عائلية.

وبعضهم كان يتباهى بأنه لم يذق نوماً ولا طعاماً أياماً. لماذا؟ إنه الضيق بكل ما في البيت. والبيت نفسه وبأنه مضطر إلى أن يعود إلى نفس الفراش ويتمدد إلى جوار نفس الزوجة.

وفي ذلك الوقت من نهاية القرن الثامن عشر انتشرت «قصيدة المكرونة» - أي الشعر الذي تنتهي أبياته عادة بكلمات أجنبية: يونانية أو لاتينية. .

وكان قد برع في هذا الفن الشاعر الراهب فولنچو وذلك في نهاية القرن السادس عشر، وكان له أثر كبير على الشاعر مولير. وعلى الأديب الفرنسي رابليه أيضاً.

وهذا الطراز من شباب المكرونة، لم ينتشر إلا في لندن وحدها.

ولكن ظهر هذا الشباب بصورة أخرى في باريس مع الثورة الفرنسية، وبعدها أيضاً. فمع الانضباط والقسوة والتقشف الذي أشاعته الثورة الفرنسية، ظهر تمرد على كل ذلك تعبيراً عن الضيق والسخط وإراقة الدماء والظلم. صحيح أن الشعب الفرنسي قد كفر بالملكية، وجاهلية الأسرة المالكة وحكم الغواني. ولكنه في نفس الوقت لم يحتمل أن يجيء ظلم جديد بدلاً من ظلم قديم. . فبعد أن كان الظالم ملكاً أنيقاً وغانية مشيرة، جاء الفلاحون الأجلاف والعمال الغلاظ يسومون الشعب الفرنسي ظلماً من نوع جديد. . ولذلك ظهرت جماعات تعيد الأناقة والميوعة والوقوف بظهورهم إلى الحائظ يتفرجون على الوحوش الأدمية التي ترفع أسمى مبادئ الانسانية.

ثم أخذت الثورة الفرنسية تأكل أولادها زعيماً بعد زعيم . .
ويوم أعدموا زعيمهم روبسبير سنة ١٧٩٤ كانت الفرحة تعم
البيوت . . وفي ذلك اليوم اهتدى التريزية في باريس إلى قميص أحمر
به نقط بيضاء . . وقمصان بيضاء بها نقط حمراء . . ثم قمصان
بيضاء حولها أربطة زرقاء . . ثم اختفى اللون الأحمر . . اختفى لون
الدم - أو كان ذلك واحداً من آمالهم .

وكان الفرنسيون قد أطلقوا على الشعب اسم «سان - كيلوت» أي الذين لا يلبسون الكيلوت. والكيلوت هو البنطلون القصير الذي يرتديه أبناء الطبقة الأرستقراطية - يجب أن يكون قصيراً

مناسباً لركوب الخيل. أما الشعب فهو الذي يرتدي البنطلون الطويل أو السروال.

وظهرت الحفاوة الشديدة بالزّي وبالمظهر الخارجي. والثورة الفرنسية هي التي دفعت الفرنسيين إلى التفنن في الأزياء الأنيقة - أي الأزياء التي تعبّر عن الانفلات من قيود الثورة. . أي رفض الزّي الواحد، والقالب الواحد والنظرية الواحدة. . فالثورة الفرنسية فجّرت عبقرية فرنسية أخرى: عبقرية الأزياء وتصميم الأزياء وبيوت الأزياء، وإذا كانت ثورة فرنسا هي أم الثورات. . فهي أيضاً أم الأناقة. . أم هذا التغير المتجدد في اللون والقماش والخط، فهي الثورة التي لا ينتهي إبداعها مع فصول السنة. فلا تزال باريس هي عاصمة النور والعطور والخور. وهي التي تحكم الذوق العالمي - ولا استثناء لهذا الحكم إلا في بيوت أزياء باريس!

ثم استطاع الشعب الفرنسي عاشق الحرية الفردية أن يعقد زواجاً سعيداً بين الثورية والأناقة. فكان الأنيق جداً ثورياً أيضاً. ما المانع؟ إنه حر، اختار الثورة الفرنسية واختار أن يكون فلاحاً أو عاملاً أو مفكراً اشتراكياً أو أنيقاً فوضوياً. وأصبحنا نجد الفرنسي الأنيق «ميمي بيه» أو «الرجل العايق» أو «المعجباني» وكذلك السيدة «المشخلعة» - وكلهم يعبدون البطل الأسطوري نابليون.

ولكن نابليون رغم ما يتمتع به من عبقرية عسكرية، ومن حرية ثورية جعلته كالبركان يقذف بالجديد في كل مجالات العلوم

والفنون، فإن إحدى الفتيات قد رفضت الزواج منه . . لماذا؟

قالت الفتاة أنها نظرت إليه من ثقب الباب فوجدته يمسخ
حذاءه في بنطلونه وأنفه في كفه ويدوس بحدائه ما بصقه على
الأرض . .

وأكثر من ذلك: لم تجد معه صندوقاً للعطور والبودرة!

فنايليون الذي كان شمساً تضيء وتدفيء كل بيت، قد نسي
نفسه!

وفي وليمة في بيت أحد النبلاء أمسك ناييليون السكين بيده
اليسري والشوكة بيده اليمنى . . ولما وقعت الملعقة على الأرض،
أعادها إلى المائدة، واندھش الحاضرون. فقال ناييليون: لا تنسوا
أنني أنا الأمبراطور. . أليس من حقي أن أخرج على قانون وضعته
أنا ولو مرة واحدة!

ويبدو أن الفرنسيين لم يستريحوا إلى هذا التفسير. فالأمبراطور
يجب أن يكون أول من ينحني للقانون، ولو كان هو صاحب هذا
القانون. أما هذا القانون فهو أن يمسخ السكين باليد اليمنى
والشوكة باليد اليسرى وإذا سقطت الملعقة أن يتركها في مكانها حتى
يتشرف بتقديمها أحد من النبلاء أو الوزراء. ولم ينس الفرنسيون أن
نايليون هو أول من رتب وضع السكينة إلى يمين الطبق والشوكة إلى
يساره والملعقة فوقه والقوطة تحته!

وناييليون أيضاً هو أول من طالب بأناء صغير به ماء ساخن

ليغسل به أصابعه - فقد حدث أن كان مرهقاً غير قادر على أن ينهض لغسل يديه !

ومع الأمبراطور نابليون ظهرت موضة «الأمير» أي الأمبراطورية في الأزياء وفي الحفلات وفي الطعام وفي الرقص .
وظهر طراز من الرجال فائق الأناقة - ذئاب بالغة النعومة !

* * *

ولكن لم يعرف العالم كله رجلاً مثل جورج بروميل (١٧٨٨ - ١٨٤٠) . وقد ولد معه في نفس الوقت شاعر عظيم معجباني ولورد بيرون . ولورد بيرون هو الذي قال : إنني أفضل نابليون النظيف الأنيق على ولنجتون الذي انتصر عليه . .

وبروميل هذا كان شخصية فريدة . . أو هو طراز عجيب من البشر . فهو رجل اختار أن يكون أنيقاً بأي ثمن . وأن يكون الثمن من جيب المعجبين والمعجبات به .

وله فلسفة : عندما أبدو أنيقاً فأنا متعة للعين . وهذه العيون التي تجد المتعة يجب أن تدفع الثمن ، وأن تساعدني على أن أظل هكذا دائماً .

ويقول أيضاً : أنا ضد التضحية التي لا مقابل لها . كيف أضحي من أجل أحد ، لا يضحي هو أيضاً !

ويقول : لا أفهم أن يتعذب رجل من أجل امرأة . . ولماذا لا

تتعذب هي أيضاً.. إن الحب فعل مشترك، فلماذا أكون أنا
الخاسر دائماً!

يقول: مثلي الأعلى شيوخ القبائل في أواسط أفريقيا. إنهم
يتزوّجون بالملثات، بشرط أن تبقى كل واحدة في بيتها، ثم يلتقي
بها في الغابة - بعيداً عن بيته وبيتها!

وكان جورج بروميل قد وجد الممول الكبير للملابسه الفخمة
الكثيرة. وكان ذلك أحد النبلاء. وقد أنفق عليه كثيراً. فقد كان
شديد الإعجاب به.

يقول بروميل: إن كان هدفك أن تغزو قلب رجل فتحدث
دائماً عن عقله وذكائه وحكمته.. وإن كان الهدف امرأة فتحدث
عن ملابسها واملأ جيوبك بالحلوى.

وكان بروميل هو الذي يصمم أزياءه بنفسه.. وهو أول من
اخترع القمصان بلا ياقات.. واخترع القمصان ذات الأكمام
القصيرة.. وأول من صمم الجاكيتات المحزقة ذات الزراير
المتعددة.

بروميل كانوا يسمونه: بو.. أي الجميل. والقميص الذي
نرتديه في الصيف واسمه «بوشيرت» أي قميص بروميل!

وكان يصمم أزياء النساء اللاتي يعجب بهن.. ومؤرخو الأزياء
يرون أن قمصان النوم ذات «الأجور» والتي لها ورود على الذراعين

من تصميم بروميل . . ولا أحد يعرف من أين اخترع بروميل رسم كلمات جميلة أو أبيات من الشعر على حزام قميص النوم - لقد قرأنا في «ألف ليلة وليلة» عن مثل القمصان . . ففي «ألف ليلة» نجد شهرزاد تقول للملك شهريار: ولما اقترب من ذات الحسن والجمال وقد دار رأسه من فتنتها، وقام بأصابع مرتعشة وقلب يعلو ويهبط، وفك تكتها. أشارت إليه أن يقرأ ما هو مكتوب عليها. إلخ وبروميل هو أول من جعل الحذاء من قماش الفستان . . وهو أول من صمم «حزاماً» لروب الرجال . . وهو أول من ربط حزام الروب بحزام قميص نوم المرأة، ليرقصا عاريين!

يقول بروميل: إن حبي الشديد للمرأة ليس سببه إعجابي بها، فأنا معجب بالطيور والزهور، ولكن ليس من الضروري أن أتزوج عصفورة وأعشق وردة! إن إعجابي بالمرأة هو إعجابي بشيء انتقل مني إليها. . أحب خضوعها، لأنني متسلط، أحبها أن تحبني . . أعشقها إذا هي عشقتني، أصلي عليها إذا ماتت من أجلي . . يا ليت كل النساء يمتن من أجلي . . أو يمتن لكي أستريح!

يقول: إنني مثل نابليون العظيم، عندي قوات احتياطية لكراهية المرأة!

وقد اختلف بروميل مع المعجب الوحيد به، ذلك الأمير الذي أصبح ولياً للعهد، فهرب إلى فرنسا هرب من الأمير ومن الدائنين ولم يفلح في أن يكون له أثر في باريس ولكنه استطاع أن يعرض

ملابسه بالمئات في مزاد علي . وقد اشترت النساء معظم المعروضات وبأسعار مرتفعة . وكان بروميل هو أول من وضع الحروف الأولى من اسمه واسم الفتاة التي يحبها أو تحبه على المنديل!

وله فلسفة جاءت في مذكراته التي نشرتها إيطاليا منذ خمسين عاماً وصادرها موسوليني وصادرها هتلر أيضاً . المذكرات عنوانها «حياتي ملاسي» ، يقول : لا يزال الريش الجميل يصنع الطيور الجميلة!

* * *

عندما ينام العقل يصحو الفستان!

هذا رجل عجوز ، ألا ترى ملابسه داكنة؟

مؤكد هذا رجل عجوز فهو يخلص لامرأة واحدة هي زوجته!

الأناقة تبدأ من ملابسك ، والنظافة من تحتها!

المرأة ترتدي أي شيء لكي يظهر منها أي شيء : إلا سنها!

الفستان ثلاثة أنواع : قصير وطويل وثالث اسمه : عيب لا

تنظر أكثر!

كلما قصر الفستان طالت النظرة إليه!

هذه المرأة مثل الفستان الطويل جداً : إنها لا يمكن أن تنحط

أكثر من ذلك!

قالت لي سيدة: إن ملابسك الفضفاضة تعجبني فأنا عندما أراك لا أعرف إن كنت لم تكمل ارتداء ملابسك أو شرعت في خلعها!

وأنا أحب الفستان الذي تبدو فيه المرأة كأنها هربت من حريق وأنها اختارت الفستان الخطأ - هذا الاضطراب وهذا الفرع واليأس يثيرني تماماً!

أنت لست في حاجة إلى أغلبية لكي تشعل ثورة، فقط أقلية قوية مصممة وقضية عادلة - وكانت قضيتي أن أكون أنيقاً إلى أقصى درجة!

إذا لم تستطع أن تقدم لها ثوباً من حرير، فاجعل كلامك كذلك!

وبروميل هذا هو طراز من الناس. تجدهم في كل مكان. ولو لم تكن بينهم صلة. أو هو مزاج نفسي وأسلوب اجتماعي. وفلسفة سياسية.

في مستهل حياتي الصحفية كان لي صديق هو «عدي جلال» المحرر بـ«الأهرام». إنه إنسان لطيف رقيق ودود، قد أحزننا على أنفسنا. . ففيه كل ما ليس فينا. . فهو شديد الأناقة. شديد الحفاوة بصحته، لا يأكل مثلنا ولا يشرب مثلنا ولا يضحك مثلنا. كل شيء محسوب. ولم نكن نعرف كيف يستطيع هكذا أن يختار ألوان

ملا بسه . ولا من أين يأتي بالفوط إذا جلسنا على رفارف السيارات أو
المناديل الورق لكي يمسك بها السندوتشات . ولا كيف يصفف
شعره واحدة واحدة . ولا أين تعلم - وهو الفلاح من دمنهور - كيف
ينحني للسيدات . ولا لماذا هو أسرع من يدعونا إلى الغذاء والعشاء
وأسرع من يدفع . ولا يحاسبنا . أو يطالبنا بأن نقسم الثمن . ولا
كيف يعرف هذا العدد الهائل من الفتيات . ولا كيف هو ضاحك
دائماً . .

وكان الشاعر الغنائي مأمون الشناوي يسخر منه قائلاً : إنه إذا
رأى القمر طالعاً في السماء ، إلتفت إليه قائلاً بمنتهى الرقة والنعومة :
يا قمر نورك زاهي مرسي والله !

أو يقول عنه أنه ذهب للحلاق مرة فاعتذر له بأنه جاءه طويل
الشعر ! وأنه طلب إلى الحلاق أن يقص له أظافره فجرحه . .
فاستأذنه في أن يتألم ، فقال له الحلاق : تفضل يا بيه ؟ فقال : آي !
ولم يخطر على بال أحد منا أن يقول عنه أنه «ميمي بيه» فهو في
تمام الرجولة والشهامة والكرم فقد كان ذنباً مدرباً تدريباً جيداً !

ومن قراءة قصة حياة بروميل وجدت فيه حوادث من هذا
النوع ، بل تكاد تكون هي هي .

ومن المؤكد أن بروميل المصري لم يقرأ عن بروميل
الإنجليزي . . ولا واحد منا قرأ عنه في تلك المرحلة المتقدمة من
حياتنا .

الرجل «العيّل» مشكلة العصر!

منذ أيام شاهدت فيلم «آخر الفراعنة» عن حياة وسقوط وموت الملك فاروق. وفي الفيلم رأيت الأستاذ علي أمين يحكي أن الملكة فريدة أخبرته بأن الملك فاروق جاءها باكياً حزيناً. ولما سأله عن السبب قال أن محبوبته طردته.

تقول الملكة فريدة أنها لم تتضايق فهي تعتبر الملك ابنها..
وأنها حريصة على أن يظل هكذا.

على أن يظل طفلاً وتظل هي الزوجة الأم . هو لا يكبر، وهي
لا تريده أن يكبر!

فالطفل نوعان: الطفل . . والرجل الذي لا يريد أن يكبر!
اليتيم نوعان: الذي مات أبواه . . والذي عاش أبواه ولا
وجود لهما!

والأم نوعان: الأم . . والزوجة التي تريد أن تظل أمّاً لزوجها!
والطاغية نوعان: الطاغية . . والحماة التي تريد أن تبقى أمّاً،
مهما كان عدد أحفادها!

وفي عصور المساواة بين الرجل والمرأة، اتخذ الرجال تحذيراً
يقول: فتش عن المرأة - لأنها وراء كل مصيبة تلحق بالرجل،
وكارثة تصيب المجتمع!

لماذا؟ لأنها خرجت من البيت إلى العمل، ووقفت إلى جوار
الرجل تطالبه بالمساواة في الحقوق، اعتماداً على ما قاله الرجل بأنه

يؤمن بالحرية للرجال والنساء والسود.

أي أن المرأة طالبت الرجل بأن يكون صادقاً فيما يقول. فليس من الحرية أن يكون حراً، وألا تكون.

وعندما ذهب الرجل إلى الحرب، قامت المرأة بما كان يقوم به الرجل في الحقل والمصنع والمكتب. . وكانت هي الأب والأم في البيت. ولم يعد الرجل قادراً على أن يتراجع عن هذا القرار.

وكأنما أراد الرجل أن يعاقب المرأة على ذلك، فأساء إلى سمعتها وراح يعمق لديها الشعور بالندم على أنها خرجت، وعندما خرجت تأمرت على سيدها الذي منحها الحرية. . وأن يحفر في أعماقها هذا العقوق له، لعلها تعود إلى البيت، كما كانت. . وهكذا تختفي المرأة، ويصبح الرجل وحده هو المسؤول عن كوارث الدنيا - ومع ذلك منذ أصرَّ الرجل على أن المرأة أم لهذه الكوارث بل أن أمومة المرأة لا حدَّ لها، فلو جلس عزرائيل على حجرها لفتحت صدرها وأرضعته!

ولكن كيف تكون المرأة عبداً ذليلاً للرجل مغلولة اليدين والشفيتين والعينين ثم تقوم على تربية أطفال يؤمنون بالحرية وينادون بها، ويستشهدون دفاعاً عنها؟

وفي مرحلة تالية لممارسة المرأة لحريتها، أصبح الشر رجلاً وامرأة. والخطيئة: شركة. واللعنة: مناصفة. والجناية على الأطفال متكاملة!

أي أن كل شيء قد بدأ في الأسرة، أو بسبب الأسرة. فإن
اعتدلت الأسرة، اعتدل الطفل. وإن انحرفت انحرف. وإن كانت
مريضة فلا بد أن يمرض، وإن كانت سوية فهو مستقيم.

ولأن تربية الطفل جزء من مسؤولية المرأة، فلتأخذ التحذير
شكلاً واحداً في العالم: فتش عن الأم!

فالمرأة لأنها خرجت تركت الطفل وحده أو مع والدتها أو
خادمتها. . . وعندما كبر انفردت به الخادمة والتليفزيون الذي يقوم
بدور الأب والأم والمدرّس ورجل الدين وبنت الجيران: يعلم ويربي
ويسلي ويفسد. . .

وتدحرجنا إلى عصر «العييد» - حكم العييد. . . أي عصر
الخادِمات. . . فالأم ليس لديها وقت لكي تكون أمّاً. . . وإذا خُيرت
الأم الآن بين أن تعمل وأن تكون أمّاً، اختارت أن تعمل. . . وبعد
ذلك تتزوج لكي تكون أمّاً. وإذا خُيرت بين أن تكون أمّاً بغير
زواج، وأن تكون زوجة بلا أولاد، اختارت الأمومة مع التحرر من
قيود الزوجية. . . ولأن أعباء الحياة المادية قاسية، فإن المرأة تختار
المعادلات الصعبة: الزواج الفاشل والأمومة الفاشلة والعمل
الفاشل أيضاً - أي تختار شيئاً من كل شيء. . . ولكن التعاسة مؤكدة
للجميع: للأب والأم والأولاد.

ولكن ذلك كله لا يهم ما دامت تعمل!

فكأن المرأة اختارت أن تكون أمّاً بعض الوقت وزوجة بعض الوقت وعاملة بعض الوقت وتعيّسة كل الوقت!

ومن النتائج الخطرة على الطفل في هذا العصر: أنه حرم من حنان الأم. ولذلك فهو يريد أن يتجدد فيه هذا الإحساس. فإذا تزوج فلانة يريد أن يستقل بحياته عن أبويه، عن أسرة تعيسة.. وهو يريد أن تكون زوجته أمّاً له.. يريد أن يعود إلى الطفولة. والزوجة بسرعة غريزية تصبح أمّاً له.. يريجه ذلك ويرضيها أيضاً. وهذه هي مشكلة مشاكل العصر الحديث.. قد تضيق المرأة بهذا الطراز من الرجال الذين لا يكبرون، ويضيق الرجال أيضاً بهذه الأمومة التي تحتم عليه أن يكون عاجزاً. ولكن لا مفر: الزوج طفل والزوجة أم. لقد اعتاد واعتادت. والإنسان أسير العادة. والرجل إذا تحرر فإنه بسرعة يرتد إلى عاداته القديمة. فكأنه تحرر ليكون عبداً من جديد..

ومن الغريب أن الرجل الذي هو «عَيْل» - أي يعول على أمه كثيراً - عندما يتزوج فإنه يكون حريصاً على كل عادات وتقاليده الأسرة التي تمرد عليها!

أرجو أن تلاحظ أننا دخلنا معاً في مصيدة شديدة التعقيد في حياتنا الحديثة: فكل الذين نواجههم: عِيَال.. الرجل عَيْل والمرأة عَيْلة.

وهم جميعاً يعتمدون على بعضهم البعض ، وفي نفس الوقت يتشككون كثيراً في قدرتهم على القيام بهذا العبء الصعب . الرجل يبحث عن الأم ، والزوجة تبحث عن أم . .

وفي السنوات الأخيرة ظهرت مئات الكتب - عندي منها عشرات - تفسّر لنا ظاهرة : الرجل الذي أوقف نموه والمرأة التي تعاظمت شخصيتها ، رغم إحساسها بالهوان وأنها لم تتهياً نفسياً واجتماعياً للقيام بهذا الدور الكبير . .

و«الرجل العليل» هو الظاهرة الخطيرة التي تحتاج الدول الصناعية التي فتحت الأبواب والنوافذ فقفزت منها المرأة إلى الشارع ، ولم تعد . ولن تعود .

وهذا «الرجل العليل» ليس لديه شعور بالأمان . فهو قلق . وهو ينتظر ما تقدمه الزوجة الأم أو الصديقة الأم أو الخادمة الأم - فهي التي تقرر وهي التي تختار . ولذلك فليس لديه شعور بالمسؤولية . فقد ألقى عند قدميها كل شيء . وهي وحدها التي تتعب له وتتعب من أجله ، أو تجد لذة في التسلط عليه . . وهو يتفرج . هي اعتادت أن تقرر ، وهو اعتاد ألا يفكر في ذلك . هي تدفعه يميناً وشمالاً ، وهو مستسلم . .

والتاريخ يحتفظ لنا بذلك الحوار النموذجي بين الطاغية نيرون وبين زوجته . يقول لها : قولي بسرعة ماذا تريدين وأنا أنفذ لك كل

رغباتك . لماذا لا تأمريني أن أقتلك . إنني على أتم الاستعداد لذلك . . أنت التي تختارين ملابسني وعشيقاتي لماذا لا تأمريني أن أذبحك وأن أحرقك فوراً!

هو الطاغية المستبد الجبار لا يملك أن يتخذ قراراً . . إنه ينتظر من ضحاياه أن يأمره بماذا يفعل بهم - إلى هذه الدرجة يعتمد على زوجته التي هي أصغر منه وأضعف . ولكنه لا يريد إلا أن يكون رجلاً عيلاً!

والرجل العيّل مشغول بنفسه . . فقد اعتاد على أن يجد كل شيء من أجله . كل شيء يدور حوله . فهو مركز البيت . مركز الكون . وهو لا يمد يده للآخرين . . إنه ينتظرهم يمدون له الأيدي . إنه لا يبحث عن الغير، إنه يتوقع الغير أن يجيء إليه . وهو هكذا منطو على نفسه، فقد أدخل نفسه في نفسه . ووضع يديه في جيوبه، وساقاً على ساق، وأحنى رأسه على صدره . . لقد تكور وتدور . وامتلاً بنفسه، وانتظر . . أن تجيء المرأة إليه وأن يجيء الرجل . . وكل الدنيا . فإذا لم يحدث كل ذلك، أصابه الشعور بالخيبة واليأس . .

فهو مدلل . . أناني . نرجسي . متعصب . لأنه شخصياً هو المهم . الأهم . وأفكاره هي الصحيحة . ودنياه هي الدنيا .

وهو في السياسة «وطني متعصب» - لا مانع من أن يكون وطنياً . ولكنه وطني متعصب . أي أنه وطني ضيق الأفق . فهو يؤمن

بأن بلاده هي البلاد. أجل ما في الدنيا وأكملها. وهو لذلك لا يحب البلاد الأخرى. ولا يحب الأجانب. ويرى أن سلامة بلاده، مثل سلامته هو، أن تنطوي على نفسها. وأن تنعزل عن غيرها.

وهو يؤمن بأن العالم كله يتربص به، لأنه يريد أن يقتلعه عن عرشه - العرش الذي هو صدر الأم وصدر الزوجة الأم وصدر الوطن الذي هو أم الجميع!

وعلماء النفس لا يتعبون من تفسير قسوة هتلر وموسوليني وستالين ونيرون وكاليجولا بأنهم أطفال لم يكبروا. فهم يريدون الطاعة التامة من كل الناس، فإذا لم يجدوا ذلك ثاروا وقتلوا وحاربوا. فلم تكن المرأة هي مشكلة حياتهم، وإنما المرأة الأم. . . الزوجة الأم. . . أو العشيقة الأم - أي أن الذين تزوجوا فقامت الزوجة بدور الأم، يبحثون عن الزوجة التي تقوم بدور العشيقة. وكثير من هؤلاء الطغاة قتلوا عشيقاتهم. لأنهم يرون أن العلاقة بين الرجل والمرأة طاهرة نظيفة. فالمثل الأعلى لها: هي أن تكون أمًا - فهم - إذاً - حائرون بين الأم التي لا يجدونها، والعشيقة التي لا يريدونها.

أي أنه إذا وجد الأم لم يجد الزوجة وإذا وجد الزوجة لم يجد العشيقة وإذا وجد العشيقة لم يجد الأم فانتقم من كل الناس الذين ينعمون بالأمومة والزوجة والعشيقة؟!

وفي التاريخ أطفال عندما لم يجدوا الأم هربوا إلى أمهات من

الحيوانات . . فأطفال صغار أَرْضَعْتَهُم الذئاب . حدث ذلك في أسبانيا والأردن والهند وتونس . فوجيء الناس بأطفال بين قطعان الذئاب . والأطفال يمشون على أربع ولا يتكلمون . وقد اكتسبوا بعض صفات الذئاب كالخوف من الإنسان وأكل اللحوم النيئة والعواء . . ولما حاول الناس استئناس هذه الأطفال ماتت !

وبعض الفنانين الكبار يرون في الحياة بين الوحوش أو كالوحوش ، مثلاً عالياً للحرية . . أي الانطلاق والتمرد على قيود الأسرة الصغيرة أي العائلة والأسرة الكبيرة أي المجتمع والمجتمع الكبير أي العالم . فهم يفضلون أن تكون لهم عقول آدمية وأجسام وحشية . وإن هذا السلوك هو خلاصة العبقرية الإغريقية . فالإغريق جعلوا آلهتهم يسكنون قمم الجبال . ولكن إذا أرادوا أن ينعموا بالحياة ولذاتها ، تحولوا إلى بشر . . أو إلى حيوانات ونباتات . . ولذلك كان آلهة الإغريق يحقدون على الإنسان . . فالإنسان قصير العمر ، وهم خالدون . . والإنسان يخاف ويتعذّب ويقلق ويستمتع . . ويحب ويكره - وهم محرومون من كل ذلك . فالآلهة الإغريق يحققون هذه المعادلة يومياً : عقول الآلهة وأجسام البشر . . أو عقول البشر وأجسام الحيوانات - وهذا أقصى ما يتمناه الفنان . .

وفي العصر الحديث تقدمت صناعة اللعب . . وهذه اللعب حلّت مشكلة عائلية . والحقيقة أنها أجلّت الحل إلى ما بعد . بل

أجلت الحل إلى الأبد. وبقي الأمل في الحل عميقاً في نفس كل طفل. فالأب يشتري اللعب لأطفاله، أي يشتري للطفل ما يجعله ينشغل عنه. فكأن الأب يشتري سكوت الطفل. لأن الطفل لديه سؤال واحد: أين أنت؟

فأبوه ليس موجوداً ولا أمه. وهذه الهدايا والفلوس التي يعطيها الأبوان للطفل، هي تعويض عن غيابهما. والطفل ينشغل باللعب عن أبويه.

ولكن شيئاً خطيراً يحدث. وهو أن الطفل يرى أن اللعب والفلوس حق مكتسب. حق مفروغ منه. . تماماً كالأكل والشرب والملابس. وهذا الشعور بالأمان. وعلى ذلك فلا معنى لأن يبحث الطفل عندما يكبر عن عمل أو مكان آخر يحقق فيه حرته، ويشتري فيه طعامه، ويكون له الأمان الخاص به وبمن يجب. . وهكذا يجرد الأب ولده الصغير من البحث بنفسه عن مستقبل حياته. فكأن الأب والأم معاً، بدلاً من أن يربيا الطفل ليكون رجلاً، يفرضان عليه طفولة طويلة ليظل في البيت يتلقى الطعام والشراب والفلوس. . فهو رجل يلهو والأبوان يريان الطفل لعبة يلهوان بها - حين يعودان إلى البيت!

ولكن هذا الإبن يضيق بهذه الحياة، ولذلك يبحث عن ملذات جديدة خارج الأسرة. ويجد فيها حرته التي تنمو وشخصيته التي تريد أن تستقل. وهذه الملذات النفسية والاجتماعية سوف تكون

خارج البيت، بل خروج عن البيت . . وكل من في البيت .

هنا فقط أصبح الإبن هدفاً لعائلات أكبر . هذه العائلات هي الجماعات الشابة : الساخطون في بريطانيا والصاخبون في أمريكا والخنافس والأحجار المتحركة، والمافيا والحب في الكهوف والدخان الأزرق . . - ومئات غيرها من الجماعات التي تجذب الشبان من كل الدنيا ليستأنفوا الحياة التي حرموا منها .

والشباب في عصرنا لديهم هذا الشعور: السخط والهرب من الأسرة والإدارة والقيادة . . إنه يريد أن «يتتمي» إلى هيئة . . إلى جماعة . . إلى شلة . . ولكن هذه الجماعات لها شروط . أول هذه الشروط أن ينسى العضو كل ما كان يميزه عن الآخرين : الأسرة والطبقة والزي والجنس . . أي مطلوب منه أن يكون واحداً مثل الآخرين .

شيء عجيب حقاً: فهؤلاء الشبان أو الأطفال الكبار الذين يعانون من الضياع في الأسرة الصغيرة، يختارون الضياع في داخل هذه الأسرة . . ويرون أن الضياع العائلي مفروض عليهم، ولكن الضياع الجماعي باختيارهم . . أي أن هناك فارقاً بين أن تعطيني حقنة بنج فأدوخ، وبين أن آخذها بنفسى . . وإذا كانت عائلته تفرض عليه النظافة والنظام والانضباط، فإنه يقبل في داخل هذه الجماعة أن يستسلم للقذارة والبهذلة والتراخي . وأن يلتزم بذلك !

وكذلك الفتيات . . مطلوب منها إذا دخلت هذه الجماعات أن

تنسى أنها أنثى، ولذلك يجب أن تكون غليظة صلبة.. كما الولد في ملابسها وتعاملها وأن تختار هي الولد، وأن تغتصبه. أي على الرغم من هذا المظهر الخشن، فإنها لا تنسى أنها أنثى. وإن كانت قد استعارت أسلوب الرجل!

وفي الدول الصناعية الكبرى: أمريكا وبريطانيا واليابان وألمانيا وفرنسا ألوف الجماعات من كل لون سياسي وديني وجنسي.

ولأن هذه المجتمعات الصناعية الكبرى تقدّس الحرية الفردية، فهي لا تعترض على الشذوذ لأنه مظهر من مظاهر الحرية الفردية. ولذلك تؤيد الشذوذ الجنسي. والشذوذ الأخلاقي. وحتى إذا كان المحترفون أقلية. فإن الأقلية وحمايتها أكبر دليل على أن الحرية لا تتجزأ.

فهذه الجماعات الخارجة عن الدين، لها نفس تقاليد الجماعات الدينية.. فلكي ينضم أحد إلى أحد الأديرة، فلا بد أن يغير ملابسه وأن يغير اسمه وأن يخلق شعره وأن يمشي حافياً.. أي يقطع صلته بالدنيا، ليدخل في عالم يتساوى فيه كل الناس.. ومن بين الأسماء التي يختارها الرهبان: الغلبان.. المسكين.. العريان.. الأعرج.. المشلول.. الأقرع..

وإذا كان هذا دليلاً على التجرد والزهد والتواضع، فهو دليل جديد على أنه أصبح شخصاً آخر، لا ميزة له.. إنه مثل كل الرهبان..

وكذلك الذي ينضم إلى الجيش: يدخل إطارات حديدية من الانضباط والربط والاستعداد للموت. وحتى يكون موته مميزاً فهم في الجيوش يقولون لا «الموت» وإنما: الشهادة والاستشهاد... وفي الجيش ينادونه: يا دفعة... يا عسكري... يا نفر... يا كتية... يا مواطن!

تماماً كما يفعل عسكري المرور الذي يجد أمامه سيارات من كل نوع... كتل من الحديد تتحرك فينادي عليها: أنت يا فيت... يا مرسيدس... يا نقل... يا دقهلية... يا كارو... فهذه السيارات قد تساوت عند عسكري المرور: ماركات وألوان وأشكال فقط - ولا يهمه من يكون راكبها أو صاحبها!

وفي السجون يدخلون في سلاسل وفي جدران مظلمة ولا يكون لهم أسماء: أرقام فقط!
وكذلك في المستشفيات...

أي أن الشبان - الرجال العيال - الذين لم تسعدهم الحياة العائلية لأنه لا أثر فيها للحرية والحنان يستسلمون إلى جماعات يفقدون فيها حريتهم أيضاً، ويفتقدون فيها الحنان. ويختارون نوعاً من اللجوء العاطفي والاجتماعي - أي أن هذه الجماعات هي «بدل فاقد»... فهم تركوا البيت الدائم واختاروا البيت «المؤقت»، لقد قلبوا الأوضاع. تمردوا. ثاروا. فالبيت الدائم جعلوه مؤقتاً عندما هربوا منه، والبيت المؤقت توهموه دائماً عندما هربوا إليه!

فما هذا الذي حدث؟ أرجو أن تتذكر أننا نتعمق أكثر وأكثر
هذا السلوك المعقد لشباب يمارس الحرية الفعلية والحرية المفتعلة .

إن الحرية هي المسافات . فالإنسان الحر يستطيع أن ينطلق في
طيارة أو سيارة . . أي يمكنه أن يقترب ويبتعد عن الناس يوماً أو
شهراً . . إنه حر في أن يختار المسافة التي بينه وبين الناس . . والذي
لا حرية له فالمسافات من حوله قد تحددت . تجمدت بين أربعة
جدران وفي سلاسل وفي زمن محدود حديدي . والسجين لا يستطيع
أن يخرج من هدومه ، ولا أن يمحو الرقم على قفاه .

والعلاقات الإنسانية : مسافات نفسية واجتماعية : فالمسافة بيني
وبينك قصيرة إذا كنا أصدقاء . بعيدة إذا كنا أعداء . قريبة إذا كنا
أزواجاً . . قريبة جداً إذا كنا عشاقاً .

والقرب والقراية والقربى والزمالة والعداوة - كلها تدل على
طول وعرض وعمق المسافات التي بيننا . والمسافات واضحة
الاتساع بين أبناء العمارة الواحدة والمدينة الواحدة والدولة الواحدة
والكوكب الواحد والمجرة الواحدة !

وفي هذه الجماعات تنعدم المسافات فالكل في زي واحد .
زي عقلي واجتماعي وديني وسياسي . ومن مظاهر انعدام المسافات
التعصب الشديد لهذه الجماعة وشكلها وحجمها ونظرياتها في
مواجهة المجتمع والسلطة .

أي الذوبان التام للفوارق بين الأعضاء وذلك بالإسراف في تعاطي المخدرات : المخدرات المادية والمخدرات الفكرية أيضاً .

شيء عجيب حقاً : أن يهرب الأبناء من دكتاتورية الأب والأم ويستسلمون لدكتاتورية أخرى : لرئيس الجماعة أو النبي المزيف . . أو الإله . . - نعم لقد ظهر في قلب أمريكا رجال زعموا أنهم أنبياء . فسار وراءهم الألفوف ، وزعموا أنهم آلهة فسار وراءهم الملايين . . وواحد من هؤلاء قد استدرج أتباعه إلى الموت الجماعي - فماتوا معاً . . استشهدوا ؟ !

وفي معركة الحرية ، أو سوق الحرية ، أو معرض الحرية ، تحاول المرأة وهي حديثة العهد بالحرية ، أن تتضامن مع الرجل أو تبالغ في هذا التضامن وفساتين المرأة هي أوضح أساليبها في التعبير . فارتدت المرأة ملابس الرجال وقصّت شعرها . ثم عادت فثارت احتجاجاً على العصمة وأوامر الوالدين ورجال الدين . . ثم كشفت صدره إعلاناً منها أنها لا تعتر بهذا الصدر الذي يميّزها عن الرجل . . وكفراً بأنوثتها وسخطاً على الرجل الذي لا يرى فيها إلا : الأنثى . إلا جسداً مثيراً . .

ثم ظهرت ملكات الإثارة في حالة غضب . . ودعوة إلى الثور على الرجل . فصوفيا لورين : بعد أن تقلبت في كل أدوار الجنس اتجهت إلى دعوة المرأة أن تربي عضلاتها . .

وكذلك فعلت أجمل امرأة في العالم : راكيل ولش . .

وبريجيت باردو طفلة فرنسا التي لا تكبر . .

وفي المكتبات والأندية الرياضية ونوادي الفيديو كتب وأفلام
عن «المرأة العضلية» - أو «المرأة المعضلة» لجين فوندا، الممثلة
الأمريكية الشهيرة.

أي أنه ما دامت المرأة أصبحت مثل الرجل في أشياء كثيرة،
فلماذا لا تكون لها عضلات . إنها مسألة تدريب وتربية
واستمرار . .

فكما أن الإنسان لا يولد رجلاً، وإنما يصير رجلاً ذكراً ورجلاً
أنثى . . فكذلك المرأة تصير امرأة رجلاً، وامرأة أنثى . . وامرأة
ذات عضلات . . وامرأة إرهابية .

شيء غريب في قلب وأجسام هذه الجماعات المتطرفة - أي
التي تعيش على أطراف المجتمع والدين والسياسة . . والتي تصل في
اعتقادها إلى أقصى طرف اليمين أو اليسار . . أي لا تقف في
الوسط . . هذا الذي يحدث يذكّرنا بما كان في حريم السلطان
التركي . . ففي حريم السلطان، كان يوجد رجال . مهمة هؤلاء
الرجال هو خدمة حريم السلطان دون أن يمسه . . ولذلك
جعلوهم أغوات - أي خصياناً . . فلا هم رجال ولا هم نساء . .
ولكن الشيء المؤكد أنه لا ضرر من وجودهم . . فلا عدوان منهم
على ممتلكات السلطان . . فلا تحمل واحدة منهم بولد يصبح
سلطاناً، ولا يكون أبوه الحقيقي هو السلطان نفسه - فقد كان من

عادة السلطان إذا ولدت واحدة من الحريم ولداً ذكراً، جعله ولياً
لعهده.. وسلطاناً بعد ذلك! ٦

وفي هذه الجماعات يفقد الأعضاء كل إرادة وكل سلطة..
فقد نزعوا ريشه واستأصلوا أمله في أن تكون له أية حياة بعيدة عن
الجماعة..

ولذلك يصبحون العوبة في أيدي زعماء أذكىاء نصّابين..

حدث هذا في أمريكا بعد حرب فيتنام.. وفي بريطانيا بعد
العدوان الثلاثي على مصر.. واليابان بعد إلقاء القنابل الذرية
عليها وفي ألمانيا بعد زيادة البطالة.. هؤلاء الشبان لم يعودوا أفراداً
في عائلة وإنما هم كتل متراصة متساقطة منهارة دائخة في هذه
الجماعات المتطرفة.. لقد شطبوا أنفسهم من كشف المجتمع
الكبير.. سقطوا من الرصيد.. أصبحوا ديوناً معدومة.. مخلفات
حرب.. طرح البحر.. تجاوزوا عمرهم الافتراضي - مع أنهم في
غاية الشباب والحيوية!

وأخيراً هذه القصة عن الأمبراطور نيرون.. عندما حملت به
أمه رأت في نومها أن الرعد يخرج من فمها والبرق من بطنها..
وذهبت أمه إلى قارئة الكف فقالت لها: إبنك سوف يكون
أمبراطوراً وسوف يقتلك أيضاً. قالت الأم: المهم أن يكون
أمبراطوراً..

وذهب إليها الإمبراطور إلى قارئة الكف فقالت له: وأنت
حظك من السماء!

وبعد أن قتل أمه انتحرت فصعدت روحه .

أما العذاب الحقيقي للإمبراطور فهو أنه كان يطلب من أمه أن
تأمره . .

وعذاب الأم أنها كانت تطلب من ابنها أن يأمرها وأن يكون
مجرماً!

فلا هو يريد أن يكبر، ولا هي تريد أن تكبر - الرجل العيّل
والأم العيّلة والزوجة العيّلة . .

وقصة أخرى. لأم الملك لويس الرابع عشر عندما أحسّت أمه
بأنه يتحرك في أحشائها، أقامت الأفراح والليالي الملاح . وعندما ولد
وزعت النبيذ على الشعب مجاناً من إحدى النافورات . . وعينت له
عشرين خادماً . . وعندما بلغ الرابعة من عمره خلف أباه ملكاً .
لفرنسا . . فكانت أمه تركع أمامه، وتطلب من كل الناس أن يفعلوا
ذلك . . وكانت تعرض عليه المراسيم الملكية وتضعها وراء ظهرها
وتطلب إليه أن يختار. فالذي يختاره هو النافذ فوراً!

وهي التي قالت له على مسمع من كل رجال الحاشية: شيء
واحد أحسد عليه الفراعنة أن الأم كانت تتزوج ابنها - لتكون
زوجته وأمّه حتى الموت!

ومشكلة هذا العصر أن ملايين النساء مثلن أم هذا الملك . .
وملايين الرجال مثل السفاح نيرون ، اختلطت عند الجميع الحدود
التي تفصل بين الرجل والطفل وبين الزوجة والأم - مما ضاعف
تعاسة الجميع واضطراب هذا الزمان!

السندوتش : مقبرة الحضارة الإنسانية!

من مائة وخمسين عاماً رجع الشيخ رفاعة الطهطاوي من باريس، مبهوراً: بالمطاعم والمقاهي وعربات الرش وملابس النساء وطعم الخوخ.. والحرية.. وكان الشيخ الطهطاوي قد سافر مع أولاد الباشا يعلمهم مكارم الأخلاق ويحميهم من الانحلال والفساد. ولم يفلح.. وإنما هو الذي تعلّم وجاء يعلم مصر والعالم العربي.. واستحق من العلماء عظيم الاحترام، ومن السلطان الجاهل الطرد والنفي.

وكتب الشيخ الطهطاوي مشاهداته في فرنسا في كتابه الممتع «تخليص الإبريز في تلخيص باريز - أو - الديوان النفيس بايوان باريس...». والكتاب بما فيه من معلومات وانبهار بالعالم الجديد، متعة تاريخية مسلية، لولا الكثير من الشعر السخيف والاستطرادات المملة.

ويوم ذهب الشيخ الطهطاوي إلى باريس بلغ عدد المطاعم في ذلك ٥٥٤ مطعمًا. وأما المقاهي فهي ضعف هذا العدد. وأول مطعم عرفته باريس انشئ سنة ١٧٦٤. وكان يبيع الشوربة الساخنة فقط..

اقرأ ما كتبه الشيخ الطهطاوي عن المطعم (الرسطراطور):
«عادة الفرنساوية: الأكل في طباق. كالطباق العجمية أو الصينية
لا في آنية النحاس أبداً. ويضعون على السفرة دائماً قدام كل إنسان
شوكة وسكيناً وملعقة. . والشوكة والملعقة من الفضة. ويرون أن
النظافة أو «الشلينة» أن لا يمس الإنسان الشيء بيده، وكل إنسان له
طبق قدامه، بل وكل طعام له طبق، وقدام الإنسان قدح، فيصب
فيها ما يشربه من قزازه عظيمة موضوعة على السفرة ثم يشرب،
فلا يتعدى أحد على قدح الآخر، فأواني الشرب دائماً من البللور
والزجاج. وعلى السفرة عدة أوان صغيرة من الزجاج أحدها فيها
ملح والآخر فيه فلفل وفي الثالث خردل إلى آخره. وبالحملة فأداب
سفرتهم وترتيبها عظيم جداً. وابتداء المائدة عندهم الشوربة،
واختتامها الحلويات والفواكه. والغالب في الشراب عندهم النبيذ
على الأكل بدل الماء. وفي الغالب خصوصاً لأكابر الناس، يشرب
من النبيذ قدرأ لا يسكر به أبداً، فإن السكر عندهم من العيوب
والرذائل. . ثم أنهم مع شربهم من هذه الخمور لا يتغزلون بها كثيراً

في أشعارهم . . وليس لها أسماء كثيرة تدل على الخمرة كما عند العرب أصلاً .

ومع كثرة تفتنهم في الأطعمة والفطورات فطعامهم على الإطلاق عديم اللذة ولا حلاوة صادقة في فواكه هذه المدينة إلا في الخوخ . . .» .

ثم إقرأ للشيخ الطهطاوي يبدي دهشته وتعجبه من المقهى :

وكان أول ما وقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة . دخلناها فرأيناها عجيبة الشكل والترتيب . والقهوجية : امرأة جالسة على صفة عظيمة وقدأماها دواة وريش قائمة ، وفي قاعة بعيدة عن الناس محل لعمل القهوة . وبين محل جلوس الناس ومحل القهوة : صبيان القهوة . ومحل الجلوس للناس مرصوص بالكراسي المكسوة بالمشجرات ، ومن الطاولات المصنوعة من الخشب الكابلي الجيد ، وكل طاولة مفروشة بحجر من الرخام الأسود أو المنقوش . وفي هذه القهوة يباع سائر أنواع الشراب والفطورات ، فإذا طلب الإنسان شيئاً طلبه الصبيان من السيدة القهوجية وهي تأمر بإحضاره . وتكتبه في دفاترها وتقطع به ورقة صغيرة فيها الثمن وتبعثها مع الصبي للطالب الذي يريد الدفع . والعادة أن الإنسان إذا شرب القهوة أحضروا له معها السكر ليخلطه فيها ويذيبه ويشربه . ففعلنا ذلك كعادتهم . وفنجان القهوة عندهم كبير نحو أربعة فناجين من فناجين مصر . وبالجملية فهو قدح لا فنجان . وبهذه القهوة أوراق

الوقائع اليومية - يقصد الصحف - لأجل المطالعة فيها . . . وحين دخولي بهذه القهوة ظننت أنها كبيرة جداً مليئة بالناس . فإذا بدأ جماعة داخلها أو خارجها ظهرت صورهم في كل جوانب الزجاج وظهر تعددهم مشياً وقعوداً وقياماً فيظن أن هذه القهوة طريق . وما عرفت أنها قهوة مسدودة إلا بسبب أني رأيت عدة صورنا في المرأة . فعرفت أن هذا كله بسبب خاصية الزجاج . فعادة المرأة عندنا أن تثني صورة الإنسان ، وعادتها عند الإفرنج ، بسبب تعددها على الجدران أن تعدد الصورة الواحدة في سائر الجوانب والأركان .

ويصف ملابس الفرنسيين فيقول : ومن العوائد العظيمة عند الرجال انتشار لبس القمصان والألبسة والصدريات تحت ملابسهم . فالموسر يغير في الأسبوع عدة مرات . وبهذا يستعينون على قطع عرق الواغش . فلذلك لا أثر للعمل ونحوه إلا عند من اشتد به الفقر . . وملابس النساء ببلاد الفرنسيين لطيفة بها نوع من الخلاعة . . خصوصاً إذا تزينت المرأة بأعلى ما عندها . وليس لدى النساء حلى كثيرة : الحلق المذهب ونوع من الأساور الذهبية يلبسنه في أيديهن وخارج الأكمام . وعقد خفيف في أجياذهن . وأما الخلاخل فلا يعرفنها أبداً . ولبسنهن في العادة : الأقمشة الرقيقة من الحرير والشيت أو البفت الخفيف . ومن عوائدهن أن يحتزمن بحزام رفيع فوق أثوابهن حتى يظهر الخصر نحيفاً ويبرز الردف كثيفاً . ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزام قضيباً من صفيح من البطن إلى آخر الصدر ، حتى يكون قوامهن دائماً معتدلاً لا اعوجاج به . ومن

خصالهن التي لا يمكن للإنسان ألا يستحسنها منهن : عدم إرخائهن
الشعور كعادة نساء العرب . فإن نساء الفرنسيين يجمعن الشعور في
وسط رؤوسهن ويضعن فيه دائماً مشطاً ونحوه . ومن عوائدهن أيام
الحر كشف الأشياء الظاهرة من البدن : الرأس إلى ما فوق الشدي ،
حتى يمكن أن يظهر ظهرهن ، وفي ليالي الرقص يخلعن عن
أذرعهن ، ويمكن كشف شيء من الرجلين ، بل هن دائماً لابسات
للجرايات الساترة للساقين خصوصاً في الخروج إلى الطرق . وفي
الحقيقة سيقانهن غير عظيمة أصلاً . . ومن المتداول عندهم
استعمال الشعور المستعارة لنحو الأقرع ورديء الشعر . بل قد
يستعملونها في اللحي والشارب . وقد شاعت عندهم تلك العادة
من زمن لويز الرابع عشر ملك فرنسا وكان هذا الملك لا يخلعها إلا
عند النوم . ومن الغريب أنها تستعمل الآن في مصر بين نساء القاهرة . .
لقد وصف الشيخ الطهطاوي الحياة في باريس من بعيد
لبعيد . . شاهدها . . سجّلها . . حلّلها . ولكنه - طبعاً - لم يستطع
أن يعيش ولا أن يعايش أحداً . . دخل المقاهي والمطاعم . ولكنه لم
يعرف أن أسلوباً جديداً من الحياة قد دخل المجتمع ، وأن المقاهي
قد فرضت على الإنسان في العصر الحديث أسلوباً في الحياة خارج
البيت . وأخرجته من جلده ومن دينه أيضاً .

* * *

وعلى الرغم من أن أجمل مقاهي الدنيا هي مقاهي باريس ،
فإن المقهى نفسه اختراع أمريكي ، يتفق مع الحياة الأمريكية في

بداية القرن الماضي . فالمجتمع الأمريكي عظيم الحركة . مندفع إلى الغرب يبحث عن الذهب . ولكنه يزرع الأرض ويبني ، وهو ينقب عن المعادن ، وهو يرتفع بالمباني إلى السماء . فهو مجتمع متفجر في كل الاتجاهات . وقد ظهرت في سان فرانسيسكو: الكافيتريات . . وهي إدماج لكلمتين معاً: الكافيه : البن والتى - أي الشاي ، ومنذ أكثر من ثلاثين عاماً اخترعت ترجمة لهذه الكلمة وأسميتها «القهوشية أو القهوشيا» وقلت أن هذه الكلمة قد وضعها المجمع اللغوي . وإذا بالمرحوم محمود تيمور يكتب مقالاً طويلاً ينفي عن المجمع هذه التهمة . ثم ترجمت «بيت الشاي» الياباني بكلمة: مشهى - على وزن مقهى ، واستحسن المعجم اللغوي هذه الكلمة . ولم يأخذ بها - لأن الكلمات يجب أن تنبع منه وحده!

وظهرت الكافيتريات في أمريكا يقف فيها الناس يشربون ويأكلون ويخطفون السندوتش ثم يتابعون الاندفاع إلى الذهب .

وبسبب نقص الأيدي العاملة ، كان على الزبون أن يقف في الطابور وأن يختار لنفسه الطعام الذي يريد . ثم ظهرت الحاسبات الإلكترونية التي يدفع فيها الزبون ثمن الطعام . .

وظهرت محلات الأدوية وفيها إلى جانب الدواء: الأطعمة والمشروبات . فكانت محلات الأدوية والعقاقير نوعاً من السوبر ماركت أيضاً .

وعلى الرغم من أن السندوتش إنجليزي الصنع ، فإن أمريكا

أصبحت أكبر منتج ومستهلك للسندوتش على شكل لحوم أو فراخ . . أو علب من الورق فيها اللحم والبطاطس . . ثم ظهرت المطاعم الكبرى في أمريكا وفي أوروبا . وتحولت هذه المطاعم إلى نزهة أسبوعية لكل أسرة .

وتطورت هذه المطاعم الشعبية فأصبحت مطاعم فخمة أرستقراطية صغيرة الغرف . يشعر فيها الزبون أنه وحده بعيداً عن آذان وعيون الآخرين . .

وأدخلت الموسيقى . . ولكن الشعوب اللاتينية وشعوب البحر الأبيض جمعت في المطعم الواحد بين المقهى والكاباريه . ولذلك ظهرت الموسيقى والرقص والغناء . .

ولكن أكثر الدول الأوروبية - تفصل تماماً بين الأوبرا والمسرح وبين المطعم . فإذا كان لا بد من الطعام الخفيف ففي الاستراحة . . ولكن الشعوب اللاتينية وأبناء البحر الأبيض يأكلون كثيراً وثقيلاً ويتفرجون على الرقص والغناء . ولذلك اعتادت الموسيقى أن تكون عنيفة لإيقاظ الذين أتخمهم الطعام وأغرقهم الشراب . .

وبعد دخول القوات الأمريكية إلى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية انتشرت الكافيتيريات والبارات السريعة والأكل وقوفاً والشرب خطفاً . . وانعدم «الجو» الشخصي والعائلي . . فانفتحت المطاعم على البارات على المقاهي على الكباريات واختلط الناس

بعضهم ببعض . وضاعت معالم الخصوصية التي كانت موجودة في المطاعم الأوروبية .

وكان شيئاً غريباً أثناء الاحتلال الألماني لفرنسا، أن يتجه الأدباء إلى المقاهي . وأن تقوم المقاهي بحمايتهم والتستر عليهم . فقد كانوا يفكرون ويضعون خططاً لمقاومة الاحتلال الألماني . لذلك تحولت المقاهي إلى لجان سرية لمحاربة النازية .

وظهرت الحواجز الخشبية والزجاجية . ووراءها جلس الأدباء والشعراء والفنانون والثوار . وكثيراً ما هاجمها الألمان ليجدوا أناساً متقاربين ليس معهم ورق ولا كتب ولا قلم . . فقط يتناقشون وهم يدخنون - لقد استعدوا تماماً لهذا التفتيش المفاجيء !

وإذا كانت الثورة الفرنسية هي التي نشرت المطاعم - وذلك بأن جميع طهاة الملوك والأمراء والنبلاء قد فتحوا لأنفسهم مطاعم ومقاه، فإن الاحتلال الألماني لفرنسا قد حول المقاهي إلى غرف للعمليات الفكرية والسياسية والعسكرية . .

وفي أعمارهم القرن التاسع عشر كان أدباء فرنسا وشعراؤها يقضون في المقاهي . . في ركن مع زجاجة نبيذ وكثير من القهوة المرة . وكان الأديب الفرنسي بلزاك يطلب من الجرسون: المزيد من القهوة أرجوك . .

ويلتفت الجرسون فيجد عشرين كوباً من القهوة قد شربها
الأديب ويطلب مثلها مرة أخرى. . وفي يوم شرب مائة كوب. .

وفي يوم صرخ الأديب بلزأك قائلاً: أريد طبيباً. . أريده أن
يخترع لي طريقة لا أذهب بها لدورة المياه. . وأظل طول الوقت
أشرب وأكتب. . لا بد أن هناك طريقة سوف يعرفونها في القرن
العشرين!

وكان الشاعر الرومانسي يول جيرالدي ينهض مبكراً. ويقف
أمام المرأة طويلاً. ثم يخلق لحيته ويسوي شعره، ويلتفت يميناً
وشمالاً ثم يقرب منها ويقبل الوجه الجميل الذي يراه ويقول:
وداعاً يا أجمل وجه رأيته أمس واليوم وسوف أراه غداً.

وفي قصيدة له يقول: حبيبتى إن كنت تغارين من هذا الذي
أرى، لماذا لا تقفين ورائي. . أمامي. . لماذا لا تدخلين في زجاج
المرأة. . إن السعادة الحقيقية ألا تزاحميني في مرآتي. . أو فراشي. .
أو حياتي. . أن تكوني على شاطئ، وأنا على الشاطئ الآخر. .
وأن تكون الذكريات نهراً يتدفق بيننا. . صدقيني. . من أجل هذا
وحده نجح الحب، وفشل الزواج. . كل زواج. . حتى زواجنا. .

وقد علّق مقهى «دي فلور» هذه القصيدة. ونزع كل المرايا
الزجاجية من الجدران. . ولولا مقاهي الحي اللاتيني في باريس، ما
انتظمت الدراسة في السوربون - عبارة قالها الرئيس ديغول وهو
يتحدث عن الرذائل الصغيرة للشباب. .

أما الفيلسوف الوجودي سارتر فقد كتب أروع أعماله في مقهى «دي فلور» كان من عاداته أن يصعد الدرج . وأن ينحني يساراً . وأن يدخل «غرفة الفيلسوف» وفي الغرفة منضدة عليها زجاجة نبيذ . وأما المقاعد فمن الجلد . والغرفة ليست معزولة عن بقية المقهى . فإليها تنتهي كل الضوضاء . وهذه الضوضاء تحاول تشتيت عقل الفيلسوف فيبذل جهداً أكبر في التركيز . . يقول سارتر: فيلسوف عظيم ذلك الذي اخترع المقهى . ففيها كل ضوضاء الناس : أصواتهم وصراخهم . . اختلاط آرائهم . . ودخانهم والرغبة القوية عند الناس في أن يكونوا معاً . . والرغبة الأقوى في الانعزال عنهم . . ثم هذه الفواصل أنها من زجاج . . إنها تفصل ولا تفصل . .

بالضبط هذا ما يريده الناس . . أن يكونوا معاً ، ولكن بشرط ألا يكونوا كذلك . .

ويقول سارتر: ومن أين لي بهذا الدفء . . من أين لي بهذه الضوضاء . . إنني لا أجد شيئاً من ذلك في البيت . . ثم هذه العلاقات الإنسانية كلها «موقوتة» . . نلتقي ونتحدث ونتلامس وننفصل . . أما في «البيت» فكل العلاقات ارتباطات . . كل الناس مربوطون بخيوط وبعقدة . أو بدلاً من العقد هناك دبابيس . . أو هناك صمغ فالناس ملتصقون . . ملتزجون وهذه بالضبط هي العلاقات التي يجب أن ننفر منها . . لأنها قيود على الحرية الفردية

للإنسان . . فالبيت صورة متطورة من الكهف القديم - أما المقهى فهو صورة للحرية والانطلاق من أي قيد . .

ويقول: كل علاقة في المقهى تنتهي بالبيت فاشلة . لأن فيها تنازلاً عن حريتي . . وكل علاقة تبدأ بالبيت وتنتهي بالمقهى : هي علاقة بلغت كماها بالانطلاق . . بالانفلات . .

يقول سارتر: ومن الطبيعي أن يكون رواد المقاهي من الطلبة . . ورواد المطاعم من الآباء والأزواج . . فالمطعم صورة أجمل - أي أنه البيت وقد تحسنت ألوانه وأضواؤه وأثمانه . . أما المقهى فهو صورة من الرصيف ومن مدرجات الجامعة وملاعب الكرة . .

لقد شاهد الشيخ الطهطاوي مقاهي ومطاعم باريس ولكنه كان غائباً عن التعبيرات العميقة التي أصابت المجتمع الأوروبي في أعقاب الثورة الفرنسية . . والتي زادت بعد الحرب العالمية الثانية في أوروبا وفي أمريكا أيضاً .

* * *

وتجربة الأمريكان طويلة مع المطاعم والكافيتيريا . . ولكنهم بعد الحرب العالمية الثانية قضوا نهائياً على كل ما يغري الشاب بأن تكون له أسرة أو يكون له بيت . فلا أحد عنده وقت لكي يطبخ . فالأطعمة جاهزة . ولا أحد عنده وقت لكي يغسل الأطباق ، فهي من ورق والسكاكين من بلاستيك . . ولا من الضروري أن يتزوج لكي يكون له بيت . . ولا من الضروري للفتاة أن تكون «ست بيت» . فالبيت لا يساوي هذا العناء وأن تكون خادماً لأي زوج . .

ولا يهمها أن نلقبها بست البيت، وهي في الواقع ليست إلا خادمة في البيت . .

ولا يهم أيضاً أن يكون عندها أولاد . . فإذا اضطرت إلى ذلك، فالخادمة تتولى أمرهم . . وإذا لم تجد الخادمة تركت طفلها في أحد الملاجيء . . حتى المرأة الأمريكية عندما أنجبت كان ذلك بنصيحة من الأطباء . فلا بد من أن تحمل وتلد حتى لا تضطرب غددها الصماء وأعصابها . . فمن أجل صحتها يجب أن تكون أما ولكن من أجل جاهلها يجب ألا ترضع طفلها، ومن أجل حررتها يجب ألا تربط نفسها بهذا الطفل . .

ولذلك اختارت المرأة الأمريكية والأوروبية العلاقات الواسعة، أو القيود الفضفاضة . وبعد حرب فيتنام - أي بعد الهزيمة الأمريكية الأولى في تاريخها - خاب أمل الشباب في مستقبل أمريكا ومستقبل الحرية أيضاً . وهربوا إلى الإصطبلات والزرائب . . والخرابات - والخيام عند أطراف الغابات ثم إلى الغابات الإستوائية . . لماذا؟ لأن الشباب لا يريدون أن تكون لهم بيوت . . أو ما يشبه البيت . . ولا أن تكون لهم علاقات عائلية . .

* * *

يظهر في أمريكا أدب «الشبان الصاخبين» وقد اتخذوا مثلهم الأعلى من سائقي اللوريات . . فأمريكا مجتمع يتحرك على عجلات ففيها ثلاثة ملايين سائق لوري . ولهم أكبر نقابة تديرها عصابات المافيا التي تتحكم في الحياة الصناعية والاجتماعية الأمريكية . إنهم

مجموعة من البلطجية الأقوياء الأذكياء الأغنياء الذين يستخدمون
مئات الأطباء والمحامين والمهندسين والمخترعين وأعضاء الكونجرس
الأمريكي . . وهم الذين قتلوا كنيدي ووضعوا السم لمارلين
مونرو . . وهم الذين قتلوا ألوف الأغنياء في كل مكان . . إنهم القوة
التي تقهر القانون وتفتت العائلة وتدير بيوت الدعارة وكازينوهات
القمار وهي التي تطلق بين الحين والحين نبياً جديداً أو إلهاً يسحب
وراءه مئات الألوف من الشبان . . وتطلق الشعارات والنظريات
التي تسحق المجتمع! فسائق اللوري هو الجندي المجهول المحتقر،
ولكنه هو الذي يبني أمريكا ليلاً ونهاراً . .

وهو على سفر دائم، ينام سائقاً، ويصحو في أقسام البوليس . .
ليس له بيت ولا أهل ولا يهيمه أن يكون هناك بيت أو يكون هناك
أسرة . . إنه مشترك في مؤامرة غامضة ضد المجتمع الأمريكي . .
وضد الشركات التي يعمل فيها . . ويرى أن زعماء هذه النقابة من
البلطجية، ينتقمون له من الأغنياء والسياسة . . وهو في حالة انتقال
مستمر. فليس عنده وقت لكي يفكر . . ولكي يفكر يجب أن
يتوقف. ولكنه لا يستطيع. فهو ينام في السيارة أو تحتها، وهو
يخطف الأكل والشرب خطفاً، والعمل اليومي قد خطف عمره
وسلبه تفكيره وجرده من إرادته . . وهو ينظر إلى المدن في طريقه،
على أنها مجموعة من الكتل الحجرية تعوق حركته . . ولذلك يهرب
منها إلى الطرق الطويلة العريضة بين الولايات . . فاللوري وقياة
اللوري هي الصورة النموذجية للشباب الأمريكي!

* * *

ولا يزال التقرير الذي كتبه الباحثون الأمريكيان لإصلاح التربية والتعليم في أمريكا والذي عنوانه «أمة في خطر» هو أعظم وثيقة في القرن العشرين لإصلاح الخلل العلمي والتربوي والاجتماعي والأخلاقي في أمريكا، وفي أية دولة صناعية أخرى.

وقد جاء في هذا التقرير أن «حياة الكافتيريا» قد أفسدت الشبان تماماً. ففيها يمضون معظم الوقت ويرون أنها نموذج للحياة الإنسانية. يجلسون فيها ويبتغون من يخدمهم. فما الذي يجدون هناك؟. يجدون مياضد كثيرة متباعدة. . ومجموعات متناثرة من الشبان والشابات. . يأكلون السندوتش! وهذه الصورة هي أخطر ما تواجهه أمريكا كلها. فالكافتيريا ليست هي الصورة النموذجية للحياة الاجتماعية. . وإنما هي استراحة مؤقتة وبعدها يستأنف الإنسان العمل والذاكرة ولكن النظر إلى الكافتيريا على أنها الصورة المثالية والصورة الأفضل من قاعات البحث والمعامل، هذا هو الخطر الذي هدد أمريكا كلها. . الكافتيريا جعلت اللهو قاعدة، والبحث هو الاستثناء. . فالكافتيريا جعلت الاستراحة كل اليوم، والعمل بعض اليوم. .

والسندوتش لا يقل خطورة عن كل ذلك. فالشعب الأمريكي يأكل السندوتش في جميع الليل والنهار، ويفضله على أي طعام آخر مهما كان مغذياً أو لذيذاً. . وهو يأكل جالساً وواقفاً ونائماً وراكباً. حتى إذا جلس الشاب إلى مائدة الطعام، ولم يكن على عجل من

أي شيء . . فإنه يصنع من الطعام سندوتشاً - أي يصنع شيئاً من كل شيء، ثم يأكله وينهض . . دون أن يلتفت إلى متعة الجلوس إلى المائدة . . ودون أن ينظر إلى ترتيب الأطباق والشوك والورود . . والبيت الهادئ الدافئ . . ودون أن يعرف أن الصحة هي الهضم الجيد بعد المضغ البطيء . . ودون أن يعرف السندوتش الذي يضعه على المائدة إهانة لكل الموجودين معه . فهو يستعجلهم أن ينهضوا . . وهو في نفس الوقت لا يبالي بهم .

وهناك سندوتش آخر أخطر على الإنسان من سندوتش اللحم والبطاطس، إنه «سندوتش المعلومات» . . فقد أصبح السندوتش أسلوباً في الأكل وفي التعليم والتربية أيضاً . . فالشباب يخطف معلوماته من هذا الكتاب ومعلومات أخرى من هذا الكتاب ويترك لعقله أن يلقي كل ذلك في رغيف هزيل . . ويكون هذا السندوتش التافه هو ما لديه من معلومات . ولذلك كان الشاب الأمريكي جاهلاً . . فليس من عاداته أن يأكل على مهل، أن يقرأ على مهل، ولا من عاداته أن يترك العقل والمعدة تهضم على مهل . ولا هو قبل ذلك يجد لذة في المضغ أو في تقليب الصفحات واسترجاع سنطورها ثم إعادة النظر إليها . .

ومن المؤلف جداً في أمريكا وأوروبا واليابان أن تجد اثنين من الشبان قد ركبا دراجة يأكلان السندوتش وقد وضع كل منهما جهاز تسجيل في جيبه ليستمع إلى الموسيقى . . . أما هذا الذي يطل

برأسه من فوق ظهر فتاة فهو ابنها الصغير..

* * *

هذا - إذن - هو عصر السندوتش، عصر الكافتيريا.. عصر اللوري الذي ينطلق على عجالات خارج المدن وعلى هامش القانون..

يقول الشاعر الأمريكي إيلي روزنتال في قصيدة عنوانها: نحن كما ترانا معاً في ورقة واحدة منزوعة من الكتاب المقدس وسرقناه من بنك تشيس مانهاتن بعد أن قتلنا إحدى الغانيات وسحبنا جثتها لنضعها في الجليد أمام كنيسة القلب المقدس؟ أما بعض القصيدة فيقول:

كما ترانا.. كل يوم.. نتغطي بلحاف واحد، لا ننطق بكلمة. لقد اتفقنا على أن من يتكلم حتى أثناء النوم، عليه أن ينام بلا غطاء. وهكذا ترى أننا بلا أطفال.. فقد طبقنا هذا الشرط على أطفالنا.. كانوا يبكون فنلقي بهم في النهر.. وأنا أعطي لزوجتي حبوباً منومة حتى لا تسمعي وأنا ألعنّها وأتمنى أن أجد واحدة غيرها.. فهي تحبني أكثر مما يجب.. وأنا أعرف حب المرأة معناه: الزواج.. والزواج معناه القسيس.. والقسيس معناه الكنيسة.. والكنيسة معناها الجنة والنار.. والجنة والنار والموت تجعلني لا أحقد على الأغنياء والأقوياء.. ومعنى ذلك أن أتركهم يزدادون غنى وقوة.. وازداد تقلباً تحت غطاء يزداد انكماشاً يوماً

بعد يوم . . . إنني أحلم كل ليلة بقدوم الوحش الذي سمعت قصته
من أمي . . . فهو يجيء في الليل يلتهم النائمين وحدهم . . . ومن أجل
ذلك ألف نفسي وألف زوجتي وطفلي في غطاء واحد . . . تعال أيها
الوحش . . . وابتلع هذا السندوتش المسموم فتموت معاً . . . بلا معنى
ولا كلمة! .»

إذا كنت تحبها حقاً تزوِّج غيرها؟!

حتى إذا جلست وحدك وجاءت إليك أصوات من الشارع.
فأنت مع الناس وحتى إذا سددت الباب والشباك فعتد أصابعك
إذاعات العالم. وإذا أطبقت عينيك تراءت لك ألوف الصور.
وإذا سددت أذنيك، تخيلت ما لا نهاية له من الأحاديث والحوار
والأغاني وكلمات الحب وصرخات الغضب. فهناك أكثر من واحد
دائماً، مهما كنت وحدك. ومهما حاولت ذلك حتى «رابعة العدوية»
عندما اقتحموا خلوتها قالت لهم: أنا وحدي مع الله وحده!

في الديانة الهندية أن أقصى درجات الكمال والسعادة هي أن يصل الإنسان إلى حالة «النرفانا» - أي إنعدام الإحساس بكل شيء.. فلا ترى ولا تسمع ولا تتكلم ولا تتخيل.. ولا تشعر بحاجة إلى أحد، ولا نقص في شيء. ولذلك فهذه حالة اكتفاء الإنسان بنفسه، بل أنه لا يشعر حتى بنفسه. وهؤلاء الهنود الباحثون عن السعادة المطلقة، عراة حفاة في قمم الجبال.

ونحن لا نختار هذه العزلة المطلقة، حيث لا أمل ولا يأس. وإنما نختار خضم الناس والعذاب، والأمل في أن تجد أناساً أفضل، وعذاباً أقل.. وإذا هربنا من الناس فإلى الناس، وإذا فزعنا من الحب فإلى الحب أيضاً. والفرق بين الإنسان والحيوان والقديس هو أن الإنسان يحب ويلعن يوماً عرف فيه الحب، ويوماً لم يعرف فيه الحب. ولكن الحيوان لا يحب، والقديس يحارب الحب لنفسه وفي نفسه. بعض القديسين لم ينجحوا - كما سنرى.

قال شوقي:

فاتقوا الله في قلوب العذارى

فالعذارى قلوبهن هواء
جاذبتني ثوبي العصي وقالت :
أنتم الناس أيها الشعراء !

* * *

وسئل رجل من البادية : من أين ؟
فقال : من بلاد إذا أحب فيها الإنسان مات !

* * *

وقال شوقي في مسرحية «مجنون ليل» يقارن على لسان فتاة
بدوية، الحب عند البدويات والحب عند الحاضرات - أي بنات
المدن :

ونحن الرياحين ملء الفضاء
وهنَّ الرياحين في الآنية
ويقتلنا العشق والحاضرات
يقمن من العشق في عافية !

* * *

ولو قامت مظاهرة من المحبين والعشاق في هذه الدنيا، واختار
كل واحد أن يعلن خلاصة تجاربه في الحياة، ووضع كل واحد لافتة
على جبهته أو على قفاه، أو على صدره، أو على بطنه لكانت مثل
هذه العبارات المتلاطمة عن الحب والحياة والمرأة والصداقة والغيرة
والياس والأمل. ولو قيل للعشاق: هل تعودون إلى البداية مع
العذاب، لاختاروا الذي لعنوه..

* * *

يقول أبو نواس :

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى فوالله ما أدري الهوى كيف
يوصف !

* * *

يقول شوقي :

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى
لعل الذي لم يعرف الحب يعرف
فقلت لقد ذقت الهوى ثم ذقته .
فوالله ما أدري الهوى كيف يوصف .

* * *

يقول مصطفى صادق الرافعي :

يا من على البعد ينسانا ونذكره
لسوف تذكرنا يوماً وننساك
إن الظلام الذي يجلوك يا قمر
له صباح متى تدركه أخفاك .

* * *

الكراهية تعتقل الحياة، والحب يطلقها . . الكراهية تشل
الحياة، والحب يحييها . . الكراهية عمياء والحب أيضاً !

* * *

الحب «أكلان» في القلب لا نستطيع أن «نهرشه» !

* * *

«الحب : أن نتكلم ونتألم ونتعلم . أما الكراهية فهي هناك :

* * *

أطلقها وهي تتكلم !

اليأس : نهاية حبك لنفسك . وأنت تبلغ هذه الحالة عندما تدير

ظهرك لكل الناس ، ظناً منك أنك قادر وحدك على كل شيء بما في ذلك الحب!

الحب والإيمان : أعظم بركانين في حياة الإنسان . . والذي يصيب أحدهما يهز الآخر!

انحط مستوى الحب في العالم : لقد أصبح مثل كرة القدم والكوتشينة!

من يزرع الذوق يحصد الصداقة . . ومن يزرع الرقة يحصد الحب!

الحب أعظم طاقة في الدنيا ، وأقلها تكلفة!

الحب هو أن تبذل نفسك لتكتشف من تحب!

إنني عاشق بطبعي ، ولكني لم أجد من أحب!

لم يعد في هذه الدنيا أحد يموت من أجل الحب ، ولكن هناك ملايين يموتون لأنهم لم يجدوا الحب!

ثلاجة يوضع فيها الحب ليموت بهدوء : اللامبالاة!

يقول : لقد تغلبت على الحب ونسيت؟ ! فليس حباً ذلك الذي تتغلب عليه . فالحب غالب دائماً!

قالوا لي : يجب أن تحب من المحيط إلى الخليج . بصراحة لقد وجدت أنني لست كفوءاً لذلك!

الحب ينتصر على كل شيء... إلا الموت والحظ... إنه فقط
شجعنا على مواجهة أقسى ما في حياة الحب!

قال دوق وندسور: عندما أصبحت ملكاً وجدت أنه من
صعب أن أحمل أعباء الملك وهموم الضمير، دون مساعدة من
لرأة التي أحبتها!

الحب بين رجل وامرأة هو نوع من تنظيم النفس!
الغيرة: هي الحب في ملابس الحرب.
والياس: هو الحب في ملابس الحداد!

إذا لم تفلح في أن تجعل امرأة تحبك، انفخ في غرورها لتزداد
بأً لنفسها، وما فاض عنها سوف يكون من نصيبك!

الحب كالزئبق في يدك... إن فتحت له أصابعك استقر في بطن
نك، وإن أطبقت عليه كفك، هرب من بين أصابعك!
تطاردها تطردك، تطردها تطاردك!

ما دمت لا تستطيع أن تخفي عنها شيئاً، فأنت تحبها!
لا رجل اتهم امرأة بالثرثرة، إذا كانت تتحدث عن قوته!
يجب أن تؤكد للمرأة أن ليس لها نظير في الدنيا، سوف
مصدقك، وبعد ذلك عاملها كأية امرأة!

الجميلة: هي التي أراها والجمدابة: هي التي تراي!
إذا كنت على حق فناقشها كرجل وإذا كنت على خطأ فناقشها
كامرأة!

من لا يؤمن بشيء، يحتاج إلى امرأة تؤمن به!
أجمل سنوات المرأة ما بين ٣٥ و ٤٠ إلا أن المرأة لا تبلغ
الأربعين فهي جميلة إلى الأبد!
أن تكوني سعيدة مع رجل يجب أن تفهميه أكثر وتحبيه أقل..
وأن تكون سعيداً مع امرأة يجب أن تحبها أكثر وتفهمها أقل - ولن
نفهمها!

كانت أول قبلة مع أول سيجارة في يوم واحد. ومن ذلك
الحين، لم أعد أجد وقتاً للتدخين!
المرأة العاقلة تضع بعض السكر في كل ما تقول للرجل،
وبعض الملح في كل ما تسمعه منه!
المرأة الفاضلة تلهمك، والذكية تمتعك، والجميلة تجذبك،
والرقيقة تفوز بك!

كل النساء الجذابات هن صفة واحدة: وجوه معبرة!
لا يوجد رجل عدو المرأة. فالمرأة هي أعدى أعداء المرأة!
عقل الرجل هو الرجل. جسم المرأة هو المرأة!

رجل في البيت يساوي عشرة في النادي!
المرأة ليست لغزاً في جسمها ونفسها، ولكنه الرجل لم يحاول
أن يعرف!

ما نسميه بالحاسة السادسة عند المرأة ليس إلا «شفافية»
الرجل!

النساء مثل الحصون يتم الاستيلاء عليها بالقوة أو بالحصار
الطويل!

عسل امرأة: سم امرأة أخرى!
لست على يقين من أن هناك امرأة أفضل من رجل ولكن من
المؤكد أنها ليست أسوأ منه!

تحب امرأة أن تكون مثل القصص البوليسية: مثيرة غامضة لها
عقدة.. ولها حل يكتشفه الرجل دون تدخل منها!

أضعف لحظات الرجل عندما تقول له امرأة: كم أنت قوي!

المرأة تتحمل الألم في جسمها وفي نفسها. ولا تقاومه. ولذلك
فهي أقرب إلى الحياة. والرجل يقاومه، والمقاومة تضعفه، وتجعله
أقرب إلى الموت!

المرأة إذا لم تحب، فعندها أخلاق، وإذا أحبت لا تهمها

الأخلاق، والرجل إذا أحب فعنده أخلاق، وإذا لم يحب فلا شيء
يهم!

أجمل ما في الرجل القوي: شيء من الأنوثة.. وأجمل ما في
المرأة الجميلة: شيء من الرجولة!

المرأة حيوان مخيف: انظر إليها وهي ترمق فساتين امرأة
أخرى.. إنها حيوان شرس لا إنسانية عندها!

خلق الله الرجل ليكون وحيداً، وخلق له المرأة ليزداد وحدة!
الرجل يفضل المرأة التي تضحكه، ويحب المرأة التي تؤلمه،
ويتزوج المرأة التي تنافقه!

إذا عاشت امرأة محبوبة ومكروهة ومحسودة - فقد كانت حياتها
تساوي كل هذا العناء!

امرأة تعرفها عن طريق امرأة، فأنت لا تعرفها.. امرأة تعرفها
عن طريق رجل فأنت لا تعرفها.

يهمني الذي «في» وجهها، أكثر من الذي «على» وجهها!

الشاب: تستطيع المرأة أن تسعده وأن تشقيه.. والرجل:
تستطيع أن تسعده ولا تشقيه.. والشيخ: لا تستطيع أن تسعده أو
تشقيه!

أخذ الله حمامة ووردة وأفعى وعجنها في قليل من العسل

والشطة والطين فكانت امرأة!

إذا كنت تحبها حقاً، تزوج غيرها!

الحب كالأفلام: لا بد من تحميصها وطبعها في الظلام!

وراء كل رجل عظيم امرأة تقول: وراء كل عظيم امرأة!

ما أروع الزواج: فأنت تجلس في بيتك بين أولادك وتتفرج على المسلسلات التي تحبها زوجتك!

المرأة تحب الحساب: فهي تقسم سنّها على اثنين، وتضرب ثمن فساتينها في ثلاثة!

في المجتمع: تبدو المرأة من غير زوجها طيبة، ويبدو الرجل من غير زوجته سعيداً!

الأعزب ليست لقميصه زراير. الزوج لا قميص له!

مشاكل الرجل ثلاثة: المرأة والفلوس والإثنان معاً!

إذا أخطأ رجل قلنا إنه مغفل... وإذا أخطأت امرأة قلنا أنها مغفلات!

لم أعرف أحداً في أي عصر، أحب كل امرأة رآها!

الحب هو أن تصيح أنا أنا = نحن!

الحب هو أن تبالغ في الفوارق بين شخص واحد وكل الناس!

تختلف أساليب المرأة في مواجهة الرجل ، ولكن «الرسم»
عليه ، هو هو.

الهجوم خير وسيلة للدفاع . . قولي له أنك تحبينه . مفاجأة .
ولكن سوف يصدقك !

من النادر أن يفسح الرجل الطريق لفتاة تضع منظاراً طبياً !
يقول شاعر قديم :

إذا ذكرت ، يرتاح قلبي لذكرها
كما انتفض العصفور بالله القطر
عجيب لسعي الدهر بيني وبينها
فلما انقضى ما بيننا ، سكت الدهر !

فما هذا الذي يمسك الناس ، ويجعل حياتهم غالية ، ويجعلها
تهون عليهم . . ما هذا الذي يجعل امرأة أجهل النساء ، وجعل رجلاً
سيد الرجال . وكلاهما على باب الله : يتسولان الطعام والفراش .
ولكن الحب جعلهما ملوكاً . .

أنتم الناس أيها الشعراء كما يقول شوقي . فهم - إذن - هؤلاء
الكائنات الرقيقة المعبرة الحزينة . هم كبار المحبين وعظماء
العشاق . . إنهم لا يملكون المال ولا القوة . . ولكن عندهم في
نفوسهم كنوز الدنيا ، وفيهم قوة الجبال والبحار وانفتاح السماء ،

ووهج الشمس، وخصوبة الأرض.. ثم أنهم اللحظات الأبدية في
تاريخ الإنسان.

إنهم عاشوا وماتوا: إثنين اثنين.. يواجهان أقصى وأقصى ما في
الدنيا.. قد لا تكون لهما حياة، ولكن كانت لهما الأبدية!

«واسكبي روحك في روجي بكأس الأبدية»!

نحن لا نعرف متى بدأت قصة أول حب في التاريخ . . ولكن لا بد أن أحداً قد أحب . . بل أن ألوماً قد أحبوا وماتوا من أجل الحب ، ولكن لم تصلنا أخبارهم . . أي لم تنقل لنا كتب التاريخ ماذا جرى . . فالتاريخ لم يسجل حياة الناس إلا أخيراً . . فقد كان التاريخ مقدساً ، يروي مغامرات الآلهة وأنصاف الآلهة . . ثم يروي قصص الأنبياء والمرسلين . . ثم يصف الملوك وأبطال المعارك الحربية . . ولكن أخيراً جداً ، مع الفلسفات الشعبية بدأ يروي كفاح الشعوب من أجل المزيد من الحرية . . كما أننا لا نعرف أول من اخترع النار ، ولا أول من ابتدع المصباح . . ولكن لا بد أن أحداً بعد أحد قد وصل إلى فكرة المصباح الذي يضيء بالدهن وبالزيت ومن جهود الكثيرين انتقلت إلى المصباح الكهربائي .

. والتاريخ يسجل لنا أول قصة كراهية: عندما قتل قابيل أخاه
هابيل . . كان حاقداً عليه . ويقال تنافس الإثنان على حب أخت
لهما . . إذن هي قصة كراهية، تخفي وراءها قصة حب . . أو
ليست قصة حب ولا كراهية وإنما هو تنازع من أجل البقاء . . من
أجل السيطرة على مساحة من الأرض أو مساحة من جسم امرأة
أخرى أو من قلبها . . أو هو الجوع كافر بالأخوة وبكل شيء
آخراً

وفي الشعر العربي القديم يقال أن امرء القيس هو أول الشعراء
وهو أول العشاق أيضاً . ويستحيل أن يكون أول شاعر، كما
يستحيل أن يكون أول عاشق . . فلا بد أن ألوفاً قبله قد نظموا
وغنّوا . . وألوفاً غيره أحبوا ونظموا وبكوا . . ولكنه هو الذي
وصلت أنبأؤه فقط . وكان امرؤ القيس شاعراً ممتازاً وكان عاشقاً
أيضاً . وكان وسيماً يطارد النساء من مكان إلى مكان . . فأحب
فاطمة وأم الحارث عنيزه . .

ولا يمكن أن يكون هو أول من أحب بنت السلطان أو أخته أو

حتى زوجته . فالحب لا يعرف الفوارق الطبقيّة أو الاجتماعيّة .
ويقال أن السلطان قد غضب عليه . وبعث إليه بمن يقدم له ثوباً
من الحرير والذهب . وكان مسموماً ، فلبسه ومات امرؤ القيس .

ويقال أيضاً أن امرء القيس عندما علم بأن رجال إحدى
القبائل ذهبوا إلى السوق وتركوا النساء وراءهم ، ظل يترقب
ويتربّص حتى وجد النساء قد تعرّين تماماً عند بشر صغيرة ، فأسرع
وخطف ملابسهن وجلس عليها . وقال لهن : كل واحدة تحيي
وتأخذ ثوبها . وتقدمن جميعاً إلا واحدة !

هذه الواحدة هي التي أحبها . . أحب كبرياءها وعنادها . وهذه
القصة مكررة في كثير من الآداب العالميّة ، بل أنها موجودة في
أساطير الإغريق وعند الفراعنة وفي قصص بابل وأشور .

ويروى عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال عن امرئ
القيس : ما معناه أنه قائد الشعراء إلى جهنم !

وبعد هذا الشاعر الجاهلي ظهر شعراء كثيرون وعشاق أكثر .
وتناقل الناس شعرهم وأضافوا إليه . . وتندّروا بمغامراتهم واخترعوا
قصصاً من عندهم .

فلا أحد لا يعرف «مجنون ليلى» - أو الشاعر الذي جنّ في حب
ليلى وهو قيس بن الملوّح !

وليس بين مؤرّخي الأدب واحد على يقين من وجود هذا
المجنون . لا أحد . وإنما يقولون هناك في الصحراء ألف مجنون .

وكلهم يحبون ألف ليلي . . فقيس هذا لم يكن له وجود. وإنما هو رمز لأحلام اليقظة عند الشعراء والمحبين. وهو الرجل الخرافي الذي حملوه غرامياتهم. وأجروا على لسانه قصائدهم . . إنه «جحا» الرومانسي . . فكما أن جحا قد نسبوا إليه ألوف النكت في كل عصر، فكذلك مجنون ليلي . .

أما بقية العشاق من مثل : كثير وعزة وجميل وبثينة وعروة بن الورد وليلي وجريير وبثينة وابن المعتز وزرياب وليلي الأخيلية وعشاقها . . وعشرات غيرهم، ليسوا إلا صورة مكررة من العشق بين الشعراء والجميلات في زمانهم. وفي كل زمان بعد ذلك وفي كل لغة.

ولو فعل أحد ما فعله المؤرخ الكبير أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني (٣٠ جزءاً) وسجل لنا ما جرى قبل وبعد القرن الرابع الهجري، لكان عندنا ألوف الشعراء، وألوف من قصص العشق والغرام. ولكن أبا الفرج قد سجل ما جرى في القرن الرابع مما جعلنا نتوهم، أنه لم يكن في ذلك الوقت: إلا الحب والعشق والشعر والغناء. فالدنيا تبدأ بشاعر مجنون، لا بد أن يكون كذلك، وفتاة جميلة من أسرة رفيعة. أي أن مكائنها الاجتماعية هي العقبة الأولى في وجه الشاعر. الذي ينظم ويتوجع ويحكي . . وتتناقل القبائل شعره وفضيحة هذه الفتاة.

ولكن في زمن كتاب «الأغاني» كان الرجل يدخل البيت،

فيجد زوجته قد جلست إلى شاعر. ولم يكن الرجل يغضب لذلك .
يكفي أنه شاعر. فهي وهو. . يجبان الشعر. وهذا الحب الفني ، هو
جواز المرور إلى أية امرأة غاب زوجها. .

أما قصور الملوك والأمراء وشيوخ القبائل فكانت للغناء
والطرب حتى لا يعرف كيف كانت تدار شؤون الملك.

وكانت الليالي طويلة، ولكن الطرب والعشق والفن قادر على
أن يطويها في سعادة ونشوة. فلم يكن أحد في ذلك الوقت يشبع من
الفن، شعراً وطرباً وغناء. وكانت المطربات مثل نجوم السينما زينة
الليل. وكانت المطربة شاعرة أيضاً تحفظ الشعر وترويه وتغنيه. .
ففي الأدب العربي وتاريخ الغناء مثل هذه الأسماء: عزة وحبابه
وسلامه وعقيلة وخليدة وفرعة وبلبله ولذة العيش وسعده الزرقاء
وسبعة وذات الخال وأستاذ أساتذة الغناء والطرب إبراهيم
الموصلي. .

ولا بد أن الشعر هو الذي فرض نفسه على المجتمع. . أي أن
الشاعر هو سيد البداية. هو يلقي الاحترام العظيم لأنه شاعر،
ويجردونه من هذا الاحترام إذا كان عاشقاً. لأن معشوقته من قبيلة
نبيلة، والقبيلة ترى في ذلك تعريضاً لها واجتراء عليها، واقتحاماً
لحرمتها. . وكان ذلك يغري الشعراء أكثر بأن يجعلوا الحب قصة
الحياة والموت. فبطولة العشاق هي البطولة المعروفة في ذلك
الوقت. .

وفضائح الشاعر الرقيق عمر ابن أبي ربيعة ومطاردته للنساء في أي مكان من بيوتهن، وحول الكعبة الشريفة تملأ الكتب . .

وتمضي مئات السنين على الشعر العربي فلا تجد قصة حب واحدة. هل أجذبت القلوب؟ هل اختفت الجميلات. . فلا أحد يستطيع أن يحب، ولا واحدة يمكن أن يحبها؟ لا. . ولكن اختلفت الحياة. فقد كانت الحياة البدوية مفتوحة. وكان الشعراء هم سادة الناس. ولكن الحياة بعد ذلك تغيرت. ولم يعد الشاعر هو الوحيد الذي ينشغل به المجتمع. كما أن وسائل وأشكال اللقاء بين الرجال والنساء قد تعددت. فلم يعد الشاعر، إن كان، معذباً محصوراً مخنوقاً كما يقول مجنون ليلى يصف حالته الأليمة:

كأن فؤادي هي مخالب طائر
إذا ذكرت ليلى يشد به قبضا
كأن فجاج الأرض حلقة خاتم
علي، فما تزداد طولاً ولا عرضاً!

ولذلك فالحب في العصر الحديث مختلف تماماً. فبرغم كل هذه التليفونات والأندية والمواصلات والحفلات والزيارات، فإن الشاعر يتعذب لأسباب أخرى. . ولكن لم يعد أحد يعيش ويموت من أجل الحب. . ففي الدنيا مشاكل أخرى أعنف وأقسى، وفي أوروبا عرفوا شعراء صعاليك - أي شعراء يتهوَّسون بالبطولة والتغلب على الأغنياء والأقوياء ومساعدة المقهورين في الحب. . وفي أوروبا ظهر

شعراء الحب حتى المرض، والمرض يموت من أجلها الناس!

حتى الموت، فهناك شعراء «الطروبادور» الأسبان يتعذبون من
أجل المحبوبة. ولا يريدون منها شيئاً. فقط أن يقال: أحبها فلان
ونظم شعراً ومات من أجلها، دون أن يرى وجهها إلا مرة واحدة!

وليس الحب هو العشق..

فالعاشق يعرف ألف واحدة..

ولكن المحب يعرف واحدة، وتغنيه عن ألف ألف واحدة..

والعاشق يحب كل النساء. والمحب يرى كل النساء في

واحدة..

فهل مضى زمن الحب؟ وهل لم يبق إلا العاشقون؟

لقد تغيرت الحياة وأشكالها وألوانها ووسائل العيش فيها.
وسيطرت المادة على كل شيء، وكل علاقة، وكل الناس. فأصبح
الحب غريباً. وليس شيئاً شاذاً أن تسمع في أحد الأحلام: لا حب
ولا كلام فارغ.. قل ماذا تريد.. أو ماذا تريدون!

حتى الأغنيات الحديثة التي تتحدث عن الحب، اتخذ فيها
الحب شكلاً عنيفاً.. تهديداً وعيداً إنذاراً.. بل أن المطرب العاشق
لا يريد أن يضيع وقته واقفاً يبكي ويشتهي ولذلك فهو يرقص..
كأنه فاته أن يقوم بتمرينات الصباح، فراح يؤديها في الوقت الضائع

أمام الناس . . لقد أصبح الغناء العاطفي مثل الموسيقى المصاحبة
للألعاب الرياضية . . وكأن الحب عيب . والعاطفة نقص . .
والغناء مرض . .

— غير أننا في هذا الزمان أحوج إلى الحب من أي وقت .
فالناس أصبحوا مثل السيارات التي يركبونها ويلعنونها، مثل
التليفزيون الذي ينامون ويأكلون أمامه في سلبية مطلقة فيفعل بهم
ما يشاء . . فنحن الآن نركب آلات وندير آلات، ونقتل بالآلة،
ونعيش عليها . . فإذا رأيت من يركب سيارة أو طائرة من الصعب
أن تعرف أيهما يقود، الآخر . . كلاهما: آلة! .

ولكن الحب هو وحده الذي يحرك أعماق وأجمل وأنبل ما في
الإنسان . ففي داخل الإنسان قوى هائلة لا تحركها إلا كلمة السر:
الحب . .

إن قلب الإنسان مثل الحقائق السمسونية لها أرقام . . هذه
الأرقام يعرفها الحب . . فهو يفتحها وهو يغلقها على سر!

فما هو هذا الحب؟

هناك ألف تعريف لذلك . ولكنه ذلك الشعور العميق الذي
يملا كل حياتك ويشغلك ويجعلك تفضي إذا رأيت «المحبوب» أو
فكرت فيه . . إنه ذلك الشعور الذي يوقف عقلك على شخص
واحد، ويجمد نظراتك فلا تتجه إلا لواحد، وتضبط أذنك على

موجة واحدة . . وهو ذلك الشعور بالاحترام والأعجاب . . وهو ذلك الأمل في أن يكون لك هذا المحبوب وحدك . . فلا يراه ولا يسمعه ولا يقرب منه أحد سواك . . فإذا فعل أحد، اشتعلت النار فيك . . بلا دخان وبلا حدود .

ثم أن الذين يحبون لا يعرفون كل ذلك . ولا يعنيه . إنهم يحبون وهذا يكفي . إنهم غارقون ولا يطلبون النجاة من الله . . إنهم الذين يجدون الحياة في الموت في المحبوب . . إنهم الغرباء في كل زمان، إنهم السعداء رغم كل شيء . . إنهم الضعاف المتمردون على كل القيود . . إنهم صرخات الغضب في وجه التطور . . إنهم دموع الحنان في جحيم العنف . . إنهم آخر الذين يؤمنون بالمعجزة . أي بأن الحب صانع المعجزات . ولأن المعجزات قد اختفت في زماننا، فلم يعد الحب وحده قادراً على عودة سلطان المعجزة . .

لقد كبرت المعدة، فاحتلت مكان القلب أيضاً . .
لقد أصبح القلب يدق في العقل . . أو أن دقات القلب لم تعد تسمعها الأذن . . أو أنه العقل، كالساعة القديمة يدق . . وكما أن الساعات الكوارتز لا تدق، فكذلك القلب في العصر الحديث . ولذلك فالحب قديم، أو هو ابن الزمن القديم . . وإذا كان بيننا محبون، فهم يعيشون في غير زمانهم . . وهم يبنون كهوفاً بجوار ناطحات السحاب . . وهم يفضلون الزهرة على زجاجة الكولونيا . . وهم يفضلون النظر إلى الثمرة والأوراق والأشجار،

ويلمسونها بالأصابع وبالعين وبالحذ والشفاه، على زجاجة العصير،
وسلطة الفواكه والعلب المحفوظة . .

فهل كانت قصة دوق وندسور ومحبوبته الأمريكية، والتي من
أجلها نزل عن العرش، آخر قصص الحب في زماننا؟
ليست آخر القصص ولكنها أشهرها . وذلك لأن المحب ملك
ولأن التضحية عرش .

وكما أن في وجه الإلحاد نلوح بالإيمان، وفي طوفان الماء، نرفع
أغصان الزيتون، فسوف يتمسك الناس بإنسانيتهم، وسوف يقف
الناس وراء قلوبهم، يتحدون الموت والجوع والعطش والبرد،
يقصدون الأغنية، ويملأون الأرض والسماء بالمحوبات اللاتي لا
يملكن إلا حكمة الله : الجمال والصدق!

* * *

وسوف يغني الشعراء ونطرب لما يقولون . وإن لم تكن هناك
فائدة مادية، وعائد عملي لما يقولون الفن لا فائدة له . . ولكنهم
خالدون بأوهامهم الجميلة، وسماواتهم الخرافية . فما أجمل ما قال
شاعرنا الرومانسي المتصوف بعد ذلك : محمود حسن إسماعيل . .
ولا يهم أن تصدق كلمة واحدة مما يقول، ولا أن تبحث عن هذه
الفتاة التي يتغنى بها . فقد تكون قرداً، ولكنه يراها أجمل .
الجماليات . يقول:

أنا ظمآن فهاتي
خمر عينيك الشهية
انهليني سحرها السامي
وروي شفتيه
واسكبي روحك في روحي
بكأس الأبدية
قبل أن تغرب شمسي
بين أطباق المنية
خمرة من هالة النور
بعينيك روية
تمسح الآلام من دنيا
بالأمي ثرية
وتنسي ضنى عمري
وأيامي الشقية
أنا ظمآن فهاتي
خمر عينيك الشهية
قبل أن تغرب روحي
في سحابات المنية

فإلى مزيد من الآهات والتأوهات والأغنيات وأشكال وألوان
من العذاب في الأسبوع القادم.

الحديث الحلو واللحن الشجي

إذا تخيلت رجلاً طويلاً عريضاً عالي الرأس عريض الجبين
شامخ الأنف، قفز من مقعده تاركاً عشرات الكتب في الشريعة
والفقه والسيرة والفلسفة ومشى على أطراف أصابعه واتجه إلى
المطبخ، واصطدم بوابور الجاز ثم كتم أنفاسه، وألصق أذنه
بالباب.. ولما لم يجد أحداً، فتح الباب ليترد القطط التي تزاوجت
على صندوق الزبالة ثم ضرب الباب بعنف وراح يتمشى في البيت
الضيق، ثم لَوَّح في الهواء بيديه يلعن أحداً أو يعلن ضعفه..
وفجأة يتجه إلى المطبخ ويفتح الباب وذراعيه فقد جاءت
المحبوبة.. إنها فتاة سمراء واسعة العينين ممتلئة الشفتين..
ويحتضنها وهو لا يتوقف عن السؤال عنها وعن والدها وعن
أسرتها.. ولماذا تأخرت هكذا.. وأنه لم يستطع أن يقرأ ولا أن
يكتب.. ولا حتى استجاب لرنين التليفون.. وهي لا ترد لأنها لا
تستطيع أن تجيب على كل هذه التساؤلات.. هو يراها ينبوع
الشباب.. وهي تراه نصف إله.

وفي اليوم التالي تحيي هذه الفتاة وتصعد السلام وتلقي بورقة من تحت الباب . . تعتذر عن الدخول . . وبعد ذلك بيوم تعود تدق الباب الأمامي فلا يفتح . فتتجه إلى سلم الخدم وتدق باب المطبخ ثم تلقي بورقة من تحت الباب . . وتدق الباب وتبكي . ولكنه قد اعتصم بمكتبه واستند إلى عشرات الكتب واستبد به الغضب وعظم الاحتقار لها ولكل بنات جنسها . . ولنفسه إن كان هكذا يضعف أمام رغبات صبية صغيرة تهبط به من سماء الآلهة، إلى حظيرة الحيوانات الأدمية . .

إنه الأستاذ العظيم عباس العقاد، إنه عظيم ولكنه بشرا

ولو رجعنا إلى كل أدباء ومفكري وشعراء مصر في هذا القرن فإننا لا نجد واحداً منهم قد اعترف بأنه أحب . أو ذكر اسمها أو هي أشاعت ذلك . . إلا الأستاذ العقاد . فقد تكفل أصدقائه وتلاميذه بذلك . . فأنا عندما كتبت «صالون العقاد» لم أشأ أن أتعرض بوضوح لغراميات العقاد . وإنما حاولت أن ألفت وأدور، احتراماً للمفكر الإسلامي العظيم عباس العقاد . . وأنا أعرف أكثر اللاتي اعترضن طريق الأستاذ، أو ترامين عند قدميه . . ولم أشأ أن

أذكر بوضوح السيد مديحة يسري ، ولكنها هي التي أعلنت أخيراً
وصراحة أنها المقصودة من شعر العقّاد وأنها كانت تتردد عليه وأنه
هو الذي علّمها كيف تقرأه وطه حسين . . إلى آخر الذي قالته ،
ومن الطبيعي أن تضع نفسها في حياة العقّاد بالصورة التي ترتضيها
وترفع شأنها ، وقد بالغت كثيراً جداً . فالشعر الذي قاله العقّاد عنها
قليل ، والذي قاله في الهجوم عليها كثير وشنيع جداً .

وكان الأستاذ العقّاد عصبي المزاج ، يكفي أن أحداً يتخلف
عن مواعده ، ليثور عليه وكأنه ارتكب أعظم جريمة . . وفي غرفة نوم
العقّاد كانت لوحة بشعة رسمها الفنان الكبير صلاح طاهر وبها كل
مشاعر الأستاذ العقّاد للسيدة مديحة يسري . وهذه قصة أخرى .

ولم يكن ذلك هو «الحب» الذي شغل العقّاد وهزّ أعماقه ولكن
كان الحب الذي أثار أعصابه . . والأستاذ العقّاد أحب سيدة لبنانية
وجعلها بطلة روايته الوحيدة «سارة» وهي ليست رواية بالمعنى
التقليدي . أما مادتها فمن الممكن أن تكون رواية لكاتب آخر .
فالعقّاد أغرقها وأهلكها بالتحليلات النفسية . ولكن هذه هي
المحاولة الروائية الوحيدة . .

ومشكلة العقّاد في الحب هي مشكلة آلهة الإغريق . . فالآلهة
الإغريق ، كانوا يحقدون على البشر . إنهم يحبون ويتعذبون
ويستمتعون بالحياة والخوف والأرق . أما الآلهة فهم لا يفعلون فلا
يحبون ولا يكرهون ولا يثأرون . ولذلك إذا أرادوا أن يكون لهم ما

للشعر، فهم يحولون أنفسهم إلى بشر. ويحولون أنفسهم إلى
حيوانات أيضاً. . ليستمتعوا بعواطف الإنسان وغرائز الحيوان.
ومشكلة العقاد أنه لم يشأ أن يكون بشراً عادياً. ولا يجب. . وفي
نفس الوقت لا يستطيع أن يجعل المحبوبة نصف آلهة. . لا يستطيع
أن يرفعها إلى مستوى رأسه. . فكان ذلك هو عذابه الأكبر. . لا
هو قادر على أن ينحني، ولا هي قادرة على أن ترتفع. ولذلك فلم
يصادف العقاد واحدة، ترضيه عقلياً ووجدانياً. ومن هنا كانت
نظرته إلى المرأة. . فهو يراها حيواناً ضيق الأفق أنانياً. . إنها لهذه
الصفات هي سبب تعاسة العظماء. .

على الرغم من أن الشعراء والأدباء في زمن العقاد - أي من
خمسین عاماً - كانوا يعرفون ويحبون ويعشقون ما لا عدد له من
النساء، فإن أحداً لم يذكر ذلك صراحة.

بعض الشعراء نظم الكثير في زوجاتهم، حبهم الأول أو حبهم
الأخير. ولكن كانت لهم نساء أخريات. . فليس مألوفاً في أدبنا
الحديث، ولا في أخلاقياتنا، أن يتحدث أحد عن امرأة يحبها ففي
ذلك عيب عليه، وعار لها. . ولذلك سكت الرجال وسكت النساء
أيضاً!

حتى ظهرت في الحياة الأدبية في مصر فتاة جاءت من فلسطين:
أبوها لبناني ماروني وأمها فلسطينية. إنها الأنسة مي زيادة (٥٥
سنة). هذه الفتاة السمراء الجذابة هي التي أشعلت النار والغبار

والدخان في ليالي القاهرة. أبوها صحفي. وكانت تكتب بتسع لغات. أدبية مفكرة شاعرة ثائرة معذبة أقصى وأقصى درجات العذاب. فقد كانت إنساناً غريباً في القاهرة في أوائل هذا القرن. لها صالون أدبي. وفي الصالون يلتقي كل أدباء مصر: العقاد وطه حسين وإسماعيل صبري وولي الدين يكن ولطفي السيد ومنصور فهمي وسلامة موسى وخليل مطران ومصطفى عبد الرازق ومصطفى صادق الرافعي. وهؤلاء الكبار ليس بينهم حب ولا ود. بل إنهم لا يحبون أن يكونوا معاً في مكان واحد.

ولكن من أجل «مي» إلتقى كل الأضداد. ولا أعرف كيف كانت هي تلتقي بكل هؤلاء المفكرين. ولا كيف كانت توزع الاهتمام والاحترام والمودة بينهم بالعدل. ولا أعرف كيف كانت ترد على رسائلهم التي تكشف عن غضبهم، لأنها أبدت اهتماماً بواحد أكثر من الآخر. . وكانت مي تضحك: إنهم أطفال كبار!

أما رسائل العقاد لها ورسائلها إليه، وعندي الكثير منها، فهي نوع من «المشي على الحبل». . فالعقاد شديد الاحتراس فيما يكتب. لأنه يعلم أن رسائله سوف تكون في أيدي الآخرين. فهي، مثل كل امرأة أخرى، ولا تحفظ سراً. . ورسائل مي إلى الأستاذ العقاد فيها تحفظ شديد. . وأحياناً لا تستطيع أن تضبط عواطفها، وهي تنبهه إلى أنها تود أن تقول أكثر، وأن تكون أقرب. . ولكن. . وهو يعرف ما الذي تقصده. .

واحتفظ الأستاذ العقاد برسائلها إليه . . ثم أمر بحرقها . إما غضباً منها ، وإما احتراماً لها وكتماً لسرها . . وإن كانت بعض هذه الرسائل لا تدل على أنها «أحبت» العقاد . . ولا أن العقاد «أحبها» . . وإن كان الأستاذ العقاد قد اعترف بأنه أحبها . ولكن «مي» أصبحت غير قادرة على أن تستجيب لهذا الحب - فقد كانت تكبر الأستاذ العقاد بثلاث سنوات ، فقد ولدت في مدينة الناصرة سنة ١٨٨٦ .

وعندما أعيد قراءة رسائله التي بعث بها إليها أجد أن الأستاذ العقاد تمنى أن يكون بينهما حب . . ولكنه لا يعرف على التحديد من هو الأديب الذي تحبه أكثر ، أو من الذي تستريح إليه . . ولكنه يستبعد أن تكون قد أحبت مسيحياً مثلها ، فهي شديدة التدين . .

رجل واحد كانت الأنسة مي تضيق به ولا تحب أن تراه ولا أن تسمعه . إنه الأستاذ مصطفى صادق الرافعي . فهو ثقيل السمع ، وهو يجيء إليها من طنطا . ثم أنه شاع أنها تحبه ، وأنه هو حبها الوحيد . . وكتب كثيراً جداً عن هذه العلاقة . . كتب أجمل ما قرأنا في الأدب العربي الحديث . . كتب الذي أحس به والذي تخيله . ولكن الذي كتبه شيء جميل جداً : السحاب الأحمر وأوراق الورد . . ورسائل الأحزان . . ونظم شعراً في حبها . . أو من خيالاته في عالم الحب . وليس لهذا الحب من واقع إلا في كتب

الفنان مصطفى صادق الرافعي . وكانت مي لا تحب هذا التجريح والتعريض بها!

إن «مي زيادة» كشفت الحياة الاجتماعية والأدبية في مصر. فقد كانت أشجع بنات جنسها، خطيبة ناثرة من أجل حرية المرأة، الحرية التي لا تجدها هي، وحق المرأة في تقرير مصيرها، وهو ما لم تستطع هي أن تفعله.. ومن أجل أن تختار المرأة الرجل الذي يملأ قلبها وعقلها، ولم تستطع هي أن تختار أحداً..

والصالون الأدبي لم يكن معروفاً ولا مألوفاً في ذلك الوقت. وإنما هي نقلت هذا اللقاء الأسبوعي من أوروبا.. ولم يسجل لنا أحد كيف كان هذا الصالون وماذا يقال فيه.. ومن يقول.. وكيف هي تعلق على ذلك.. وكيف ينتهي الخلاف بين العقاد وطه حسين أو بين طه حسين ولطفي السيد أو بين منصور فهمي ومصطفى عبد الرازق وسلامة موسى؟ وكيف استطاعت «مي» أن تروّض هذه الوحوش الأدبية وأن تحتفظ بهذا «السيرك» العقلي عشرين عاماً..

وكان هؤلاء الأدباء لم يكتفوا بتعذيبها بل تأمروا أيضاً على قتلها فلم يكتب أحد عنها، ولا عن هذه الندوة الأدبية.. فكان علاقتهم بالأدبية مي زيادة، علاقة مشروطة. إن هي كانت لواحد منهم، كتب عنها، وأقام لها كوخاً في التاريخ إلى جوار قلعته الأدبية.. إذن هي «مؤامرة صمت» - لا أحد يكتب عنها، لأنها كانت لكل واحد فيهم. فكان عدم تفضيلها لواحد على واحد، إهانة عنيفة لكل

أديب ومفكر. فكل منهم يرى أنه الأديب وأنه المفكر. وأنه لا يقبل منافسة أحد. ولأنها لم تحب منهم، كان معنى ذلك أنها تراهم جميعاً سواء. يستحقون المنافسة. فليست لأحد منهم مزايا تجعله إلهاً، وتجعل الآخرين بشراً، أو تجعله بشراً والآخرين كلاباً! إذن لم يكن مألوفاً في أدبنا المعاصر أن يتحدث العاشق. . وإن تحدث فدون أن يذكر اسماً ولا رسماً ولا جسماً. . ولكن أنه أحب. .

ولم يعرف أحد إن كان صحيحاً أن الشاعر الغنائي أحمد رامي قد أحب أم كلثوم وأحبته. . ولا إن كان الشاعر كامل الشناوي قد أحب نجاة الصغيرة وحدها. . فقد أحب، أو تخيل، أنه أحب المطربتين فائزة أحمد ونور الهدى. ولكن كامل الشناوي هو الذي جعلنا لا نصدق محباً أو كارهاً. فكل مشاعره يغلفها بالنكت. فهو، كما يشنع بالآخرين، ففي مقدمة الآخرين: كامل الشناوي. فهو أكثر الناس تشنيعاً وتشهيراً بنفسه. وأكثر شعر الغضب الذي نظمه كامل الشناوي كان عن «نجاة الصغيرة» ولم يكن غضبه عليها، بقدر غضبه على الآخرين حولها، أو بينه وبينها في الطريق إليها. .

والشاعر عبد الرحمن صدقي نظم شعراً كثيراً وطويلاً في زوجته الأولى. . وكان هذا الشعر أقرب إلى هجاء زوجته الثانية الإيطالية، التي لا تقرأ ما كتب ولا يهتمها إن قال شعراً أو لم يقل.

ولم نعرف إلا أخيراً جداً من هو ذلك الرجل الذي كان قريباً جداً وبعيداً جداً. ومن ذلك المهاجر المهجور، من ذلك الذي يدور حول الأرض، ويدور حولها. . . ومن ذلك الذي إذا رأى الشمس قال: يامي. . . وإذا رأى القمر قال: يامي. . . وإذا مرض أحس أن كل مرض له شفاء إلا حبها. . .

كان يكبرها بثلاث سنوات، ومات قبلها بعشر سنوات. فقالت مي: عندما مات أبي وأمي فقد مات نصفني، وعندما مات هو انتهيت!

إنه المفكر اللبناني جبران خليل جبران.

وفي العام الماضي ظهر كتاب بالإنجليزية عنوانه «الشعلة الزرقاء - الرسالة الغرامية بين جبران خليل ومي زيادة». وفي الكتاب صور لرسائل باللغة العربية. . . وصور لكل ورقة يجدها ويكتب عليها خواطره وأشواقه وأحزانه. . . ويطلب إلى مي أن تلقي بها في المدفأة لعلها تضيف ناراً إلى النار، أولوناً في لوحة الشتاء!

لقد عاشت «مي زيادة» فراشة وحيدة في بيتها تدور حولها مشاعل الفكر والأدب المصري تلسعها وتحرقها وتتركها تتعذب. . . حتى انهارت ودخلت مستشفى الأمراض العقلية في بيروت. . . وجاء الجنون يحمل عنها كل هذه الأعباء ويوفر عليها قراءة ألوف الرسائل تنكيها وترثيها. . . فقد غابت عن العقل، وغاب عنها العقل أيضاً.

وصفت «مي» نفسها في رسالة إلى صديقة لها فقالت:

استحضري فتاة سمراء كالبن أو كالتمر الهندي كما يقول الشعراء ،
أو كالمسك كما يقول مجنون ليلي ، وضعي عليه طابعاً سحائباً من
الوجد والشوق والذهول والجوع الفكري الذي لا يكتفي والعطش
الروحي الذي لا يرتوي ، ، يرافق أولئك جميعاً استعداد كبير
للطرب والسرور ، واستعداد أكبر للشجن والألم ، واطلقي على هذا
المجموع اسم «مي» تري من يتحدث إليك الآن .

قال العقّاد يرثيها :

شيم «غر» رضيات عذاب
وحجى ينفذ بالرأي الصواب
وذكاء ألمعي كالشهاب
وجمال قدسي لا يعاب
كل هذا في التراب آه من هذا التراب !

وقال الشاعر شفيق معلوف :

بنت الجبال ربيبة الهرم
هيهات يجهل اسمها حي
لم نلف سحراً سال من قلم
إلا هتفنا : هذه مي !

وقال خليل مطران :

أقفر البيت أين ناديك يا مي
إليه الوفود يختلفونا

صفوة المشرقين نبلا وفضلا
في ذراك الرحيب يعتمروننا
فتساق فيه البحوث ضروبا
ويدار الحديث فيه شجوننا
ونعيب القلوب وهي غراث
من ثمار العقول ما يشتهونا

وقال العقّاد:

سائلوا النخبة من رهط الندى
أين «مي» هل علمتم أين «مي»؟
الحديث الحلو واللحن الشجي
والجبين الحر والوجه السني
أين وليّ كوكباه؟ أين غاب؟

وقال إسماعيل صبري:

روحي على دور بعض الحي حائمة
كظامي الطير تواقا إلى الماء
إن لم أمتّع بمي ناظري غداً
أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

وفي الآداب العالمية أديبات عشقن الأدباء والفنانين - ولكن في

غير عفة . . أي في غير عذاب .

كانت أديبة فرنسا جورج صاند أحببت وأحبها الشاعر الفرند
بميسيه والموسيقار البولندي شوبان .

وكانت «سالومي» - قد أحبها عالم النفس فرويد والفيلسوف
نيتشه والشاعر ريلكه . . فكانوا عشاقاً، وكانت عشيقه .

وكثيرات في كل العصور . .

إلا «مي» فكانت لعصر كامل . . ولم تكن لأحد . . ولم يكن لها
أحد . . كانوا قريبين جداً، وكانت بعيدة جداً . .

عاشت في خيالهم، فلما ماتت كانت وحدها!

ما هذا الطوق في عنق الحمامة؟

· مفاجأة القرن العاشر الميلادي أن يؤلف شيخ أمام فقيه شاعر كتاباً عن «الحب». وهو الكتاب الوحيد في التاريخ من تأليف أحد رجال الدين. . وهو الكتاب الوحيد في كل اللغات في ذلك القرن. والمؤلف هو ابن حزم الأندلسي. كتبه وهو في الثلاثين من عمره. يتحدث فيه عن معنى الحب وأسبابه وأعراضه ورأي الناس. . وماذا يفعل المحب لكي ينجح وما الذي يجعله يفشل. ومن هو الهاجر والعاذل وما هي الإذاعة والسفارة والبين والضمني ثم أن الحب ليس حراماً ما دام المحب عفيفاً كتوماً. لا جاء في كتاب ولا سُنَّة أن المحب مجرم وأن الحب خطيئة. ويقول ابن حزم: أريحوا النفس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد.

أما الكتاب الذي ألفه ابن حزم الأندلسي، الوزير ابن الوزير والذي دخل السجن وخرج ودخله لأسباب سياسية فهو «طوق الحمامة».. ولكن عذاب السجن وهوان السياسة لم يترك أثراً على قلمه. فقد رأى أن الحب ضرورة. بل هو حياة. ومهما غضب الناس من الفقيه المؤرخ الشريف النظيف، فإنه حريص على أن يقرأ الناس ما كتب.

وما دام قد قال الحق في الحب والدين والمذاهب الدينية، فلا يهم. وقد أحرق الناس كتبه وخاف منه الحكام. ويقال أنه ألف ٤٠٠ كتاب. ولم يصلنا إلا القليل منها.

ولم يذكر لنا ابن حزم الأندلسي معنى «طوق الحمامة» - أي الطوق في عنق الحمامة.. ولكنه لا بد أنه اختار الحمامة لوداعتها، أو لعله اختار الحمامة ذات الطوق. أو الحمامة المطوقة. ففي الحب يجب أن يختار المحب «سفيراً» - أي من ينوب عنه في إبلاغ فتاته وأخباره إلى المحبوبة فلا يختار شخصاً غيباً، ولا يختار عجوزاً مخرفة. وكان من عادة المحبين أن يبعثوا

بالخياطة والبلانة والحجامة - أي التي تعطي الحقن - فاختيار
السفير مهم في الحب ففي يديه وخياله وذاكرته وأخلاقه حياة
الحب وموته . وكان بعض المحبين يضعون رسائلهم في أجنحة
الحمام الزاجل . ونوح عليه السلام عندما أراد أن يعرف إن كان
الطوفان قد انحسر عن الأرض فقد أرسل حمامة . يقول ابن
حزم :

تخيرها نوح فما خاب ظنه
لديها ، وجاءت نحوه بالبشائر
سأودعها كتبي ، فهاكها
رسائل تهدي في قوادم طائر

ولكن هناك نوعاً من الحمام اسمه «الحمامة المطوقة» ويقال
«اليمامة المطوقة» أيضاً . . هذا الطائر ياباني الأصل عثر عليه
المكتشفون في جزيرة هوتشو في اليابان في القرن الثامن عشر .
وانتشر هذا الطائر بسرعة من اليابان حتى وصل إلى إنجلترا من
سبعين عاماً فقط . ووصل إلى المجر سنة ١٩٣٠ وإلى الدانمرك
سنة ١٩٤٨ . وهو طائر رمادي بني اللون وله جسم رمادي أزرق
فاتح . . وريش الجناحين أسود : والذكر ينام على البيض نهاراً .
والأنثى تنام ليلاً . وقد لاحظ العلماء أن الذكر يغالط الأنثى فينام
على البيض ست ساعات فقط !!

وصوت هذا الحمام من ثلاثة مقاطع ، أما معنى هذه المقاطع

الثلاثة فله تفسير في الأساطير الإغريقية: يقال أن سيدة كانت تعذب خادمة لها فتعطيها ١٨ قرشاً في العام. فراحت الخادمة تبكي وتصلّي للآلهة أن ترحمها من هذه السيدة البخيلة. فاستجاب كبير الآلهة زيوس لدعاء هذه الخادمة المسكينة. وقرر أن يفضح العجوز فخلق هذا الطائر وجعل في عنقه لوناً أسود كأنه الطوق. ثم جعل صوته: ديكا - أوكتو. . وهما كلمتان يونانيتان معناهما: ٨ و ١٠. . فهذه الحمامة تعلن في الدنيا بهذا الشكل الجميل والريش البديع فضيحة الـ ١٨ قرشاً التي تدفعها عجوز بخيلة لفتاة مسكينة!

واختار ابن حزم «طوق الحمامة» أي هذه العلامة الزرقاء القائمة في عنقها الرقيق الرمادي البني للدلالة على أنها هذا الرسول أو السفير المخلص ينقل رسائل المحبين في أمان وكتمان. . وهذا الطوق أو هذه العلامة، دليل على ذلك. . وهذه الحمامة تختلف عن كل الطيور، كما يختلف السفير المخلص والرسول الأمين عن كل الذين يفضحون أسرار المحبين. .

ولم يكتشف المستشرقون كتاب «طوق الحمامة» إلا في أوائل هذا القرن. وكان مفاجأة أدبية كبرى: شيخ فقيه عارف بالله يتحدث عن الحب!

وقد أحب مصطفى صادق الرافعي، وهو المفكر الإسلامي، وأحب الأستاذ العقاد وهو المتفلسف الإسلامي. . وقد اندهش

قرأ مجلة «الثقافة» عندما كتب الأستاذ أحمد أمين، وهو العالم الإسلامي، أن سيدة كانت تعلّم اللغة الفرنسية فقال لها يوماً: إن عينيك تعجبني!

فهاج وماج القراء: كيف أن رجلاً شيخاً عالماً إسلامياً يقول ذلك.. مع أنه لم يزد على الإعجاب بعيني هذه المدرسة الفرنسية!

والشاعر القديم يقول مستجيراً بالله وحائراً في حكمته:

خلقت الجمال لنا فتنة
وقلت: يا عبادي اتقون!
وأنت جميل تحب الجمال
فكيف عبادك لا يعشقون؟!

وقد جعل الشيخ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم كتابه المشهور «طوق الحمامة» في الإلفة والآلاف في ثلاثين فصلاً. وقد ألفه وأهداه إلى أحد أصدقائه. وقد استمد كل ما فيه من وقائع وأحداث من حياة الناس حوله. ولم يشأ أن يذكر أسماءهم. لأن أسماء المحبين عورة. وابن حزم قد فتح عينيه على النساء في بيته، هنّ اللاتي علّمنه القراءة والقرآن.. وقد سمع إليهن طويلاً وكثيراً. وتعلم منهن حب الاستطلاع والفضول. ولكنه عاش ومات عفيفاً. ثم رأى ولاحظ وسجل وفكّر وحلّل. وكان لا بد أن يكتب.. وكتب ناصحاً أميناً «لأنه لا بد أن

يحب، ولا بد أن يتعذب» والذي يحب ويتعذب يُخيل إليه أنه وحده في هذه الدنيا.

وأنه قد وقع في بئر لا خروج منها.. فكان هذا الكتاب مثل حبل تدلى إلى غريق.

يقول ابن حزم: الحب أوله هزل وآخره جد.

وليس الحب حراماً، فقد أحب الخلقاء والأمراء والملوك وشيوخ كثيرون.. يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «الأرواح جنود مجنّدة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

وعلامات الحب: إدمان النظر إلى المحبوب. ومتابعة المحبوب أينما ذهب. فالعين تمشي وراء المحبوب.. كما تتلون الحرباء بلون الشمس. والذي يحب يتحدث كثيراً عن الحب والمحبوب. ويستريح إلى المكان الذي يجلس فيه. ويجلس بالقرب منه. وينبهر عندما يراه. ويدق قلبه عندما يقترب منه. أو عند سماع صوته. أو سماع اسمه فجأة. والحب يجعل المؤمن يكفر، والكافر يؤمن. والمحب كما يقول ابن حزم أيضاً يجعلك تشرب ما تبقى من كوب المحبوب. ويجعلك تضحك وتبكي بسرعة ولأتفه الأسباب.. ألسن مضطرباً؟

ومن الممكن أن تحب أحداً قبل أن تراه. تسمع عنه. وتكون المسافة كبيرة بين الصورة التي رسمتها له، وصورته هو.. فإما أن

يكون الواقع صدمة تلقي بك إلى الوراء، أو صدمة ترمي بك عند قدميه ..

وهذا النوع من الحب هو حب ربّات القصور - أي الفتيات اللاتي يخرجن ولا يرين أحداً. وإنما يسمعن عن الدنيا. والمرأة تحب على السماع، ويكون حبها أقوى وأعمق، والرجال يكون حبهم على السماع ضعيفاً. فالمرأة مخلصّة لما تسمع، أكثر من إخلاصها لما ترى.

وهناك الحب من أول نظرة: ترى الفتاة الجميلة.. وتكون النظرة الأولى هي الأخيرة. ففي لحظة واحدة تستولي عليك الفتاة الجميلة وتجردك من سلاحك. إنها «الحرب الخاطفة» - بلغة العصر - التي تستولي فيها على كل قدراتك من الضربة الأولى!

يروى لنا ابن حزم قصة قاض عظيم رأى فتاة في السوق، فطار عقله ومشى وراءها. وأحست به الفتاة فكان هذا الحوار الرقيق الساخن كأنه في أحد الأفلام الحديثة..

قالت له: لماذا تمشي ورائي؟

قال: جمالك!

قالت: لا تفضحني!

قال: بل أنت فضحتني!

قالت: ماذا تريد؟

قال: أراك!

قالت : هذا مباح!
قال : حرة أو مملوكة؟
قالت : مملوكة!
قال : اسمك؟
قالت : خلوة!
قال : ومن الذي يملكك؟
قالت : السماء أقرب لك!
قال : متى أراك؟
قالت : في مثل هذا اليوم من كل أسبوع .
قال : أين؟
قالت : في نفس المكان!

وظل القاضي يذهب إلى نفس المكان في نفس الوقت حتى مات ولم يرها! والذي يجب من أول نظرة ليس عنده وقت ولا عنده صبر. إنه يسلم سلاحه من أول موقعة. . ويريح نفسه من عناء البحث، وعذاب الانتظار!

ولكن هناك حباً آخر: الحب بعد المطاولة. أي الحب من ألف نظرة. ويرى ابن حزم أن هذا الحب يدوم، فالذي يدخل القلب بصعوبة، يخرج منه بصعوبة أيضاً. ويقول: وما دخل عسيراً، لا يخرج يسيراً.

فلا بد أن يتمكن الحب - أي يكون له مكان ثابت في

أعماق القلب . وهكذا يطول مثل عمر الحياة .

والذي يحب، يحب كل صفات المحبوب . فالذي أحب فتاة قصيرة أو سمراء أو بدينة، فإنه لا يحب إلا هذه الصفة في كل النساء . . أي أن القلب له حب واحد . فأنت إذا أحببت فتاة لها صفات معينة، وابتعدت عنها لسبب ما، فإنك تبحث عن هذه الصفات في كل الفتيات . أي أن لديك نسخة واحدة من المحبوبة تريد أن تجد شبيهة لها بين كل الفتيات .

وإذا أنت أحببت فإنك تحاول أن تكون على صلة بالمحبوبة . . فتبعث إليها بالرسائل أو الرسل، فإذا بعثت إليها خطاباً - هذا عصر ما قبل التليفون - فليكن من ورق جيد أنيق . . فالعاشق عندما يتسلم الخطاب يضعه على القلب وعلى خده وعلى شفتيه وفي حضنه . .

ويسخر ابن حزم من العشاق الذين يكتبون رسائلهم بدمهم . . وقال أنه رأى خطاباً من هذا النوع، فلم يجد فرقاً بين لون الدم ولون الحبر الأحمر . ولكن العبرة بإحساس العشاق والمعشوق بما يكتب وبما يفعل من أجل المحبوب!

ومن صفات المحب: الكتمان . فإن كتمان الحب، مثل أن تطبق يدك على النار . إنها تحرقك . ولكن لا بد أن تداري حبك عن عيون الناس حماية لك ولئن تحب . والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: من أحب فكتم فعفّ مات شهيداً .

وهو يلعن «الإذاعة» - أي نشر أخبار المحبوب.. أي ينشرها المحب أو تنشرها المحبوبة. فإن الإذاعة يكون سببها أن يتباهى الإنسان بأنه يحب، وأنه مغلوب على أمره، وأنه لم يقو على الكتمان. فقد فضحه الحب. كما تفضحه الحمى.

وهناك الذين ينظرون من بعيد: العازل والرقيب والواشي..

وأروع ما في الحب: الوصل.. أن تجد المحبوب وأن يجدك. وأن تلمسه وأن يلمسك. يقول ابن حزم: «وهو حظ رفيع ومرتبة سرية، ودرجة عالية، وسعد طالع، بل هو الحياة المتجددة والسرور الدائم ورحمة الله عظيمة... ولولا أن الدنيا دار عمر ومحنة وكدر، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره، لقلنا أن وصل المحبوب هو الصفاء الذي لا كدر فيه والفرح الذي لا شائبة له ولا حزن معه وكمال الأمانى ومنتهى الأراجي...».

وهناك: الهجر.. أي أن يهجر المحب حبيبته ومن أسباب الهجر: الملل.. فيضيق المحبوب والمحبوبة. ويشعر الواحد منهما أنه ليس لدهما ما يقال، ولا عندهما جديد..

وهناك: السلوى.. أي عندما يحاول العاشق أن يتسلى بعيداً عن المحبوب.. وعندما يحاول أن ينسى.. ويحاول أن يستغرقه شيء آخر..

وقد يقتنع العاشق بأي شيء يذكّره بالمحبوب.. فيتخيل

حواراً بينهما . . ويقبض ورقة بعث بها . . أو منديلاً . . أو خصلة شعر . ويقول أنه رأى عاشقاً ضربه المحبوب بسكين ، فأخذ يقبّل مكان الجرح .

يقول ابن حزم أن هذا المحبوب لم يضربه أحد بسكين ، وإنما الدم في عروقه قد أحس بقرب المحبوب فخرج لتحيته . يقول :

يقولون شجك من همت فيه

فقلت لعمرى ما شجني

ولكن أحس دمي بقربه

فطار إليه ولم ينثن !

أما الفتاة التي أحبها ابن حزم فيصفها هكذا : جارية نشأت في دارنا وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرتها ودمائتها عديمة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مسبلة الستر ، فقيدة الدام ، قليلة الكلام ، مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ، حلوة الأعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النفار ، وجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد من أمها . تزدان في المنع والبخل ، ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل . . أحببتها حباً مفرطاً شديداً ، فسعيت عامين أن تجيبي بكلمة وأسمع من فيها

لفظة غير ما يقع في الحديث الظاهر، فما وصلت من ذلك إلى شيء» .

ثم يروي كيف يطاردها وهي وراء ستار . . يقترب منها . . لعله يسمعها . . لعله يلمسها . . ولم تشعر الجاريات بكل ذلك . . إلى هذه الدرجة كان حريصاً وكان قادراً على إخفاء مشاعره . . يقول لها :

منعت جمال وجهك مقلتيا
ولفظك قد ضننت به عليا
أراك نذرت للرحمن صوما
فلست تكلمين اليوم حياً

ثم رآها بعد ستة أعوام : «وما كدت أن أميّزها حتى قيل لي هذه فلانة وقد تغير أكثر محاسنها وذهبت نضارتها وفنيت تلك البهجة، وغاص ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية، وذبل ذلك النوار الذي كان البصر يقصده نحوه . فلم يبق إلا البعض المنبئ عن الكل . . المبني على الكل . . والنساء رياض متى لم تتعاهد ذبلت .

ولو حاول أحد أن يحقق كل هذه الصفات في محبوبة ابن حزم، لوجد في ذلك صعوبة . . بل استحالة . وهكذا رآها أول مرة، وآخر مرة . . وهو يجد لها العذر . . فقد كانت تعيش في بيت

الوزير. . ثم مال عليه الزمن ، فباع جواريه . . وتعذبت الجواري
في كل بيت وكل شارع . . فمسح الزمان جباهن وشبابهن . .
وتعرت هذه الجارية التي جنَّ بها ابن حزم ، من كل جمال ودلال
وصارت إلى هذه الهيئة الأليمة ، التي أفزعته عليها . .

ولا يعتذر ابن حزم لأحد من الناس أو المؤرخين على هذا
الذي كتبه عن الحب والمحبين والعشق والعشاق . ويرى أنه قال
الحق . وهذا يكفي . وهذه هي أمانة الباحث وهو يطلب إلى
الناس ألا يسيئوا الظن به . فيقولون «لقد خالف طريقته وتجاوى
عن وجهته» - أي أنه كان رجل دين ، فإذا هو رجل دنيا . . وأنه
كان وقوراً ، فإذا به رجل هازل . . يقول تعالى : ﴿يا أيها الذين
آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إنَّ بعض الظنِّ إثمٌ﴾ . ويقول
الرسول عليه الصلاة والسلام : «إياكم والظن ، فإنه أكذب
الكذب» . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : «من كان يؤمن
بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً أو ليصمت» .

ويرى ابن حزم الذي يؤمن بالله واليوم الآخر ، أنه قال
خيراً!

لآخر دمعة في عينيه وقطرة من دمها

من أشهر الصور الكاريكاتورية في نهاية القرن الماضي : عربية يجرها ثلاثة من الرجال وعلى العربية امرأة جميلة تكويهم بالسياط أما الثلاثة فهم : الفيلسوف نيتشه والعالم النفسي فرويد والشاعر ريلكه . أما السيدة فهي الأديبة الغازية الغاوية الطاغية سالومي .

وهي صورة لعجز ثلاثة من العباقرة على أن يفوز أحد بلقب أو جسد هذه الأديبة المتوسطة القيمة ، الباردة الجمال الجارقة الذكاء . فلم تجدد مفراً من أن تجعل منهم خيولاً أو حميراً يجرون عربتها وتلسمهم بالكرباج . فلم يفلح أحد أن يفوز بها . .

أما نيتشة فيلسوف القوة، فيلسوف الرجل الذي يحتقر المرأة،
وفيلسوف الشعب الآري الذي يحتقر اليهود وكل الساميين - وهي
يهودية - فقد طاردها في أوروبا وطردته . .

وعالم النفس فرويد الذي يعرف كل خبايا النفس واليهودي
مثلها، فلم يستطع أن يذهب إلى أبعد من أن يعلمها كيف تحلل
نفسها وغيرها . . ولما حللته هو صارحته بأنه يريد جسمها، وليس
صحيحاً أنه يحبها. فطبقاً لتعاليمه النفسية . وهي ليست في حاجة
إلى جنس فعندها زوجها وآخرون . .

أما الشاعر العظيم ريلكه فهو أحسن من يقرأ الشعر ويرويه
ويذيب العيون والقلوب عند سماعه . وقد رأت فيه سالومي أحسن
رجل تقابله قبل لقاء رجل آخر . فهو يقوم بدور جهاز التكيف
لغرف النوم، يجعلها أدفاً كأنها حضن لذيذ، وبعد ذلك عليه أن
يبرح الغرفة لأنها على موعد مع عشيق تحبه . .

- فكان هؤلاء الثلاثة فاشلون في الحب . ومن هذا الفشل تولدت
أروع صرخاتهم في الفلسفة وعلم النفس والشعر . فالتاريخ لا يذكر
لهم إلا هذه الفضيحة . وأعظم العشاق هم الذين أحبوا، وطردها
من فردوس السعادة . والحب الخالد هو الحب الفاشل . أما الذين
أحبوا ونجحوا، فنحن لا نعرف عنهم شيئاً . فمن ينابيع الحرمان
يولد الفن . والتمن : هو حياة الفنان وسعادته . والفنان مستعد أن
يدفع ما هو أكثر من ذلك، إذا كان يساعده على أن يكون جميل

العبارة، حلو الأداء، وأن يموت بعد ذلك غريقاً في دموعه، حريقاً في زفراته.. فليس أقسى من الفشل في الحب، إلا النسيان.. أي إلا أن ينساه الناس ويموت، دون أن يدري به أحد!

ولن تجد في التاريخ نساء كثيرات تعذبن مثلما تعذبت «مي زيادة» التي أحبها الجميع، ولم تحب أحداً.. فالتفوا حولها حبلاً ذهبياً وشنقوها.. وعلقوها في السماء..

فالمرأة العاشقة أو المعشوقة في الآداب الغربية أحسن حالاً، لأنها أكثر حرية، وأقدر على أن تقول: نعم وتقول: لا.. أو تقول نعم ولا في وقت واحد..

فمثل سالومي كثيرات..

ربما كانت أول وآخر امرأة عرفناها في مصر هي كليوباترة (٦٩ - ٣٠ ق.م) ملكة مصر. كان لا بد أن تتزوج رجلاً لتكون ملكة على مصر. فتزوجت أخاها بطليموس الثالث عشر. ولما ماتت تزوجت أخاها بطليموس الرابع عشر. وكان في الثانية عشرة من عمره.. وعرفت عدداً كبيراً من قادة الحرب. وتزوجت يوليوس قيصر وأنجبت منه ولداً. وانتقلت إلى الحياة معه في روما. ولم يكن لها وريث إلا ابنها المصري. ووضع لها يوليوس قيصر تمثالاً في معبد فينوس.. وثار الشعب الروماني على الملكة الأجنبية التي أنجبت وريثاً أجنبياً، والتي فرض عليهم أن يعبدوها، فقتلوه. وهربت إلى مصر. وقبل أن تصل إلى مياه الإسكندرية قررت أن تغزو قلب

القائد الروماني انطونيوس . فصبغت بالألوان الذهبية والفضية
سفينتها . . وارتدت ملابسها العارية وتمابلت الأمواج مع الطبول
والدفوف والبخور . . ودون مقاومة استسلم القائد الروماني عشيقاً
لملكة مصر . وأنجبت منه توأمين . وعاد انطونيوس إلى روما وطلق
زوجته ثم ارتد إلى كليوباترة . وأمام قائد آخر هربت كليوباترة
وانتحر انطونيوس بسيفه ، وانتحرت كليوباترة بثعبانها في كامل أناقتها
وفتنها . . كأنما أرادت بعد أن تموت أن تغزو الموت أيضاً ! .

ولم يعرف تاريخ مصر غير كليوباترة عاشقة للسلطة والشباب
وعاشقة للأدباء والشعراء أيضاً . وكانت لها عبارة مشهورة تقول:
كما أنه من الضروري أن يكون في غرفة نومك ورود وزهور، لتلقي
بها في اليوم التالي في الزبالة، فكذلك لا بد من الشعراء
والموسيقيين . . أما الأبطال فهم أطول عمراً ! .

وعرفت فيينا، عاصمة الموسيقى والأدب والفن في القرن
الماضي سيدة اسمها «ألما» شندلر . . كانت زوجة للموسيقار مالر . .
ثم أحببت الرسام كوكشكا . . وعاشت معه ثم قابلت على رصيف
محطة فيينا المهندس الكبير جروبيوس . . فخطفها وتزوجها بعيداً . .
وكانت لهما إبنة، فلما بلغت الثامنة عشرة ماتت بشلل الأطفال
فتبارى الرسّامون والموسيقيون في تخليدها . . ثم أحببت الأديب
فرانس فرفل الذي سجل مأساة ابنتها في رواية «أغنية برنات»
الذي ظهر على الشاشة وفاز بخمس جوائز أوسكار . .

وعرفت «ألم» أكثر الأدباء والشعراء في عصرها . . وفي آخر أيامها جلست تكتب مذكراتها . وعلى الرغم من أنها صاحبة أسلوب جميل ، فإن أحداً لم يقبل على قراءتها . فقد رأوا فيها «غانية» رخيصة . . عذبت عدداً من العباقرة لا شيء : إلا لأنها دموية المزاج ، وإلا لأنهم ارقّ حساً وأصدق تعبيراً عن مشاعرهم النبيلة . . فكانوا فراشات دارت وداخت حول نار محرقة ! .

فكان انصراف الناس عن مذكراتها عقاباً لها ، وإن كان متأخراً ! .

الحب والعفاريث - يتكلم عنها الناس ولكن أحداً لم يرها .

هذه العبارة تصدق على عدد كبير جداً من الأدباء والشعراء والموسيقين وعلماء النفس . أي أكثر الناس كلاماً عن الحب ، وإثارة للحب . ولكن ليس معقولاً أن أحداً منهم لم يعرف الحب . من المؤكد أنه عرفه . ولكن كان هو يعانيه قليلاً . . أي أنه لم ينجح في الحب ، وإنما كان عظيم الفشل ، عميق الحرمان . . فلم يعرف إلا الجنس ومزيداً من الجنس . .

مثلاً : الأديب الدانمركي هانس اندرسن (١٨٠٥ - ١٨٧٥) صاحب قصص الأطفال الجميلة المسؤولة عن إمتاع وتربية مئات الملايين من الأطفال في العالم . لم يعرف الجنس ولا الحب في حياته . فهو يرى نفسه نصف مريض : لأن لديه رغبة ، ولكن هذه الرغبة لم تحقق حتى الموت . .

وقد ظن الناس أنه عندما يختفي يوم الأحد من كل أسبوع، أنه يذهب لموعد غرامي . ولم نعرف إلا بعد موته أنه كان على موعد مع كتابة خطاب غرامي لفتاة . هذه الفتاة وعدت نفسها وتوعدت هذا الأديب، بأن رسائله إذا بلغت الألف فسوف تلقي بها في الزبالة . لماذا؟ تقول: إنه لم يذهب إلى ما بعد الخطابات بخطوة واحدة . هو عنده وقت للكتابة، ولا وقت ولا قدرة عنده على الحب . ولا قدرة لي على الصبر . . وعلى أن أعيش وأموت على الورق! .

فتزوجت ساعي البريد! .

أما ذلك العبقري الحيوان الفرنسي بلزاك (١٧٩٩ - ١٨٥٠) فهو أبو الرواية الفرنسية، فهو انسان في غاية الشراهة . فنفسه مفتوحة على كل طعام من كل لون: أشقر أبيض أسمر . . قصير طويل . . فقير . . غني . . فالمرأة عنده: مائدة فخمة، شكلها يختلف بعد الأكل! .

وكان يكره الفتيات الصغيرات . يفضل الناضجات .

وبدأت علاقاته بالنساء مع سيدة أكبر منه بعشرين عاماً، هي التي فتحت له الباب على دنيا الجنس، وليس الحب . وعندما تقدم لإحدى جميلات باريس رفضته . فقد نظرت إلى شعره المنكوش وكرشه المنفوخ وقالت: لا . .

وكانت مثل صفة على قفاه وعلى وجهه وعلى أدبه وشهرته .

وغرق في الديون، فراح يبحث عن المطلقات والأرامل
الغنيات. وعرف إيفلينا ووعدته بالزواج منها بعد وفاة زوجها.
وكانت تصفه بقوله: إنه العسل والنار.

وسددت له ديونه. فأحب غيرها فتاة في الرابعة والعشرين من
عمرها. وأنجبت له طفلاً.

ولما مات زوج إيفلينا رفضت الزواج منه!

ولما مات انهار بين ذراعي إيفلينا. وخرج من الحياة بهذه
الحكمة: من السهل أن تكون عاشقاً، من الصعب أن تكون
زوجاً، لأنه من الصعب أن تروي النكت وتكون ضاحكاً مضحكاً
٢٤ ساعة من كل يوم!

ولم يعرف التاريخ رجلاً تحدث بهذه الكثرة والعمق والجلال
عن الجنس والحب مثل المستشرق الإنجليزي ريتشارد برتون
(١٨٢١ - ١٨٩٠)، الذي ترجم «ألف ليلة وليلة». ولم يكن رجلاً
سويّاً، ولا محباً ولا عاشقاً، وإن كان محبوباً من كثيرات ومرفوضاً
منهن بسرعة.

وقد عاش برتون في الشرق الأوسط وفي الشرق الأقصى وتعلّم
عدداً كبيراً من اللغات من بينها العربية. . يقال عشرون لغة.
وعرف ورأى وعاش النساء من كل لون وكل سن. . وكان يهرب
من مجالس النساء إلى مجالس الرجال. . وكان حلو الحديث كثير.

النكت والقصص الجنسية العارية . . ولا يطربه إلا الكلام الذي يصدم الأذواق الرقيقة . أحب فتاة هندية أحببت رجلاً آخر ثم تزوج . وتقول زوجته أنه لم يكن لها يوماً واحداً . ولم تجده وحده أبداً . . فهناك أكثر من واحد ومن واحدة في حياة «كاهن» الغرام والحب . ولكنه لم يذق طعم الحب ! .

أبو الرواية الإنجليزية تشارلز دكنز (١٨١٢ - ١٨٧٠) . ونحن لم نعرف أن هذا الأديب الجاد والمصلح الاجتماعي العظيم كان عاشقاً إلا من الخطابات التي تركها وراءه . وأهم سيدة في حياته هي أخت زوجته . ويحكى لنا كيف أنه عاد في إحدى الليالي لسمع صرخات تمزق ظلام وسكون الليل . وأسرع إلى حيث غرفة «ماري» أخت زوجته . لقد أصابتها نوبة قلبية لتموت بين ذراعيه . . فينتقل خاتمها بين أصبعها إلى أصبعه ، حتى الموت ولم ينس هذه الفتاة . .

ثم أحب ممثلة في سن ابنته . . وقال أنه أحب الملكة فكتوريا . . فلما تزوجت قرر الانتحار . ولم يصدق أحد . ولكن كان يؤكد هذا الحب ، حتى اتهمه الناس بالجنون . .

أما حكمة حياته فهي : عن طريق الزواج سوف تعرف معنى المجتمع ، ولكن ليس من أجل هذه المعلومات القليلة التافهة ، تعاني كل هذا العذاب ! .

وعبقري الرواية الروسي دستوفسكي (١٨٢١ - ١٨٨١) كان
يجب من المرأة قدميها. . وهو دائم النظر في قدمي المرأة. وكثيراً ما
جاء في رواياته مثل هذه العبارة: وركع عند قدميها، وراح يقبلها
ويضع أصابعها واحدة واحدة بين شفتيه. . وسعيد بذلك. .
ويقول أيضاً: ساحيني. أعطني قدمك الفاتنة أسكب عليها دموعي
وأغسلها بعيني. . وأرتوي من أصابعك البللورية. . صدقيني، إن
لم تكن هذه سعادتك، فهي أقصى درجات سعادتي. . لا تطرديني
من جنتك فالجنة تحت قدميك. . بل الجنة قدماك! .

وحين بلغ الأربعين من عمره لم تكن له أية تجربة جنسية، ولا
حتى عرف الحب؟ وسبب ذلك كما يقول: إنعدام الفرصة والثقة
بالنفس. .

ثم تزوج الكاتبة على الآلة وكان يكبرها بخمسة وعشرين
عاماً، وذلك بعد أن ماتت زوجته.

ولذلك لم يكن 'ألكسندر ديماس سوى «قوة جنسية»، وطاقة
شهوانية. . وليس إلا حيواناً أديباً - ولكنه حيوان قبل أن يكون
أديباً.

أما أمير الشعراء الألمان ونبي الرومانسية، جيته (١٧٤٩ -
١٨٣٢) فهو يرى أن الأدب يولد من التوتر. . يولد من الاحتكاك
المستمر بين عجلات السيارة وفراملها. . هذه السخونة. . هذه

الشرارة هي التي يتفجر منها الشعر. ولذلك يجب أن يكون الفنان في هذه الحالة الساخنة، وإلا تجمد ومات.

أحب ابنة صاحب فندق. وكان يقول: أتمنى أن أشرب السم من يدها!.

وقال: نحن الذين نطرد أنفسنا من جنتنا. هي جنتي وأنا لا ألقى بنفسي خارج أبواب بيتها الساحر!.

ثم أحب سيدة متزوجة وأماً لثمانية أطفال وبعث لها بعشرين ألف خطاب! ثم أحب عاملة في أحد المصانع وعاشت معه وكانت تحب الموسيقى والرقص والشعر.

ثم تزوج فتاة أنقذته من الموت أثناء الحملة الفرنسية على ألمانيا. وفتح الزواج شهيته على نساء أخريات. . ويقال أنه أحب زوجة ابنه.

وعندما بلغ الرابعة والسبعين من عمره تقدم لسيدة تصغره بعشرين عاماً، فرفضته. وقال ضاحكاً حزيناً صريحاً: معك حق. لقد نسيت أن أنظر إلى وجهي في المرأة!.

وهيجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥) أمير النثر والشعر في فرنسا فقد كان شهوانياً، لا مثيل له، بعد أن تزوج وبعد ثماني سنوات قررت زوجته أن تستريح من هذه العلاقة بعد أن أجهضت عشرين مرة،

وأحبت الزوجة الناقد العظيم سانت بيف. وانتهى هذا الزواج
بهرب الزوجة . .

فأحب إحدى الممثلات وكانت عشيقة لأكثر الممثلين والنقاد
والمتفرجين أيضاً. ولكنها هي التي علّمته معنى أن يكون عاشقاً،
وآلا يكون محباً وهي تقول: إن المرأة لا تستحق أن يحبها الرجل . .
ولا الرجل يستحق أن تموت من أجله امرأة . .

وظلت هذه الشراهة الجنسية حتى موته في سن الثالثة
والثمانين .

ويقال أن أحد أحفاده قد زاره وهو على فراش الموت. فلما
دخل عليه الغرفة وجده يعانق خادمة أصغر منه بستين عاماً،
فالتفت إليه هيجو قائلاً: هذا يا ولدي ما يسمونه بالعبقرية!

أما تولستوي (١٨٢٨ - ١٩١٠) أديب روسيا العظيم فقد
جلس يبكي على الأرض أمام سرير أول غانية عرفها. ولم ينس
ذلك اليوم طوال حياته .

يقول تولستوي: يجب أن تكون على مقربة من النساء ترى
وتسمع وتفكر وتتعلّم، ولكن ابعد عنهن. ابعد عن هذا الشر قدر
استطاعتك. خذها مني نصيحة مخلصة!

أحب خادمة . . وخادمة . . وثالثة ورابعة أنجب منها ولداً.

وكان يقول أسعد الناس: رجل لا يحب الجنس وامرأة عفيفة
لا تحب الجنس أيضاً.

وكان طاغية في أسرته مع زوجته وأولاده . .

قالت زوجته أنها لم تعرف معه نعمة الحب أو لذة الجنس . .
فهو فلاح غليظ جاف جلف - وإن كان رسول الحب بين الناس
والسلام العالمي ! .

ولم يعرف الأدب الأوروبي الحديث شاعراً في مثل رقة «ريلكه»
ذلك الألماني الذي ولد في تشيكوسلوفاكيا (١٨٧٥-١٩٢٦). وأنا قد
عايشت دواوينه وقصصه ذات الفصل الواحد، إنه مزيج من
الصوفية والعشق . . وكنت استمع إلى شعره من أستاذين: عبد
الرحمن بدوي وعبد الهادي أبو ريده يوم كنت طالباً. ولم أكن قادراً
على قراءة شعره والاستمتاع به فلغته الألمانية صعبة. وصوره
رمزية . . وتهاويمه الذهبية، غامضة . . ولكن له موسيقى، وليس
من الضروري أن تفهم الموسيقى ولا اللوحات . . أنت تستبلم لها
فقط. وتستريح، دون أن تعرف ما هذا الذي أراحك . . لأنك لا
تعرف كيف تصف طعم التفاح ولا طعم الطماطم . . ولا تعرف
معنى رائحة الورد ولا خريف الماء ولا لون السماء عند الغروب
والشروق. إنها جمال . . وهذا يكفي . .

وعندما سافرت إلى سويسرا أقمت في فندق صغير في لوزان.

وقد أقام الشاعر ريلكه في هذا الفندق في سنواته الأخيرة، ومات بالقرب منه. إنها صدفة. وصدفة أخرى هي التي عثرت بها على كتاب فوق سور الأزبكية عن «غراميات ريلكه» ووجدت في الكتاب صورة لفتاة مصرية جميلة جداً اسمها «نعمات علوي» أو نعمت علوي. وكتبت عن هذا الاكتشاف في مجلة «آخر ساعة» وتلقيت خطابات شتائم ومكالمات تليفونية تلعني - لا بد أنهم أقارب هذه الجميلة المصرية التي كانت آخر حب للشاعر العظيم.

وصدفة أخرى أن يكون موت الشاعر بنفس الطريقة التي توفي بها الأديب «صلاح ذهني»، وكان صلاح ذهني صديقاً عزيزاً رقيقاً، وكان سكرتيراً لدار الأوبرا ومحوراً بآخر ساعة. وتشاء الصدفة أن يتقرر سفر صلاح ذهني إلى لندن مع صدور المقال. فطلبت تأجيله إلى ما بعد سفره. فقد دخلت شوكة وردة في إصبع الشاعر ريلكه، ليكتشف الأطباء أنه مصاب بالسرطان. شيء من ذلك اكتشفه الأطباء عند صلاح ذهني. وفي الليل وفي كازينو الجلاء - الذي أقيم مكانه فندق شيراتون القاهرة - قابلت صلاح ذهني، ليبيدي إعجابه بالمقال الذي تأجل!!..

وليقول لي ما أوجعني؛ تصور أني سوف أموت تماماً كما مات الشاعر الألماني ولنفس السبب!.

يقول ريلكه: لا أجد لذة في الجنس وهي لا تجد لذة في

الحب . . فأنا تعيس إذا حاولت أحب ، وهي تعيسة إذا حاولت أن
تعشق ! .

وقد أعجب بمدرسة تكبره بثلاثة عشر عاماً ، وهرباً معاً .
وعرف الفاتنة الفاتكة سالومي ، وكانت متزوجة ، وأنجبت له
ولداً . .

أما حكمة حياته فهي : لا بد أن تحب وأن تكون عاشقاً ، ومن
الصعب أن تكون عاشقاً وأن تكون محباً أيضاً . أما حياتي فهي
المستحيل الآخر : فهو ألا أحب واحدة وألا أعشقها .

شيء عجيب حقاً : إن دعاة الحب ، لا يحبون . . الحب . . فإذا
أحبوا فشلوا ، وإذا فشلوا كتبوا . وإذا كتبوا أبدعوا .

إن للموسيقين العباقرة قصة أخرى ، إن لم تكن مطابقة تماماً ،
فهي مماثلة إلى آخر دمة في عيني العاشق ، وآخر قطرة من دم
المحوبة ! .

زينب والاحتقار العظيم؟!

في أحد شوارع باريس وعند منتصف الليل، والهواء بارد والرياح تكس الناس وثلقي بهم فيتساندون على الجدران، شاهد المارة رجلاً يترنح يميناً وشمالاً . . ويرفع يديه ويتحدث إلى السماء، ثم يضع يده في جيبه فلا يجد ورقة ويبحث عن قلم فلا يعثر عليه . . فيقف عند أحد الأبواب ويكتب بإضبعه . . ثم يعود إلى الشارع . . ويلتقي بإحدى البغايا فتقول له :

— تعال نقضي ليلة جميلة .

— لا أريد .

— أأست وحدك . . تعال .

— وحدي . لكن لا أريد . .

— إذن ما الذي ستعمله في هذا الليل وفي هذه الوحدة

الشنيع .

— إنني لست في وحدة . . إنني أعمل . . إنني لا أتسكع .

ولم يكن ذلك إلا الموسيقىار الفرنسي بيزيه . . وكان من عاداته

أن يخرج في الليل يفكر . . فلم يكن يهبط عليه وحي النغم . . إلا

وهو يمشي في الشوارع . . وكانت الفتاة التي يحبها تقول عنه : ذلك

المجنون الرائع !

وكان الموسيقى الروسي برودين يضيق بالهدوء والصمت . .
ويكره صوت الريح، ويفزع من الجليد . . وكان لا يؤلف
موسيقاه إلا في محطات السكك الحديدية . . وكانت مواعيده
الغرامية في القطارات . . وكانت نشوته عظيمة عندما يسمع القطار
ينفخ وينفث ويهدر ويزجر ثم ينطلق بعيداً . . وكان يحفظ جداول
القطارات . . ويقول: لقد تأخر القطار دقيقة عن مواعده .

وكان يسعده أن يأتي بالفتاة التي يحبها ويطلب إليها أن تقف في
دخان القطار، ثم يراها بعد أن غطى الهباب وجهها!

ولم نعرف في تاريخ الموسيقى حباً كبيراً وإنما عشرات من
قصص الحب للموسيقار الواحد . كأنه من الصعب أن يجمع
الموسيقار بين الحب والموسيقى . . فإما متعة الحب، وإما روعة
الموسيقى . . فكأنه مكتوب على جبين كل موسيقار عظيم أن يكون
معذباً . . وأن يتعذب هو، وأن تتعذب كل من تعرفه . فليس بين
كبار الموسيقيين واحد لا تقع في غرامه عشرات الفتيات . . أو يقع

هو في غرام مئات الفتيات . ولكن العبقرية الموسيقية تطرد
الفتيات . . وتقصف عمر الحب .

وكل قصص كبار الموسيقيين هي كوارث عاطفية .

وأكثر العظماء تعاسة هم عبقري الموسيقى بيتهوفن (١٧٧٠ -
١٨٢٧) .

فهذا العظيم عرف عشرات الفتيات والسيدات ، العائلات
والنبيلات . ولكنه لم يحب واحدة . . فهو يمشي وراء الفتيات
الجميلات . والفتيات ينظرن إلى رأسه وشعره المهيّب ثم لا يذهبن
إلى أبعد . من ذلك . . ففي عينيه الحادقتين شيء يخيف .

أحب اليا نورة (١٢ سنة) وكانت تقرأ له شعراً وتغنيه أيضاً .
وكان في الرابعة عشرة من عمره . وكتب في مذكراته : لو انتظرتني
مائة عام فسوف أتزوجها !

وتقدم لفتاة اسمها ماجدولينا وتوسل إليها أن تتزوجه فرفضته
قائلة : ذلك القبيح المجنون ؟ مستحيل !

وجوليتيا التي أهداها عمله الجميل « سوناتا ضوء القمر » ،
ولكنها وصفته بقولها : ليس قبل أن يستحم ألف مرة أستطيع أن
أقبله !!

وأحب سيدة اسمها مدام بيجوت . وكانت جميلة فاتنة . فبعث
إلى زوجها يقول : لو قبلتها في اليوم الواحد ألف مرة وعانقتها ألف

ألف، فلا لوم عليك . . فمثل هذا الجمال خلقه الله لتموت فيه
ومن أجله!

وفي سنة ١٨٠٥ توقف الموسيقار العظيم عند قرية في ضواحي
فيينا . وفي هذه القرية وجد ليزا . . كان يرى فيها جمال الكون
كله . . في عينيها في شفتيها في نهديها . . فإذا رآها ظل واقفاً جامداً
ينظر إليها ساعة . . وساعتين . . أما ليزا فتقول: جاء مجنون فيينا!

وقد حاول أصدقاؤه أن يفتحوا عينيه ليرى ليزا أوضح .
ولكنهم لم يستطيعوا فهي فلاحه تقف على كوم الزبالة وتسويه مرة
بالفأس ومرة بالمقشة . . ولكنه لم يكن يرى ذلك . وفي يوم علم أن
أباها كان مخموراً فحطم الأنية في أحد الكباريات . فأدخلوه
السجن، فارتدى أحسن ملابسه وذهب إلى المحكمة وطلب من
القاضي أن يفرج عن هذا الرجل المسكين . فما كان من القاضي إلا
أن طرده، لأن في هذا الطلب اعتداء على القانون .

وخرج بيتهوفن غاضباً، ولم يعد يرى ليزا تلك التي وصفها
بقوله: «ذات البهاء والفتنة الخالدة وهي تمشي فوق سقف
الدنيا؟!» وكان ذلك رأيته حتى مات .

أما الموسيقار هكتور برليوز (١٨٠٣ - ١٨٦٩) فقد أحب فتاة
اسمها أستिला (١٩ عاماً) وكانت تكبره بست سنوات . . وظلت
أستिला هذه حبه الوحيد . . وكان يضايق النساء بأن يطلق على كل
واحدة اسم أستिला الأولى والثانية والعاشرة . . وتزوجت أستिला

واختفت. وظل الموسيقار يبحث عنها طول حياته وكتب برليوز في مذكراته: عيناها الواسعتان الساحرتان.. شعرها الذهبي تساقط من خيوط الشمس.. شفتاها ترتويان من النبيذ والسعادة الأبدية.. قدماها الصغيرتان في حذاءها الأحمر الوردي.. وحياتي تراب مبعثر أمامها في انتظار دائم لعودتها وبقائها إلى الأبد هناك بعيداً أراها.. وأملأ عيني من جمالها وأدخرها في خيالي وفي أحلامي.

وعرف أنها في إحدى المدن الفرنسية، ذهب إليها، كانت في السبعين من عمرها. زوجة سعيدة وأم لأربعة من الأولاد وعشرة من الأحفاد. صارحها الموسيقار بحبه القديم لها. أدهشها ذلك. فلم تكن تعرف أنه قد أحبها.. واعترفت له أنها لم تلبس في حياتها حذاءً أحمر!

وانحنى الموسيقار أمامها واستأذنها في أن يقبل يديها وخرج ووقف أمام الباب يبكي!

أما الموسيقار يوهانس برامز (١٨٣٣ - ١٨٩٥) فقد كان موهبة فريدة في العزف على البيانو.. رآه وسمعه الموسيقار روبرت شومان (١٨١٠ - ١٨٥٦) فيصفق له واقفاً، وطلب إلى زوجته كلارا أن ترى العجب. وقال: هكذا يكون العزف السماوي على البيانو.. انظري وانتظري هذا الشاب!

وعاش برامز في بيت الموسيقار شومان واحداً من هذه الأسرة

الفنية . ودخل شومان مستشفى الأمراض العقلية . وظل برامز إلى جوار زوجة الموسيقار . . وكانت تعطف عليه وتشجعه فأحبها وراح يتابعها في كل مكان . ولم يقترب منها . احتراماً للموسيقار شومان . . وبعد وفاته لم يفكر في الزواج منها . واستغرق هذا الحب النويل الشريف الأليم أربعين عاماً . وكان ذلك هو حبه الوحيد .

وفي أحد الأيام قال للسيدة كلارا شومان : الآن يجب أن ننفصل . . لك طريق ولي طريق . . وسوف أعود إلى الشارع الذي جئت منه وإلى الغانيات . . فمع الغانيات وجدت حريقي وراحتي . . ومعهن لا يوجد شيء اسمه العيب أو الحرام . . أو الخوف . . سوف أعود إلى الفن الذي حرمت منه ، وسوف تكون ذكراك هي النور الوحيد وسط هذا الظلام . . اعذريني لا أستطيع أن أكون معجباً بزواجك المريض ، وخائناً في نفس الوقت !

وفي ليلة من ليالي الربيع ، والزهور في كل شجرة ، في كل طريق في كل نافذة ، جمع الموسيقار باقة كبيرة ودق أحد الأبواب . وخرجت إحدى البغايا . ولم تكذ تراه حتى قالت : أنت؟ تعالى . . ادخل . . أيها المفلس المجنون !

ولم نعرف في تاريخ الموسيقى فناً عظيماً كره المرأة واحتقرها واحتقر نفسه في أحضانها مثل الموسيقار شومان (١٨١٠ - ١٨٤٩) . كان يرى كل امرأة كأنها أمه أو أخته . . ولذلك فالاقتراب منها

حرام . . ولأنه حرام فهو لا يشعر بأية رغبة . ولا يقرب المرأة إلا مكرهاً مرغماً .

وقد أضاف الخوف من المرأة إلى كراهيتها واحتقارها، عندما أصيب بالزهري .

ولكن الأدبية الفرنسية جورج صاند قد طاردته وقطعت عليه الطرق وعلمته الأفيون . . وكان يندهش كيف أن هذه امرأة . يقول : أشك في أنها امرأة . بل هي أكثر رجولة مني !

وقد دامت العلاقة بينهما تسع سنوات هي تطارده وهو يزداد احتقاراً لها ولكل بنات جنسها . .

وكانت ابنة جورج صاند تصفه بقولها : شوبان الذي لا جنس له ولا جنس معه ! وكان وسيم الوجه ، شاحباً رقيقاً ، وكانت النساء يعشقنه لهذه الرقة والنعومة .

ولعظمته الموسيقية . . ولكن عندما أصيب بالسل وراح ينزف دماً ، ابتعدت عنه النساء تماماً . يقول في مذكراته : أنا ابتعدت عن المرأة ، وأنا في كامل قوتي ولكن كان لا بد أن أصاب بالسل ، لتهرب المرأة مني . . فأنا الآن في وحدة تامة . . وهذا هو الوضع المثالي لكل فنان يريد أن يبدع ! وليس صحيحاً أن المرأة هي مصدر الوحي ، وإنما احتقارها هو مصدر الإلهام . . فاحتقرها تعش عظيماً !

وبعد وفاته اكتشفوا بأنه يحتفظ بين أوراقه بحذاء صغير . . إنه

حذاء أول فتاة أحبها، وكانت في الثانية عشرة. . وقد تركت له هذا الحذاء واختفت مع رجل آخر. . وكان يخرج الحذاء من أوراقه ويصب فيه الشمبانيا ويشرب ويرفعه إلى أعلى من رأسه قائلاً: في صحتك يا أجمل الناس وأكثرهن كذباً وخداعاً. . أنتن جميعاً كذلك!

أما عبقري العباقرة موتسارت (١٧٥٦ - ١٧٩١) وأعظم مؤلفي الموسيقى وأرقهم وأكثرهم «حرفة»، فقد وجد نفسه محاطاً بالنساء منذ طفولته، وكلهن يداعبنه ويقبلنه ويعانقنه. . وكان موتسارت يحب ذلك. وكل فتاة قابلها وعدها بالزواج عندما يكبر. . لقد وعد مائة فتاة.

أول فتاة كان اسمها ألويسا وكان في العشرين من عمره، اتفق معها على الزواج وكانت أمها هي التي استدرجته إلى هذه النهاية. ولما علم أبوه، استدعاه فوراً. وأمره بالإقلاع عن هذا العبث. فالزواج للإنسان العادي، أما العباقرة فهم مثل آلهة الإغريق لا يتزوجون!

وأحب أختها كونستانسة عندما قررت ألويسا أن تتزوج مدرّساً مغموراً. . وحاصرت أمها مرة أخرى. . تقول الأم: الناس يتهامسون. فأنت تدخل وتخرج. وتجيء في ساعات متأخرة.

لا بد من الزواج!

وتزوجها. . هو في السادسة والعشرين وهي في التاسعة عشرة. وأنجبت له ستة أولاد، عاش اثنان.

وكانت حياتها سعيدة.

وكان الذي يعذّبها ليلاً ونهاراً، أنه يطلب إليها أن تجلس إلى جواره وتقول أي شيء. . أية قصة. . وهو غارق في التأليف، وكانت تروي القصة الواحدة عشر مرات. فإذا غيّرت فيها، ينبهها إلى ذلك. . وكان عليها أن تقول وتقول مهما كانت متعبة.

وفي يوم زارهما أحد ناشري الموسيقى فوجدهما يرقصان بعد منتصف الليل. وأدهشه ذلك. ولكن عندما عرف السبب زادت دهشته. فقد كانا يرقصان طلباً للدفع فلم يكن لدى الموسيقار مال يشتري به خشباً يضعه في المدفأة!

وكان هذا الموسيقار العظيم يستخدم الألفاظ النابية جداً في رسائله لأصدقائه ولزوجته أيضاً. وكان له مزاج شاذ في وصف ما يفعله بالضبط وبالتفصيل في دورة المياه، كيف يجلس وماذا يحدث. . ويصف الأصوات التي تخرج منه. . ثم يقارن بين ما حدث في دورة المياه في الأيام الماضية. . وأحياناً في الشهور والسنوات السابقة. . وكيف أنه يتمنى أن يفعل ذلك على وجوه النبلاء والأمراء. . ويصف ذلك بالتفصيل ثم يضحك للصورة التي يتخيلها!..

أما الموسيقار فاجنر (١٨١٣ - ١٨٨٣) فقد أحب المرأة وهو ما يزال طفلاً. وكان يتظاهر بالنوم لكي تحمله الخادمة إلى فراشه. وينتهز الفرصة ليلمسها.

وقد امتلأت حياته بالنساء. ولكن رجلاً واحداً أحبه ووقع مغرماً به: إنه الأمبراطور لودفيك الثاني ملك بافاريا!

ولكن رجال الحاشية والأسرة المالكة أبعدوا هذا العبقرى الشاذ عن الملك بعد أن استولى على كل قرار يتخذه.

وفي الخمسين من عمره تزوج كوزيما ابنة الموسيقار فرانتس ليست، وكانت قبل ذلك زوجة لأحد أصدقائه.

يقول فاجنر: إن المرأة وحدها أقدر على فهم الرجل، وأكثر رعاية لموهبته الفنية وأكثر احتمالاً لشطحاته. وهي بذلك تتسم بالصبر الضروري للإبداع الفني.

وقد عاش الموسيقار فاجنر يناهز بضرورة أن يكون الفنان في حالة حب دائم وإخلاص ملتهب - هو يخلص لها وهي تخلص أيضاً. وبغير هذه العاطفة الملهبة فإن الموهبة الفنية تموت.

يقول في مذكراته: إن الحب الهادئ، يجعل منك زوجاً، ولكنه لا يساعدك على أن تكون عبقرياً مجنوناً. وكل امرأة تحاول أن تحطم أظافر وأنياب الفنان هي تريده أن يكون مخالفاً لطبيعته الوحشية. فإذا كان الفنان مجنوناً، فيجب أن تكون محبوبته

كذلك . . وهذا سر عذاب كل الفنانين ، لأن كل امرأة تصادفهم تحاول أن تجعل منهم أناساً عاديين . . وهذا هو طغيان المرأة التافهة ، ولذلك كان فرار الفنان أمراً محتوماً .

ويقول : يخطيء من ينظن أن الفنان فوضوي . إنه يخضع لقواعد العبقرية وهي صارمة دقيقة عنيفة . ولكنه البركان الذي تخرج منه السيول الملتهبة . . فهو يغلي ويتفجر في أعماقه . ونحن لا نلوم البراكين لأنها لا تهدأ ، ولا نعيب الرياح لأنها لا تسكن ، ولا نحترق المطر لأنه هابط دائماً ، ولا نصفق للبخار لأنه صاعد دائماً . . فهذه طبيعة الأشياء ، وأمامها يجب أن ننحني في احترام عظيم ! !

«آه يا زينب !» .

جاءت هذه العبارة في خطاب بعث به الموسيقار الإيطالي فردي (١٨١٣ - ١٩٠١) . أما زينب هذه فقد رآها الموسيقار في إحدى الحفلات التي أقامها الخديوي اسماعيل . ويقال أنها ابنة أحد الباشوات . ويقال زوجته . ويقال عشيقة تركية ، تتكلم الإيطالية والألمانية والفرنسية والقليل من اللغة العربية .

استمع الموسيقار فردي إلى صوتها وهي تغني أحد ألحانه . ثم اقترحت عليه تعديلاً في الأداء . ورأى أن هذا التعديل أجمل ، وظل الموسيقار يرجوها أن تغني وأن تعيد وتزيد ، ولما أحسّت زينب هذه أن الموسيقار مفتون بها جعلت تغني ألحاناً أوبرالية لغيره من كبار المؤلفين ، وقد ضايقه ذلك . فأصرت . وأسرف فردي في الشراب

وتوسل إليها أن ترافقه إلى بيته . ولكنها رفضت . وطلبت أن يشهر إسلامه . فقال لها ولكني لا أريد أن أتزوجك .

فقالت : وإنما أردت أن أرفضك بعد أن تسلم أيضاً .

قال : لا أفهم .

قالت : إنني أرفضك بكل دين !

قال : لماذا ؟

قالت : إذا كنت موسيقاراً عظيماً ، فلست محباً عظيماً ، فالذي تريده مني في استطاعتك أن تجده على الرصيف . ولكن الذي أريده من أي رجل ، هو شيء نادر ، إن الله قد عذبنا بالرجال . .

— ولكنه عذبك وحدك . . فأنت لا تريدين رجلاً أنت تريدين نصف إله .

— الرجل الذي أحبه سوف أجعل منه نصف إله ، ليجعل مني إلهة كاملة !

— إنك تذكريني بفتاة كنت أعرفها في شبابي . .

— إنني لا أشعر باحترام للرجل الذي يراني ولا يراني . . يراني فيتذكر امرأة أخرى . . إنني أحب الرجل الذي يرى كل النساء في امرأة واحدة هي أنا . . أحترم الرجل الذي يراني نهاية كل شيء . . ولست أنت ذلك الرجل !

— هل تعلمين أنك لست جميلة .

— هل تعلم أنك لست ذكياً .

— أعلم .

— وأنا أعلم أنني جميلة .
— هل تعلم أنني صبورة .
— لا أعرف .
— يجب أن تعرف أن المرأة التي تحتل حواراً سخيلاً كهذا ، لا بد أن يكون نصف فضائلها : الصبر على المكاره !
وحتى موت الموسيقار الإيطالي جيسي فردي ، لم ينس «زينب»
هذه . . . لم ينس المرأة التي رفضته وهو في قمة العظمة . . ولم ينس
اللحظة التي أوشك أن يعترف لها بالحب . . لولا أن هذا الحب جاء
في زفة من الإهانات الأليمة . . أما عباقرة الرسم والنحت ، فلهم
مزاج من نوع آخر !

آه . . لو كانت تحتقره قليلاً؟!

بعد أن عقد زواجه عليها قال لها : هذه حكمة حياتي كلها : لا
تجعليني أتذكر لحظة واحدة أننا متزوجان!

ولم تفهم العروس الصغيرة ما الذي كان يقصده الفنان
العظيم بيكاسو . وكل ما تعرفه هو أنها جميلة جداً وأنه يحبها . وأنه
فضّلها على ألف فتاة في باريس وأنها سوف تكون ملهمته وأنها
سوف تكون خالدة في لوحاته وبفرشاته .

ولكنها لم تبق طويلاً في بيته . فقد طلقها ليتزوج غيرها . وفي
أذني غيرها قال نفس هذه العبارة المشهورة!

وليس بيكاسو (١٨٨١ - ١٩٧٣) وحده الذي يحب المرأة العاشقة، لا المرأة الزوجة وإنما كل الفنانين.. فحماس الفنان للمرأة هو حماس لاكتشاف معنى جديد، أو بشكل جديد. لا أكثر ولا أقل. فهم جميعاً مثل الفنان القديم بجماليون.. وبجماليون هو ذلك الفنان الإغريقي الذي صنع تمثالاً لامرأة جميلة من الرخام الأبيض الجميل.. وأحبه وجعله ينام إلى جواره في فراشه تحت غطاء واحد. وراح يبكي يطلب من الآلهة أن تهب الحياة لهذا التمثال الجميل. وكان الآلهة يمرّون بالفنان ويرثون لحاله. فإذا وجدوه عارياً غطّوه بريش الطيور، وإذا وجدوه جائعاً وضعوا الطعام في فمه. وإذا وجدوه عطشاناً صبّوا رحيق السحر بين شفتيه.. وأخيراً عطفت عليه آلهة الإغريق فجعلوا التمثال كائناً حياً.. فعندما قبله بجماليون، قبله التمثال أيضاً.. وطلب من الآلهة أن يساعده على الزواج من هذا المخلوق - المخلوق الذي صنعه هو - وفي زفة سماوية تزوج الفنان هذه العروس الجميلة. ولكن التمثال أو المرأة التمثال لا تعرف إلا القبلات وإلا الحب..

ولكنها لا تعرف كيف تتكلم . . وراح يعلمها الكلام . . ولا تعرف كيف تعبر فعلمها أن تعبر . . ولا تعرف كيف تلد وتربي الأطفال ولا تعرف كيف تطهو . .

فلما عرفت كل ذلك أحس الفنان أنها مثل أمه وأخته، فهرب منها!

وليس بين الفنانين جميعاً رجل أحب كثيراً وأبدع كثيراً مثل عبقرى القرن العشرين بابلو بيكاسو الذي ولد في ملقة بأسبانيا سنة ١٨٨١ . وهو يشبه أمه : قصير القامة عريض الكتفين له عينا سوداوان لامعتان . في غاية القوة والحيوية . . أو هو الشهية المفتوحة على كل جميل ، بغير حدود . عندما سافر إلى باريس سنة ١٩٠٠ ضاع . . تاه . . داخ . . ولكنه وجد نفسه تماماً . فهذا هو المكان المناسب لروحه المتشردة!

والتقى بأول فتاة في حياته . الفتاة اسمها فرناند . قابلها في البيت الصغير الذي يسكنه . طويلة أنيقة رشيقة . أما هو فكان يرتدي بنطلوناً واسعاً وقميصاً أصفر وأحمر وأخضر . . ويلف حول عنقه منديلاً أزرق . وكان يباهي بأن هذه الألوان من تصميمه هو . . وحول خصره يلف حزاماً عريضاً ، كأنه نجار أو سمكري . .

وكانت فرناند «موديلاً» لكثير من الفنانين . . أي تجلس عارية أو نصف عارية لكي يرسموها ولذلك ظهرت في لوحات كثيرة قبل

أن تظهر في لوحات وحياء بيكاسو. وبيكاسو رجل شرقي جداً، فلما توثقت علاقته بها، طلب إليها ألا تكون مودياً لغيره. . . وألا تبرح الغرفة أيضاً. فهي «حريم» لهذا «السلطان».

وفي يوم ضبطها تنظف الغرفة التي ينام فيها فصرخ مستنكراً. أما الغرفة ففيها بقايا كل شيء من الطعام والشراب والألوان والملابس والأدوات الخشبية والمعدنية. . . وكانت متعة بيكاسو أن يكوم كل هذه المخلفات بقدميه ويقف يتأمل هذا الخليط الهائل من الألوان والروائح. . . ويقول: آه لو أعرف كيف أرسم الروائح. . .

آه لو أعرف كيف أرسم الأصوات؟!

وكثيراً ما رسم لوحات للزهور بدون لون أبيض، فلم يكن قادراً على شرائه! وكان هو الذي يصمم ملابس فرناند، ويسوي شعرها. . . ثم يوقع بإمضائه على طرف الفستان. . . وبدأ أول تجاربه في الرسم التكميبي عندما رسم لوحة على ظهر فرناند!

وظهرت فتاة أخرى اسمها مارسيل، هي صديقة فرناند وانتقمت فرناند منه فهربت مع رسام آخر. وكانت فرصة لتصبح مارسيل هي العشيقة المفضلة. واتفقا على الحياة معاً. وعاشا معاً. وعادت فرناند، وكانت عودتها متأخرة جداً. . . وظلت تحبه إلى أن ماتت سنة ١٩٦٦. ولما ماتت وجدوا في ملابسها امرأة على شكل قلب كان هدية من بيكاسو.

ومارسيل هذه هي أول امرأة أحبها، وأطلق عليها اسم «حواء» وهي صاحبة كل اللوحات التي جعل أسماءها: إلى حواء.. وداعاً حواء.. سلامة حواء.. لعنة حواء..

وماتت سنة ١٩١٦ ومات أبوه أيضاً. وأصدقائه تطوعوا في الحرب العالمية الأولى. وظل قابلاً في غرفته، يحب ويرسم ويلعن الحرب.

وانتقل إلى إبداع لوحات على مسارح الباليه. وعرف الراقصة الروسية أولجا.. وأخذها إلى والدته في أسبانيا. وتزوجها هناك. وصارحتها الأم: أنت جميلة يا ابنتي.. ولكن ابني فوضوي.. لا أضمن لك السعادة معه. حاولي أن تهربي.. فهو فنان مجنون لو استطاع أن يملأ فرشاته من دمك لفعل.. فاللوحة عنده أهم منك.. وأهم من كل الناس!

وتفجرت الألوان من أصابعه، وامتلأت اللوحات بصور الباليه وموسيقى الباليه.. وملأت «أولجا» دنياه كلها..

وكان يطلب إليها ألا ترتدي ملابسها إذا نامت إلى جواره صيفاً وشتاء.. لماذا؟ كان يقول لها: أريد أن أرسمك في أية لحظة من الليل والنهار.. ولذلك يجب أن تكوني جاهزة!

وأنجبت له أول أولاده باولو سنة ١٩٢١..

وفي سنة ١٩٢٢ طفت على فرشاته الأشكال السريالية فبدأ

يرسم الأجسام المشوهة، والإنسان له رأسان، وله سيقان مكسورة والعين الواحدة والأذن الواحدة والأنفان الثلاثة .

وبدأ الخلاف شديداً بينهما، هي تحب الحياة الأرستقراطية . .
فقد ملّت الرقص، والحركة العنيفة على المسرح، وضافت بالتنقل من مكان إلى مكان، وأرادت الاستقرار التام، وهو يضيق بالاستقرار وبالارستقراطية، ويكره بأن يشعر لحظة بأنه زوج وأنه أب . .

وفي سنة ١٩٣١ صادف فتاة في السابعة عشرة طويلة شقراء سويسرية اسمها ماري تريز رياضية . هي الكمال في الخطوط والألوان والصحة والعافية . هي تمثال لا يهم أن يتكلم ولا أن يتألم .
مرحة تافهة على استعداد لأن تكون أمّاً ألف مرة . . أحبها . عاشت وظهر المرح في حياته ولوحاته . لم يشأ أن يقدمها لأصدقائه . فكانت كنزه الدفين .

وطلّق أولجا في سنة ١٩٣٥ بعد أن عاشت معه ١٧ عاماً .
وليس أسهل من قطع العلاقة بعد الزواج الطويل . فيكون الخلاف قد تأكّد . والاحتمال قد ضعف . والحياة هانت . ويكون الفنان الذي تقدمت به السن أقل استعداداً للتضحية بأي شيء وبأية لحظة ، لأن الوقت الباقي له في الحياة قليل ، وهو لا يريد أن يفسده أو يضحى به ، مهما كانت الأسباب . ولا شيء يجعل امرأة تهرب ، إلا امرأة أخرى أصغر منها وأجمل .

والذي لم يكن يجده في السويسرية وجدته في امرأة صحفية اسمها دورا . . جاءت لتكتب مقالاً عنه وتخرج وفي يدها بعض لوحاته . فدخلت ولم تخرج . فقد أبقاها الفنان واستولت عليه تماماً . . فعندها قصص وحكايات كأنها شهرزاد وهو شهريار يسمع وينام ويرسم . . فهي على عكس العشيقة السويسرية التي لا تتكلم ، وإنما تجلس جميلة وتنتظر . ولكن دورا هذه قد هزت حياته ، وأشعلت الغليان في ألوانه ومعانيه . .

وفي ذلك الوقت وقع حادثان هامان جداً . الحادث الأول : الحرب الأهلية في أسبانيا سنة ١٩٣٦ والحادث الثاني : نجاح الفاشية والنازية وطغيان الفرد الذي أدى إلى اشتعال الحرب العالمية الثانية . . ثم وقوف هتلر وموسوليني إلى جوار فرانكو في أسبانيا . وفي ذلك الوقت هاجمت قوات فرانكو مدينة «جورنيكا» الصغيرة . . فما كان من بيكاسو إلا أن سجل الأحداث في لوحة أطلق عليها اسم «جورنيكا» - هي أكبر لوحة رسمها فنان في التاريخ . هذه اللوحة انتقلت من أوروبا إلى أمريكا ومن أمريكا عادت إلى أوروبا إلى أسبانيا لتستقر في أعظم متاحفها ، كأعظم عمل فاز به فنان أحب السلام واستنكر الحرب . فالفنان حيوان سياسي أيضاً ، له أعداء يجب أن يحاربهم بالقرشاة والإزميل حتى الموت !

وفي سنة ١٩٤٣ التقى بالرسامة فرانسواز جيلو وكانت في

العشرين من عمرها . جميلة طائشة وعاشت معه . وطلب بيكاسو من عشيقته الصحفية أن تعلن لعشيقته الجديدة أن العلاقة بينهما قد انتهت . وأنجبت له فرانسواز إبنه كلود سنة ١٩٤٧ وابنته بالوما سنة ١٩٤٩ . وكان في ذلك الوقت يرسم مائة لوحة في اليوم . وأصبح بيكاسو مليونيراً .

وفجأة ظهرت زوجته أولجا الروسية وراحت تطارده في كل مكان . . في الحفلات العامة وعلى الشواطىء . . وتنتهز كل مناسبة لتخلع ملابسها . . وتكشف للناس عن لوحات رسمها على ظهرها وعلى ساقها ، ولم تشأ هي أن تمسح هذه اللوحات وتقول : إن لوحاته الأعمق كانت في قلبها وفي ذكرياتها !

وكانت تقول : إنك ما تزال زوجي أمام القانون الأسباني !

وفي سنة ١٩٥٣ هربت منه فرانسواز لتكون لها حياة خاصة مع إبنها وابنتها . .

وظهر بيكاسو في ميادين مصارعة الثيران مع فتاة سمراء اللون هي جاكين . . سيدة مطلقة ولها ابنة عمرها ست سنوات .

وكانت جاكين هذه هي التي تدير بيته وعلاقته المالية وتنظم له الحفلات والمعارض والمقابلات وترد على خطاباتاته وفي عيد ميلاده الرابع والسبعين وقف على إحدى المناضد وراح يراقص جاكين وأعلن زواجه منها . . وكانت هي آخر علاقاته العاطفية !

يقول بيكاسو : كان صراعي كله من أجل ألا يموت الفن !

يقول: الفن ليس هو الحقيقة. الفن هو الكذب الذي يجعلنا نفهم الحقيقة!

ويقول: الفن الجيد مثل الطعام الجيد، تتذوقه ولا تستطيع أن تشرحه!

ثم يقول: عندما لا تجد نفسك قادراً على الرسم، ارسماً أيضاً!

أما الرسام الفرنسي جوجان فهو يقول: الفن هو المرأة العارية. أما المرأة التي ترتدي ملابسها فهي لوحة أخرى من صنع التزيين وليس لديها إحساس بالجمال!

ولذلك هرب جوجان (١٨٤٥ - ١٩٠٣) إلى جزر تهايتي في المحيط الهادئ حيث الفتيات «في لون اللحم البركانية، وحيث الدماء تغلي بالجنس، وحيث المرأة ترضى من الرجل بأن يلمس شعرها ويعترف بأبوتها لأولادها» - هكذا يقول جوجان.

ولذلك فالفنان الحقيقي هو العاشق فقط..

فالفنان يعشق ولكنه لا يتزوج. والمرأة في جزر تهايتي تعشق فقط.

وفي أوروبا يجيء الحب قبل الجنس، وفي آسيا يجيء الحب بعد الجنس!

وكان جوجان قد أحب مدرسة تركية وأنجب منها خمسة من الأولاد. ولم يفلح في إقناعها بأن تهرب معه من أوروبا إلى آسيا. وكانت عندها حجة مقنعة: إنني مثل أوروبا التي تريد أن تهرب منها. . ولذلك فأنا أفضل أن أكون أماً لأولادك على أن أكون أماً لأولاد عشيقاتك!

وفي الجزيرة أحب فتاة عمرها ستة عشر عاماً. وعاشت معه. ولكنها هربت مع رجل آخر. وتزوجته وظهرت عليه أعراض مرض الزهري. وامتلاً جسمه بالبثور. وهربت الفتيات منه. وأنجب ولداً حاول أن يكون رساماً، ولم يفلح حتى مات سنة ١٩٨٠. ولم تظهر عبقرية جوجان إلا قبيل وفاته عندما ترك في الجزيرة مئات اللوحات في كل مكان. . وقد نقش لوحاته على الشجر، وعلى الأكواخ. . وعلى سفوح الجبال. . ثم أقام معرضاً فنياً هو الأول من نوعه في التاريخ. فقد أتى بعشرين فتاة ورسم لوحاته على ظهورهن وبطونهن. . وجعل الفتيات يتقلبن يميناً وشمالاً أمام الضيوف. ولكن هذا المعرض الحي قد ذاب في المحيط عندما شعرت الفتيات بأن الألوان تلسعنهن وتجعلن يهرشن. . فخافت الفتيات أن تكون هذه هي أعراض المرض الذي يشكو منه جوجان!

يقول جوجان: إذا كان الحب لعنة تصيب القلب، فإن الفن لعنة تصيب القلب والعقل معاً.

ويقول أيضاً: العاشق فنان ملعون. والفنان عاشق مجنون.

وأنها اللعنة والحب والجنون ! .

وإذا كان الفنان يحب التغيير، تغيير المناظر والألوان والأضواء والأشخاص، فإن فناناً واحداً تمنى من الله صديقة واحدة . . زوجة واحدة . واحدة وبعدها يموت . فقد تعب من الدوران في الشوارع والدق على الأبواب، والأبواب التي تصده إذا عرفته إحدى الفتيات البغايا . . ذلك الفنان هو الهولندي فان جوخ (١٨٥٣ - ١٨٩٠) . لم يعرف إلا بنات الليل . ولم يجلس إلا على الأرصفة ولم يذق طعم الحلال . . وتنقل بين البلاد وبين المهن وبين القلوب والعقول . وحرار قلبه وخارت قواه . ولم يصدق المرأة، ولم تصدقه المرأة . ولكنه لم يكذب قط . وفي إحدى المرات قطع أذنه وبعث بها إلى إحدى الفتيات، ليؤكد لها صدق مشاعره . وألقت المرأة بأذنه للقطعة . وطارد القطعة .

وأصيب بنوبات جنونية ودخل مستشفى الأمراض العقلية ثم أطلق على نفسه الرصاص . ولم يعرف أحد عبقرية فان جوخ إلا بعد وفاته . .

• تقول إحدى بنات الليل في مذكراتها: هذا الفنان المجنون كان يضحكني كثيراً . فهو يجيء في الليل يدق الباب وأكون مشغولة . فأطل إليه من النافذة وأطلب إليه أن ينتظرنى بعض الوقت . وأكون مرهقة جداً . فأطلب إليه أن ينتظرنى حتى أصبح من النوم . وأصبح من النوم فأجده قد صنع لي القهوة وغسل ملابسي وكنس

الأرض وأطعم الكلب والقطة واشترى زهوراً من السوق. ويفتح الباب للزبون الجديد. وأطلب إليه أن ينتظرنى حتى يخرج الزبون وينتظر وأنساه.

وفي يوم من الأيام وجدته ميتاً. . يحلم بإمرأة واحدة مخلصة تكون زوجة لرجل مخلص!

كان شعار الرسام الهولندي رمبرانت (١٦٠٦ - ١٦٦٩): أنت لا تعزف الحرية إلا إذا دخلت السجن. . لا تعرف الصحة إلا وأنت على فراش المرض. . لا تعرف الحب إلا إذا تزوجت. ولذلك تزوج أولاً. وماتت زوجته وهي في الثلاثين وتركت مالا كثيراً. واشترطت أن يكون هذا المال له، إلا إذا تزوج. ولم يتزوج: وإنما أحب ممرضة. ومن بعدها خادمتها. . ومن بعدها زوجة لأحد الأغنياء. ثم تزوج وكان لا بد أن يبيع النصب الرخامي على قبر زوجته الأولى لكي ينفق على زوجته الثانية.

يقول: أكره في الدنيا شيئين: رائحة المستشفيات وعطور المرأة. . وأحب في الدنيا شيئين: الطين في الحقول والعرق. . وقد صدمت الناس لوحاته العارية. . فقد كان الرجل هادئاً وقوراً. . وكان حزيناً. وكان الناس يسخرون منه قائلين: إن هذه اللوحات رسمها بأنفه! يقصدون أنه يحب رائحة الزيت ورائحة العرق. . وأن

الملابس تخفي عنه كل ذلك . . ولهذا فهو ينزع الملابس ويجعل أنفه أقرب إلى اللوحة .

وأخر كلمات رمبرانت : تمنيت أن أعرف طعم الحرية . رأيتهأ لمستها ولكني لم أذقها . . ولن يتسع عمري لذلك !

ولم يتسع عمره . فقد مات قبل أن يكمل عبارة أخرى تقول : لو نمت الليل عشرين ساعة وصحوت فسوف . . .

« لا أعتقد أنني إنسان محترم . ولو كنت محترماً لقلت لهذه السيدة : أنت أيضاً لا تستحقين الاحترام ، فأنت كاذبة ، وأنت تجدين متعة في عذاب الآخرين ، وتجدين متعة أكبر في احتقارك لي . ثم أنني فعلاً أستحق هذا الاحتقار لأنني رضيت به . بل إنني سجلته على اللوحات . ورضيت أن أجلس أمامك ساعات لكي أعتقل بفرشاتي ابتسامة لك فيها الكثير من التعالي والنفاق . . أنت مجرمة يا سيدي وأنا ضحيتك الذليلة . . إخلعي حذاءك واضربييني به ألف مرة على أنفي . . أرجوك . . » .

ذلك هو الفنان الإسباني جويا (١٧٤٦ - ١٨٢٨) . وهو يمثل طرازاً من الفنانين يجدون اللذة في العذاب ، والاحترام في احتقار المرأة لهم ، والكرامة في الهوان ، والمكان الطبيعي لرؤوسهم هو تحت أحذية المرأة الأرستقراطية التي تطلب إليه أن يكون خادماً عبداً ذليلاً لأهوائها ونزواتها . .

وقد أحبته دوقة ألبا . . ولم تصارحه بذلك . . وطلبت إليه أن

يرسمها . . وجهها . . ثم عنقها . . ثم نصفها . . ثم طلبت إليه أن يرسمها عارية . . وهي التي كشفت له عن جسمها قطعة قطعة فإذا عرت قطعة غطت بقية الجسم . . فلم ير جسمها كاملاً مرة واحدة ! ولما أكمل رسمها طردته من حياتها، وهربت !

فتقدمت له إحدى خادمت الدوقة تقول له أنها رأته وهو يرسم سيدتها . وهي تعرف بالضبط ما الذي يعجبه فيها وتؤكد له أن جسمها أجمل، وقلبها أصدق، وخيالها أوسع . . وأنها أذكى من سيدتها، فقد كانت هي التي تدبر شؤونها وتدبر حياتها كلها . . ثم خلعت ملابسها، ودارت حول نفسها وحوله . ورأى في عينها إعجاباً شديداً . وهز الفنان رأسه قائلاً: أروع وأجمل وأكثر شباباً . . ولكنك - مع الأسف - تحترمينني أيتها الخادمة ! آه لو كنت تحترميني قليلاً !؟

يقول بيكاسو بالنيابة عن كل الفنانين: ليس صحيحاً أن الفن منطق . . إنه جنون الفرشاة والألوان . . ليس صحيحاً أن الفن صحة . . إنه مرض يصيب العبقرية . . ليس صحيحاً أن الحب أبدي . . إنه متجدد . . أو من الواجب أن يكون كذلك . . وإلا كان الفنان زبالاً في شوارع الجمال، حانوتياً في جنة الله، متسولاً أمام كنوز الحقيقة . . لو عشت ألف سنة لأحببت ألف امرأة ورسمت ألف ألف لوحة «وضاق وقتي لكي أوقع عليها بإمضائي !» .

علماء النفس ليست لهم نفس

أعرف طاهياً مصرياً، هو أشهر وأبرع الطهاة في العالم العربي. وأحب أن أتفرج عليه وهو يحوّل الدقيق واللحم إلى عشرين صنفاً. يعمل وحده. كأن له ألف عين وألف ألف أصبع. ثم أنه لا يضع في فمه لقمة واحدة. وإنما يفضل الخبز الجاف والجبن القديم على كل ما صنعت يده. . . ويترك المطبخ وكأنه في حالة إغماء، فيخرج من جيبه زجاجة نشادر ثم يتمشى على النيل وفي يده ساندوتش فول - إنه عالم وليس فناناً. إنه يعرف كل مكونات الأطعمة الفاخرة والمعقدة ولكنه لا يتذوقها ولا يشتهيها!

إنه مثل «النحل الشغال» يمتص رحيق الزهور ويفرز العسل ولا يتذوقه. وهذا النحل لا شيء يشغله عن صناعة هذا السحر. . لا حب ولا كره. . فالنحل الشغال لا جنس له - لا هو ذكر ولا هو أنثى!

أعرف تاجراً مشهوراً في طنطا صناعته حلاوة المولد. أقسم لي بالله العظيم ثلاثاً - وأنا أصدقه - إنه لم يذق هذه الحلاوة منذ أربعين عاماً. ولا يستطيع، ولو فعل لمات. لأنه مصاب بالسكر! فعلماء الحلوى لا يذوقونها، ولا يحبونها!

ثم هذه القصص الغريبة العجيبة لعلماء الجنس والحب والكراهية والزواج والطلاق وكل العقد والمخاوف.

أعظم علماء النفس جميعاً هو هافيلوك أليس (١٨٥٩ - ١٩٣٩). وهو صاحب الثورة الحقيقية في الدراسات الجنسية. وكتابه الشهير «دراسة في سيكولوجية الجنس» في سبعة مجلدات ألفها في ثلاثين عاماً، هو أوفى موسوعة جنسية كتبها أحد من الناس. وقد ولد هذا العالم الإنجليزي عليلًا. منطويًا. وليس عجيباً أن يطول جلوسه وساعات قراءاته وأن يكون مفكراً متأملاً. وكان خجولاً أيضاً. وكان خجله يغري الفتيات بأن يتجهمن عليه بالأسئلة، عندما كان مدرّساً في أستراليا.

أول كتاب له كان موضوعه «الانحراف الجنسي». وقد حرّمته الرقابة في بريطانيا. ورغم انتشار هذا الكتاب بعد ذلك، وكتب أخرى، فإن هذا العالم الجليل بقي منعزلاً جالساً وراء الأبواب يتأمل الناس دون أن يقترب منهم.

ومن رأي هذا العالم الكبير أن الطبيب النفسي يجب أن يساعد المرضى مجاناً، وقد استنكر أن يتقاضى علماء آخرون أجراً عن هذه المساعدة الإنسانية. فليس صحيحاً أن المريض هو الذي كسب الشفاء، ولكن العالم قد كسب الفهم أيضاً. فلماذا يكون المريض مديناً، ولا يكون الطبيب؟!

وكان زاهداً في الحياة، يكفيه من هذه الدنيا أن يقرأ وأن يناقش لعله يفهم، ثم يعبر. وما عدا ذلك من لذات الدنيا، فلا أهمية له.

لم يعرف امرأة حتى الخامسة والعشرين من عمره. والتي عرفها كان بالصدفة. فقد قرأ قصة لأديبة. فبعث إليها خطاباً يبيدي إعجابه بها، وبعثت له المؤلفة بخطاب، ثم التقيا وكانت المؤلفة جميلة مثيرة، وأحاطته المؤلفة بالرسائل والمقابلات واستدرجته إلى بيتها.

وأعجبت به إحدى تلميذاته. وطلبت أن تتزوجه. وهذا هو الحوار بينهما.

الطالبة: أحبك يا أستاذ.

الأستاذ: عقلي يصدق ذلك.

— أنا أعرف ما أقول.

— وأنا أعرف ذلك. ولكنك لا تعرفين ما الذي يمنعني من

زواجك.

— إنشغالك . أنا أعرف أن هذا أهم وأعظم من أنايتي .

— ليس هذا . .

— أعرف . إن رأيك في المرأة سيء جداً . ولكن سوف تجدني مختلفة عن كل النساء . فأنا تلميذتك . أحبك . وأحترمك . وأعلم قداسة المهمة العلمية التي تقوم بها من أجل الإنسانية . فسوف أكون تلميذتك وعشيقتك وزوجتك وخادمة ومادة علمية لك . .

— ولكن ليست عندي أية قدرة . مطلقاً . لم أشعر بشيء . ولن أفعل شيئاً مستقبلاً . صدقيني !

— شرف عظيم أن أتزوجك .

وتزوجا لمدة ٢٥ عاماً . وكانت حياة زوجية فاشلة عاصفة . وحاولت الزوجة الانتحار ثلاث مرات . وحاولت أن تشغل نفسها بالعمل . وبتأليف شركة سينمائية . وأنتجت أفلاماً . ثم أصابها الجنون عندما علمت أن زوجها قد تعلق بفتاة عمرها ٢٤ عاماً .

وفي سنة ١٩١٦ ماتت الزوجة عندما أصابها إغماء شديد - فقد أصيب بمرض السكر !

أما الزوجة الجديدة ، فقد كانت تدري عيوبه . وحاولت أن تشجعه وأن تخفف عنه . وأن تهوّن عليه . . وحدثت المعجزة . فلأول مرة وفي الستين من عمره ، يجد نفسه رجلاً !

ولكن هذه السعادة كانت قصيرة جداً . فقد عرف هافيلوك

أليس، أن زوجته على علاقة بأحد أصدقائه - هو الذي قدمه إليها قائلاً: عندما أكون مشغولاً حاولي أن تتسلي بالحديث إليه . .
وذهبت الزوجة إلى أبعد من التسلية، وظلت كذلك ٢٢ عاماً.
وقد توفيت الزوجة سنة ١٩٧٤ .

أما أبو التحليل النفسي: فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) فله مأساة أخرى. وفرويد هو الذي فسّر لنا الأمراض العقلية ودرس كل العقد النفسية واختار عقدة أوديب وعقدة الكترا وإرادة الموت .
إنه واحد من ثمانية أولاد. كان هو أحبهم إلى والديه . كان تلميذاً مجتهداً . ولم يكن متديناً، رغم أنه حريص على أن يكون عضواً بارزاً في جمعيات صهيونية، وقد درس الجهاز العصبي والأمراض وأثرها في الأعصاب وتعمّق في التنويم المغناطيسي واستخدم الكوكايين كمادة علاجية . .

وتزوج في الثلاثين من عمره . .
وعاش بعد ذلك أربعين عاماً حياة هادئة عائلية، محيطاً نفسه بعدد كبير من تلامذته النابهين .

وأحرق هتلر كتبه لأنه رأى في هذه الكتب نوعاً من «الفجور اليهودي» . وهاجر فرويد إلى لندن سنة ١٩٣٨ . وذلك بعد أن دفعت الأميرة اليونانية ماري بونايرت مبلغ ثلاثين ألف جنيه لألمانيا: ثمناً لحرية فرويد وسفره هو وأسرته إلى إنجلترا . .

ولكن فرويد أخفى عن الناس حياته الجنسية وعلاقاته المتنوعة. وفي المتحف البريطاني خطاباتهِ العاطفية والجنسية، ولن يكشف عنها الستار إلا في سنة ٢٠٠٠ - بناء على وصيته. وإن كان قد كتب لزوجته في سنوات الخطوبة مئات الصفحات الملتهبة. مثلاً يقول لها: عندما نلتقي سوف تعرفين أننا أقوى: الفتاة النحيفة التي لا تأكل، أو ذلك الوحش الآدمي الذي امتلأ دمه بالكوكايين!

هذه الزوجة قد تفرغت له تماماً. تعدّ له الطعام وتنظّف الحذاء، وتضع المعجون على الفرشاة. وأنجبت له ستة من الأولاد والبنات. وكان يصّر على تقبيلها رغم أن عشرين عملية جراحية قد أجريت له في شفّتيه بسبب الإصابة بمرض السرطان! ولم تكن الزوجة سعيدة..

ولم ينس فرويد أنه أحب فتاة عمرها ١٦ سنة. وتقدم لها. فرفضته. فاتجه فرويد إلى أمها، فطردته. فاتجه إلى أختها، فضرّبتة.

أما الحب الحقيقي عند فرويد فهو لأخت زوجته، كانت أجمّل. وأقدر على فهمه. وكانت تعمل سكرتيرة له. وتتنقل معه في أوروبا وفي أمريكا، واعترف لتلامذته بذلك.

وعندما سافر فرويد إلى أمريكا سقط في غرام المومسات. ورأى في ذلك النوع من النساء الخلاص الحقيقي لكل قيود الأسرة والدين والشرف!

وهذا العالم العظيم الذي جعل الجنس أساساً لكل تصرف إنساني وكل سلوك وكل فكرة وكل قرار وكل هروب من قرار وكل مرض، هو نفسه لا يجد لذة في الجنس العادي ولا الجنس الشاذ.. ومع ذلك كان يرغب زوجته على أن تقبله وأن تجد لذة في ذلك.. أي لذة في انعدام اللذة، أو في عذابه وتعذيبه!

وقد أدمن فرويد: الكوكايين.. وكان يرى أن الإدمان - إدمان أي شيء - نوع من تحقيق اللذة ذاتياً - أي دون أن يحتاج الإنسان إلى الآخرين. فكذلك الخمر والتدخين!

وكارل يونج (١٨٧٥ - ١٩٦١) عبّري «علم النفس التحليلي». سويسري ألماني. جاف غليظ ضخّم. طويل عريض. له حاجبان منكوشان دائماً. إذا تحدث إليك فأنت لا تعرف إن كان يريد أن يطلق عليك الرصاص أو يكتفي بالقائك من النافذة، مع أنه لا سبب هناك. ولكنه كان خشن العبارة. تزوج مبكراً.

وقضى معظم الوقت في الغابات يقطع الأخشاب، ويشعل الفرن، ويطهو. ويجد متعة كبرى في أن يدخل المطبخ ويرتب الأطباق ويضع الطعام للأسرة. وعندما ضبط زوجته تقرأ أحد كتب الطهي، خطف منها الكتاب وألقاه في النار بهدوء.

وكان من المعجبين بهتلر والنازية. ويرى أن اليهود يستحقون كل هذه الكراهية. فاليهود شعب مجنون. وجنونهم هو: العظمة.. فهم شعب مطرود مكروه من كل الدنيا، ويرون أن

الناس يكرهونهم حقداً عليهم ، لأنهم أغنى الناس وأعظم الناس .
ولذلك فهتلر يقوم بتأديبهم نيابة عن البشرية ؟

وعندما كان طفلاً اعتدى عليه رجل . ولم ينس هذه الحادثة
حتى موته . .

كثيراً ما تشاجر مع فرويد . وفي إحدى المرات أغمي على
فرويد . وحمله كارل يونج إلى سرير مجاور . وكتب كارل يونج في
مذكراته : إن فرويد عنده شذوذ جنسي ، لأن الإغماء في حضور
رجل هو استسلام له . .

وأحب كارل يونج فتاة ريفية ، ثم أحب طالبة أيام الدراسة
وكاد يتزوجها ، لولا أنه لاحظ أنها تحدثه كثيراً عن الحب
والجنس . . .

وأحبته طالبة أخرى وبعثت لزميلاتها بهذا الخطاب : قررت أن
أتزوج هذا الرجل ، وسوف أتزوجه . أعطوني مهلة شهراً واحداً !
وبعد شهر واحد كانت زوجته . .

وقد بدأ الخلاف بين العروسين على الفلوس . فمن رآيه أنه
يجب ألا يخلط بين فلوسها وفلوسه . واختلفا . وجاء محاسب قانوني
في شهر العسل يفصل بينهما . واستمر هذا الزواج خمسين عاماً !
وأنجبت له خمسة أولاد .

وطوال هذا الزواج حاولت فتاة إنجليزية صغيرة أن تقنعه

بطلاق زوجته ولم تفلح ، ولكن بقيت صديقة للعالم الكبير. وبعد وفاة الزوجة ، جاءت. وأقامت في بيته مديرة حياته ، وكان في الثمانين. وقال لها : لي شرط واحد.

قالت : أشرط يا أيها السيد!

— ألا ترعجيني وألا تجعليني أرى وجهك أو أسمع صوتك لأي سبب! ووافقت.

وفي آخر أيام كارل يونج كتب هذه النصيحة لواحد من تلاميذه : لكي ينجح زواجك ، لا تكن مخلصاً!

ولكن بعد وفاة هذا العالم الكبير، بدأنا نعرف كيف كانت حياته الزوجية، والعاطفية والجنسية. تقول زوجته : كأني أعيش مع إنسان آلي. . فالقبلات والأحضان مثل «طابور الصباح» في أية ثكنة عسكرية. . يقف كارل. . ويضع يديه إلى جواره. ويتقدم ناحيتي بخطوة منظمة ولا يرفع عينيه عن شفتي. . فأفهم أنه يريد قبلة. . ثم ينقل عينيه من شفتي إلى ذراعي ، فأفهم أنه يريدني أن أحتضنه فإذا جلس بعد ذلك على أحد المقاعد أمام السرير. . فالمعنى واضح. . وكأنه يستمع إلى صفارة حكم في مباراة. . واحد. . إثنين إلخ. . إن لم تكن هذه هي جهنم ، فكيف تكون!

أما مديرة البيت الإنجليزية فكانت تنظر إليه من ثقب الباب، فتجده جالساً معظم الوقت. . ثم يضع إصبعه في فمه، ويظل يمص إصبعه طوال الوقت. . وبعد ذلك يميل على كتفه العارية

يقبلها. . وأحياناً يضع أحمر الشفاه على كتفيه!

وتقول مديرة البيت وهي لا تفهم شيئاً: «طبعاً. . عبقري»!

حاول أن تفهم حياة هذه العالمة الجليلة من هذه العبارات التي جاءت في كتب لها:

أنت لا تعرف معنى الزواج إلا بعد الطلاق!

كثيرون لم يتوقعوا لزواجنا أن ينجح ، ولكني أحتفل الآن بمرور شهرين على هذا الرباط!

المرأة ليست أعدى أعداء الرجل ، ولكن من الممكن أن تكون وبسرعة ولأسباب تافهة!

الجنس مثل الفلوس : سخيف جداً أن تتحدث عنه كثيراً!

الخلافات بيننا عنيفة . لأننا نريد شيئين مختلفين : الرجل يريد المرأة ، والمرأة تريد الرجل!

شرف المرأة مثل البصلة : طبقة فوق طبقة فوق طبقة!

المثل الأعلى للأبوة : أن تكون طفلاً مع طفلك!

ما تقوله الأم لطفلها في المهد، سوف يبقى معه إلى اللحد!

هناك أمهات لا تكف عن القبلات، وأمهات لا تكف عن الصفعات، وأكثر الأمهات يفعلن الإثنين معاً!

لو كان من طبيعة الأب أن يعتني بأطفاله، ما صدرت كل هذه القوانين تفرض عليه ذلك!

من يداعب خد طفل، يداعب قلب أم!

ما دام في الدنيا أطفال يتعذبون، فليس في الدنيا حب!

الأم المثالية هي التي لم تلد ولكنها تبنت ثلاثة من الأطفال!

عندما تربي رجلاً فأنت تربي شخصاً واحداً، ولكن عندما تربي امرأة، فأنت تربي أسرة!

يجب أن تتناول بالتحليل هذه الرغبة الجنونية في زيادة النسل!

الرجل هو وسيلة المرأة للحصول على طفل!

من الصعب على أية أم أن تحب أطفالها ٢٤ ساعة من أي يوم!

كل إنسان هو شخص ممل جداً لإنسان آخر - تزوج وأنت نعرف!

الاحتفاظ بالجسم والروح معاً، ليس صعباً.. الصعب جداً أن تباعد بينهما!

المرأة تتزوج لأنها لا تريد أن تعمل!

هذه السيدة البريطانية ماري أستوبس (١٨٨٠ - ١٩٥٨). ولدت هي وأخواتها من زواج بلا جنس وبلا حب. فقد ولدتها أمها وهي في الأربعين من عمرها. وهي أيضاً تزوجت وبقيت خمس سنوات عذراء. وأعلنت في المحكمة عندما طلبت الطلاق: إنه الزوج!

وهزّ الزوج رأسه بأن هذا صحيح ويؤسفه ذلك!

وماري أستوبس تخصصت في النبات والحفريات النباتية ودراسة المناخ. ولكن بسبب الفشل المتراكم في حياة أمها وحياتها وبعض صديقاتها اتجهت إلى دراسة الأسرة والزواج والحب والجنس. وكان كتابها الأول «الزواج عن حب» وكتابها الثاني «الأبوة العاقلة»..

ثم اتجهت إلى تحديد النسل. وكانت أول من نادى بذلك. فأغضبت الكنيسة. وكل الهيئات النسائية. ولكنها أصرت على أن أسباب التعاسة العائلية هو أن أحداً لا يعرف كيف يحدد النسل.

وأن كثرة الأطفال مع نقص المال، محطّم للأسرة.. كما أن كثرة الحمل والولادة مرهق لصحة الأم. وأقامت أول عيادة لتحديد النسل. وأصدرت كتابها الكبير: «منع الحمل: نظرية وتاريخ وممارسة».

وكان زوجها الثاني أيضاً عاجزاً.

وتقول ماري أستوبس أن أول قبرة في حياتها عندما كانت في الرابعة والعشرين. أما الذي قبلها فهو طالب ياباني يكره التقبيل!

وفي حياتها الزوجية ظهر شاب ترجم أعمال تولستوي إلى اللغة الإنجليزية. وكان زوجها صاحب مصنع الطائرات يعطف عليه. وأفسح له مكاناً في البيت.. وأسعده أن زوجته سعيدة مع الشاب.. وفوجيء الزوج بأن العلاقة بين زوجته وهذا الشاب قد تطورت كثيراً. فكان الحب الذي لم تعرفه من قبل. وكان كل الذي حرّمته وهي شابة وهي زوجة.. فطرده من البيت!

تقول ماري أستوبس في مذكراتها أيضاً: كأنه القدر أراد أن يدفعني إلى أن أعرف مصدراً آخر لتعاسة الأسرة.. أن يكون أحدهما عاجزاً، وأن يكون كاذباً أيضاً، لماذا لا يتصارحان قبل وقوع الكارثة النفسية والعائلية؟!

تقول أيضاً: لم أفهم بالضبط ما الذي يقصده زوجي في أول لقاء لنا قبل الزواج: يجب أن ننام في سريرين منفصلين لأنني

أتنفس بصوت مرتفع . . وأنت رقيقة وسوف لا تذوقين طعم النوم .
ثم قال : إنني أؤمن بأن الأمراض كلها تنتقل بالقبلات . . ولذلك
عاشت القبائل البدائية في صحة جيدة لأنهم لا يعرفون القبلات . .
ولنما يتقاربون وتتلامس أنوفهم فقط . . لم أفهم . . ولا فهمت أيضاً
عندما قال لي في خطاب كنت أنتظره طويلاً : لو عرفت المرأة كم
يكون شكلها بشعاً عندما تكون حاملاً ، ما تزوجت امرأة قط . .
إننا نحن الرجال أسعد حظاً !

والفلاسفة ليسوا أحسن حالاً ، وإن كانوا يتظاهرون بغير
ذلك . . فلقد انشغلوا بحل مشاكل الدنيا ، ونسوا أن لهم مشكلة
تستحق الحل - وسوف نرى . .

لست فيلسوفاً طول الوقت!

حتى لو كنت ملكاً، فأنت لست ملكاً طول الوقت.. وأنت
تأكل وأنت تشرب وأنت تبكي وأنت تعاني من الإمساك
والإسهال.. وعندما يطلب إليك طفلك أن يركب ظهرك أو
تدخل معه تحت السرير تبحث عن كرة..

وشكسبير هو الذي قال: لا يكون الملك ملكاً أمام خادمه..
لأن الخادم رآه عارياً ورآه حافياً ومنكوشاً.. ولكن فقط عندما
يضع التاج ويجلس على العرش.. وهو لا يفعل ذلك إلا مرة كل
عام!

وكذلك الفيلسوف ليس فيلسوفاً في كل تصرفاته.. فهو
أحياناً حكيم، وأحياناً عبيط.. وأحياناً يحسبها بالمليم، وأحياناً لا
يعرف ما هو المليم.. وأحياناً يضع السماء والأرض والكائنات في
معادلة واحدة، وأحياناً لا يعرف جدول الضرب.. وهو مع المرأة
حيوان، وملاك.. ثم أنها لا تراه فيلسوفاً بل تراه مجنوناً!

لا أحد يعرف لماذا تزوج سقراط (٤٧٠ - ٣٩٩ ق.م) زوجته،
ولماذا هي زوجته. . فهو أعظم الفلاسفة، وهي امرأة عادية أو دون
ذلك. . فهي لم تكن تدري تماماً من هذا الرجل الذي تلقيه خارج
البيت، مع أنه لم يكن مخموراً. . فقط ليس عنده فلوس. . ولا من
هذا العبقرى الذي تلقي عليه بماء الغسيل، فيضحك. .

هل كان سقراط سعيداً بذلك؟ يقال أنه كان كذلك، فقد كان
مصعباً بالشذوذ الجنسي. هل كان تلامذته في مئات السنين سعداء؟
كانوا في غاية التعاسة إذ كيف يلقي أستاذ أساتذتهم هذا الهوان. .
ولكن سقراط كان يضرب المثل الأعلى في الصبر والتسامح وكيف
يمكن أن يكون الفيلسوف مضطهداً من الجهلاء والضعفاء أيضاً؟

ولم يكن الفيلسوف الألماني كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) عاجزاً
جنسياً عندما لم يتزوج، وعندما لم يجد صديقة واحدة، ولكنه كان
مشغولاً ببناء الكون. . فهو يضم مفردات الكون بعضها إلى
بعض، ليجعل منها بناءً هندسياً شائخاً. وقد استطاع. ولم يستطع
أي شيء آخر. وكانت حياته منظمة بالدقيقة والثانية. . وكما كان

يزن كل كلمة يقولها، كان يزن كل طعامه وشرابه وملابسه. . وفكر في الزواج مرة ثم نسي ما الذي يمكن أن يفعله. . وعاد إلى التفكير مرة أخرى. . وقرر أن يتزوج وعندما تلفت حوله لم يجد واحدة تناسبه. . ثم فكر مرة ثالثة وقرر واختار واحدة. . وفوجيء بأن هذه الواحدة قد ماتت قبل ذلك بعشرين عاماً. . وعدل نهائياً عن الفكرة والقرار والبحث عن واحدة بعد ذلك!

أما آخر الفلاسفة العظام في العصر الحديث فهو كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) فهو سلالة عدد من الحاخامات. ولكن والده أصر أن يجعله مسيحياً، تفادياً لمشكلة أن يكون الإنسان يهودياً في ذلك الوقت. ولم يكن ماركس متديناً في أي وقت. فمن رأيه: أن الدين أفيون الشعوب، وكان يكره الديانة اليهودية.

وفي السادسة من عمره أحب فتاة من النبلاء. وبعد ثماني سنوات تزوجها - أهله غاضبون من ذلك، وأهلها أشد غضباً لزواجها من مليونير عقلياً و«مديونير» مادياً!.

وقد أدت المقالات الثورية التي ينشرها في الصحف إلى طرده من ألمانيا وفرنسا وبلجيكا. فأتجه إلى النشاط السري في الحركة الاشتراكية العالمية.

وفي باريس التقى بصديق العمر رفيق الطريق زميل الكفاح: فريدريش إنجلز. وهما معاً قد كتبا «البيان الشيوعي» الشهير. .

وفي سنة ١٨٤٨ التقى ماركس وإنجلز في لندن . واستعدا معاً للرقصة الثانية - أي للثورة الثانية . ولكن خاب أملهما ، فالشعب الإنجليزي ليس من السهل إثارته أو قلبه على نظام الحكم في بلاده . .

وعاش ماركس على مقالاته القليلة . فقد كانت الفلوس هي مشكلة المشاكل في حياته حتى موته ، وبعد موته كان صديقه إنجلز ينفق على ما تبقى من أولاده ، فقد كان له سبعة أولاد ، عاش منهم ثلاث بنات ، انتحرت منها اثنتان . وقد علم ماركس أولاده أن يقفوا على الباب ليقولوا لكل دائن : مستر ماركس ليس هنا . . تعال غداً !

وأقام ماركس في المتحف البريطاني يجمع المادة العلمية لكتابه الضخم «رأس المال» .

ولم يكن ماركس في صحة جيدة قط . . فهو مرهق دائماً ، وعنده متاعب في الكبد وضعف في عينيه . ولكنه لم يتوقف لا عن القراءة ولا عن الكتابة . . وتمضي السنون لا يستحم ، ولذلك تغطي جسمه بالدمامل . وكان عصبياً من السهل إثارته لأي سبب تافه . وكان ينطق بمثل هذه العبارات احتجاجاً على أي شيء : سوف أحطّمه . . سوف أمشي بحذائي على رقبتك . . سوف أضيفه إلى أكوام زباله التاريخ !

ثم أطلق ماركس لحيته ليكون شبيهاً بزيوس كبير آلهة الإغريق

الذي يحتفظ بتمثاله في بيته . . وهو معجب به لأنه كبير الآلهة،
ولأنه لا يتعامل بالفلوس - لا يطلبها من أحد، ولا يطالبه بها أحد!

وتزوج الفتاة الوحيدة التي أحبها، وسافرا إلى سويسرا لقضاء
شهر العسل على نفقة أمها . . وفي الفندق تركا الفلوس على إحدى
المناضد، ليأخذ منها أي أحد إذا أراد؟!

ولما أنجبت له طفله الأول هربت به إلى ألمانيا وبعثت بخطاب
تقول فيه: لن أعود إليك فلا أريد مزيداً من الأطفال!

وكان ماركس يقول في خطاب لأحد أصدقائه: أنت لا تعرف
مدى العذاب الذي أشعر به وأنا أرى أطفال التعمساء، ودموع
زوجتي التي لا تنتهي . . إنني مستعد أن أقتلع أنياب الشيطان بحثاً
عن الرغبة!

ثم أحب خادمتها . كانت فلاحه جميلة هدية من حماته . .
وكانت تدير البيت وتمسك الحساب بيد من حديد . وكانت تلاعبه
الشطرنج وتتفوق عليه . وفي سنة ١٨٥١ أنجبت منه طفلاً وتركته
عند سيدة أخرى . ولم يعترف به ماركس . وقد قابل هذا الإبن مرة
واحدة عندما بلغ الثلاثين . وبقيت هذه الخادمة في البيت إلى ما بعد
وفاة زوجته . وبعد وفاته هودميت لتعمل في بيت صديقه إنجلز .

ثم أحب سيدة إيطالية غنية . . وأحب إحدى قريباته التي
تصغره بعشرين عاماً، والتي كانت إلى جواره عندما مات . . وكانت

آخر كلماته : عيناها خضراوان خطيرتان . .

وكان ماركس جافاً غليظاً خشناً . . وكان يجب استخدام الألفاظ النابية والنكت القبيحة ورغم كل ذلك كتب لزوجته يقول لها : صورتك أمامي . أقبلك من رأسك إلى قدميك . وأقول لك : أحبك . . إن في الدنيا نساء جميلات ، ولكن أين هن من جمالك . كل شيء في وجهك كل تجاعيد وجهك تعود بي إلى أجمل الذكريات معك .

أما فيلسوف الكلمة القوية والعبارة الجميلة والعنف نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) فقد ولد في أسرة محافظة . مات أبوه وهو في الرابعة من عمره فتركه لبيت كل من فيه نساء : أمه وخالته وأخته . وظهرت مواهبه الأدبية والفكرية مبكراً . وكان عليلاً ، وكان معذباً بأوجاعه المختلفة مدى الحياة : الصداق النصفي وضعف النظر .

وقد عين مدرساً في الجامعة ، ولكنه لم يستطع أن يقوم بهذه المهمة بسبب الصداق فاتفقت معه الجامعة على أن يمدها بالأبحاث ، وأن يتقاضى مكافأة سنوية على ذلك . .

وكان على خلاف دائم مع أمه وأخته . .

ومن أروع أعماله الفلسفية كتابه : هكذا قال زرادشت . . وفي هذا الكتاب أودع فلسفته كلها عن الإنسان والسوبر إنسان - أي

الإنسان الأعلى : القوي النبيل المؤمن المتشدد .

وفي سنة ١٨٨٩ عندما كان يمشي في شوارع روما رأى رجلاً يضرب حصاناً بالكرباج ضرباً مبرحاً ، فأغمي عليه . .

ثم عاش مجنوناً بعد ذلك ، حتى الموت !

وأكثر قصص الحب والغرام التي عرفناها عنه هي التي جاءت في كتاب له كتبه وهو في مستشفى الأمراض العقلية عندما تدفقت عبقريته بلا حدود . هذا الكتاب عنوانه «أختي وأنا» وقد احتفظ به أحد المرضى ولم ينشر إلا بعد وفاة نيتشه بخمسين عاماً .

وقد أحب زوجة الموسيقار فاجنر . .

وأحب فتاة هولندية قابلها في سويسرا ، وعندما تقدم للزواج منها رفضته . .

وقدم له الفيلسوف بول ري فتاة روسية اسمها سالومي أحبها آخرون غيره : العالم فرويد والشاعر ريلكه وهي فتاة ذكية . وحاول نيتشه أن يجعلها صديقة لأخته . . ولكن أخته غارت منها . . وأفسدت ما بينهما . وأخته هي التي أشاعت أن أخاها يكره اليهود ، وكانت سالومي يهودية . .

وفي الكتاب الذي ألفه في مستشفى الأمراض العقلية روى أنه كان يحب أخته . : وأن هذه العلاقة قديمة .

ولكن الموسيقار فاجنر فسر اضطرابات هذا الفيلسوف بأنها

بسبب الحرمان الجنسي والخجل الشديد .

يقول نيتشه : عرفت السعادة مع امرأتين : غانيتين . . وعرفت
التعاسة مع امرأتين إحداهما جميلة جداً ولكنها أختي ، والثانية ذكية
جداً رفضت الزواج مني : سالومي . .

أما أول علاقة جنسية فكانت مع سيدة عمرها ثلاثون عاماً
وكان هو في الخامسة عشرة . طلبت إليه أن يضربها بالكرباج أولاً . .
وأفزع ذلك !

أما أبو الثورة الفرنسية وأحد أنبيائها روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨)
فليس صحيحاً أنه عاجز جنسياً أو عاجز عن الحب عندما قال :
أرسلت أولادي إلى بيوت اللقطاء . .

والحقيقة أنه أنجب عدداً من الأولاد من زواج شرعي ، ولكنه
أرغم زوجته على أن توزعهم على بيوت اللقطاء . وفعلت . ولم نقرأ
أو نسمع عنهم بعد ذلك !

وهو فيلسوف إنسانية . فالإنسان طيب بفطرته . ولكن المدنية
أفسدته . والإنسان البدائي هو الإنسان النبيل . والناس ولدوا
أحراراً ، وبعد ذلك تفننوا في صناعة السلاسل والقيود . . والإنسان
لكي يضمن سلامه وأمانه ، لا بد أن يتعاقد مع غيره من الناس على
ذلك . فالعقد الاجتماعي ، أو التعاقد الاجتماعي ، شرط للسلام
والسلامة . .

ومع ذلك فقد كان قادراً على أن يخسر كل يوم صديقاً. لأنه كان عنيفاً وكان عصبياً. وكان متقلباً.

لم ينس حتى الموت أن أحد المدرسين قد ضربه على مؤخرته. كتب يقول: لم أكن أتصور أن هذا النوع من الضرب سوف يغير مسار حياتي. فلم أعد أجد لذة إلا في هذا النوع من العقاب..

يقول في اعترافاته: يجب أن أعرف واحدة، أحبها، وأركع عند قدميها. وتضربني على مؤخرتي، وأن أطلب إليها الصفح، فلا تصفح، ولا تكف عن ضربي!

أحب إحدى الفتيات وكتب لها يقول: أحبك ولن أتزوجك. تزوجي أنت وسأبقى على حبي لك..

ثم تزوجها بعد ٢٣ عاماً!

وكانت جميلة بلهاء لا تعرف الحساب ولا أيام الأسبوع ولا مبادئ هجاء الكلمات. وأنجب منها خمسة أولاد..

وأحب واحدة متزوجة ولها عشيق.. ومنها أصيب بالزهري الذي لازمه حتى موته. وكان يقبل «الأشياء» التي تملكها المحبوبة: مقعدها وملابسها وحذاءها ويحتفظ بين ملابسها الداخلية بملابسها..

واعترف بشذوذه الجنسي، فقد يجد المتعة الكبرى في أن يقف في مكان مظلم من الشارع، حتى إذا رأى عدداً من المارة نزع

بنطلونه واستدار للناس . . وإذا صرخوا، كانت هذه هي المتعة الكبرى!

وبعد وفاته عرف الأطباء بعض مشاكله: فقد كان يعاني انسداداً في الحالب والتهاباً في المسالك البولية مما جعل علاقاته الجنسية أليمة جداً!

أما فيلسوف التشاؤم في العصر الحديث فهو شوبنهاور (١٧٨٨ - ١٨٦٠)، وهو المسؤول وحده عن المرارة والظلام في حياة كثيرين من الأدباء والشعراء في القرنين التاسع عشر والعشرين. فهو قصير القامة دقيق الملامح كبير الرأس نافذ العينين. وهو دميم، عصبي، متقلب المزاج. إنه يجلس على نار تكويه ولا تشويه. ولذلك فكلماته لها لسع النار ووخز الإبر ومذاق السم، وكذلك أبوه الذي انتحر.

وأما أمه فقد كانت تغار من شهرته، وكانت لها اجتهادات أدبية، ولكنها لم تكن لامعة. كان لها صالون أدبي، يضم كل أدباء عصرها، إلا ابنها. وقد التقت به في إحدى المرات على السلم. دار الحوار بينهما عنيفاً، إنتهى بأن ركلت ابنها بالشلوت فقال عبارته المشهورة: سوف تعيشين وتموتين ولن يعرفك الناس إلا بأنك أُمي!

وهذا ما حدث .

وفي يوم عاد إلى البيت ليجد شاباً يقيم مع والدته. وضايقه

ذلك . وقال لها : أرجو أن تختاري بين أنايتك السافلة ، وبين
احترام ابنك لك !

فاختارت العشيق . وترك الفيلسوف البيت ، ولم يرها بعد
ذلك .

أحب إحدى الجميلات . ولكنها لم تكن قادرة على حب رجل
يحتقر المرأة ، ويحتقرها بصفة خاصة . سافر إلى إيطاليا ولما سئل عنها
قال : الخطيئة في هذه البلاد ألا تكون لك خطيئة !
يقول : الجنس قوة قاهرة تتسلط على كل شيء وتقهره . .

ويقول : المرأة هي أداة الطبيعة لاستمرار الحياة . .
ويقول : المرأة ذلك الحيوان القميء ضيق الكتفين ، عريض
الردفين ، طويل الشعر واللسان ، قصير النظر ، بليد الحس . . ذلك
الإنسان المشوه !

ويقول : كلما ازددت معرفة بالرجال كرهتهم ، كلما عرفت
النساء ازددت احتقاراً لهن . . كلما أحسست أنه لا بد من الزواج ،
تمسكت بكبريائي !

وفيلسوف الوجودية سارتر (١٩٠٥ - ١٩٨٠) ففي حياته حب
واحد استمر خمسين عاماً . فقد أحب زميلته في الجامعة الأدبية
سيمون دي بوفوار . واتفقا على أن يكون بينهما حب ، لا زواج .
وبعد ذلك أيضاً على أن يكون بينهما حب وأن تمتلئ حياته

بالأخريات، وحياتها بالآخرين. وتبقى الصداقة قوية كما هي. وأن يواجه كل منهما الملل والقرف، وأن يتخفف منه على النحو الذي يراه. ويبقى الحب كما هو.

وفي أول الأمر لم يستطيعا أن يتمسكا بهذه القاعدة. فعندما عرفت سيمون دي بوفوار أن فتاة روسية تعيش معه في برلين، سافرت وسألت الفتاة الروسية عن طبيعة هذه العلاقة. فأجابتها: بأنها مؤقتة!

هنا استراحت سيمون دي بوفوار وعادت إلى باريس، دون أن يعرف هو أنها قد سافرت من باريس إلى برلين، ولم يناقشها في هذه الحادثة.

ولكنها أيضاً عرفت رجالاً آخرين، ولم يعلق على ذلك..

وسارتر ابن ضابط بحري. مات أبوه بعد ولادته بسنة واحدة. وهو قصير القامة خجول دميم الشكل. ورغم سيطرة الأم عليه، فقد كانت له شخصية مستقلة قوية.

وفي الحرب العالمية الثانية كان يعمل في إدارة الأرصاد الجوية. واعتقله الألمان. وسجنوه. وخرج من السجن يقاوم الاحتلال الألماني.

وفي سنة ١٩٦٤ حصل على جائزة نوبل في الأدب. ورفضها قائلاً: إن هذه الجائزة إهانة له. فقد منحتهما له القوى الرجعية في

العالم . ومعنى ذلك أنه هو أيضاً رجعي . ولذلك رفضها، دفعاً لهذه التهمة عن فلسفته وعن شخصه . .

وأول لقاء له بصديقة العمر سيمون دي بوفوار كان سنة ١٩٢٩ ، وكانت مبهورة بعقليته الفذة . واتفقا على الحب بلا زواج . واتفقا على إنعاش هذه العلاقة بصداقات أخرى كثيرة .

وأحبت سيمون دي بوفوار كاتباً يهودياً فرنسياً . ولما جاء سارتر وسيمون إلى مصر ، كان معها عشيقها لانسمان رئيس تحرير مجلة «العصور الحديثة» . .

وتبنى سارتر فتاة يهودية جزائرية اسمها أرليت لاقيم ، وترك لها كل مؤلفاته . وكان في نيته أن يتزوجها حتى لا تتعب في جمع ثروته . ولكنه وجد في هذا الزواج إهانة لسيمون دي بوفوار بعد أن تركت عشيقها . ومنذ سنة ١٩٥٨ تفرغت تماماً لسارتر . وبقيت كذلك حتى موته . . وبعد وفاة سارتر ظهرت له ألوف الخطابات، جمعت في كتب ضخمة .

وفي أحد هذه الخطابات كتب لأديبة ناشئة يقول : آه . . لو تقدمت ثلاثين عاماً لوضعتك إلى جوار سيمون . . ورحت أقارن بينكما : أيكما أقدر على فهمي . . أيكما أقدر على احتمالي . . أيكما أخف وزناً على أعصابي . . أيكما أقل معارضة لسخافاتي . . أيكما ترعاني بشفتيها ، دون أن تضايقني بذراعيها . . أيكما تقرر في اللحظة الأولى عند رؤيتي : لو كان زوجي لطلقته . . ولو

طلّقه فلن أقوى' على الابتعاد عنه . . أيكما يربطني بخيط من الحرير
طوله ألف كيلومتر . . ثم لا يجعلني أشعر بذلك . . لا بالرباط ولا
بالحرير؟!

وفي رسالة أخرى يقول: نحن الفلاسفة متقلبون . فنحن نزهد
ما في أيدينا، ونحطم رؤوسنا بحثاً عن الذي ليس في أيدينا . ففي
يدي أن أحبك . . وأن أشجعك على أن تحبيني . . والذي ليس في
يدي هو أن أتخيل نوعاً من العدل الكاذب بعد وفاتي . . حين يقول
الناس: كان فيلسوفاً . . كان عظيماً . . ولكننا لم ندرك ذلك . . ولو
أدركنا لوضعناه فوق رؤوسنا، وأرحناه . . وجعلنا طعم الحياة على
لسانه أجمل وأمتع . . ومسحنا الضباب من طريقه، وأزلنا النساء من
فراشه إلا التي يختارها . . هذا هو العدل الكاذب الذي أتخيله، مع
أنه لم يحدث لأي فيلسوف من قبل، ولن يحدث . . ولكن هذا هو
مرض الفلاسفة الذين يتوهمون أن لهم عمراً بعد أعمارهم . .
ويتوهمون لو كانت لهم زوجة عاشقة، لفعلت ذلك نيابة عنهم . .
ولكن بالله لماذا لا تقتنع الزوجات بالعدل إلا بعد موته . . لماذا لا
يتحقق ذلك وهو على قيد الحياة . . إنها هي الأخرى مخدوعة
مرتين . . مخدوعة عندما تزوجت فيلسوفاً ومخدوعة عندما تخيلت أنها
قادرة على تحقيق العدل . . إن المرأة لا تكره العدل، إلا إذا كان في
صالحها . . والعدل الذي تراه هو أن يكون زوجها ظالماً!

تقول سيمون دي بوفوار: كنا نتشاجر كأننا زوجان، وكنا
نتصالح كأننا عشيقان . مرة واحدة اختلفت معه وقررت أن أترك له

البيت فوراً. ولكن سارتر أخجلني قائلاً: ولكننا في بيتك!
وفي فيلم تليفزيوني ظهرت السيدة سيمون دي بوفوا
في عينيها تقول: كان زواجنا أكبر من الحب، وكان حب
الزواج. كان سارتر فيلسوف خمسة أيام في الأسبوع، و
مشاكساً يوماً من كل أسبوع، وكان طفلاً في اليوم السابع
كان دائماً الحب الأول والأخير في حياتي!

أبطال الحرب .. أسرى الحب

إثنان في دنيا الحرب والحب ليس لهما نظير: بشر بن عوانة
العبيدي أحد شعراء الجاهلية .. ورومل: ثعلب الصحراء.

فكان بشر العبيدي يركب حصانه ويشهر سيفه وفجأة يظهر له
من بين الصخور أسد .. ويتهجم على الأسد ويضربه ويقتله
ويتمنى لو كانت «فاطمة» هناك لترى شجاعة وبسالة وتضحية
«بشر» من أجل نظرة من عيني المحبوبة ..

ويقول بشر العبيدي:

أفاطم لو شهدت بطن خبت

وقد لاقى الهزبر أخاك

إلخ ..

وبعض أبطال الحرب، صرعى الغرام.. فأبطال الحرب ليسوا
دائماً أبطال الحب.. إن القائد العسكري ليخوض في الجثث
والدماء، وينفض عن أذنيه صراخ الجنود وزئير الأسود، وصهيل
الخيول، وزججرة المدافع ثم ينام نوماً عميقاً.. ولكن عندما تموء هرة
المحبة، فإنه لا ينام، يتقلب على بساط من الشوك.. أليست قطة
ضعيفة لامست يدي المحبة وتمرّغت في أحضانها.. فهي - إذن -
أروع مخلوقات الله - هذه العبارات منسوبة للإسكندر الأكبر..

وبعض أبطال الحرب عندهم براعة في تكتيك الغرام، ولكنهم
ضحايا الاستراتيجية.. أي قادرون على الحب السريع، فاشلون في
الزواج الطويل..

مثلاً لورد نلسون (١٧٥٨ - ١٨٠٥) بطل الحرب ومعبود
الجنود والجماهير. قطعت ذراعه اليمنى في معركة جزر الكناري،
وأصاب الفرنسيون رأسه في معركة أبي قير، ثم قتلوه في معركة
الطرف الأغرق.

وقد وصفه معاصروه: بأنه كومة من العظم في بدلة عسكرية!

تزوج أرملة إنجليزية كانت تعيش في أندونيسيا . ثم أرسل إلى نابلي بإيطاليا ليجمع قوات ضد الفرنسيين . وفي نابلي التقى بالليدي هاميلتون (٣٣ سنة) زوجة السفير البريطاني . دخلت أعماقه من أول لحظة . «جميلة ذكية» العينان رماديتان والشعر كستنائي . . وكانت أجمل نساء زمانها .

وعندما كانت في السابعة عشرة من عمرها ، طلبت من أحد الضباط أن يطلق سراح جندي قريب لها . وفعل . وقدمت نفسها ثمناً لذلك . وعرفت كم يساوي جمالها . وعرضت نفسها «موديلاً» لعدد كبير من رسامي ذلك العصر . . ثم تسللت إلى فراش لورد هاميلتون وتزوجته .

وانشغل هوراشيو نلسون بهذه السيدة الجميلة ، رغم أنه كان غارقاً في الخمر والنساء . وبعد خمس سنوات عاد إلى نابلي وكان قد أصبح أسطورة أوروبا كلها . أكثر نحافة . أعرج . وقد تحطمت أسنانه ثم هويسعل كثيراً . ولم تكذ تراه «إيما» هاميلتون حتى صرخت : لا أصدق . . دعني أصدق ذلك !

وألقت بنفسها عليه . .

وكانت إذا انفردت به قدمت له الخمر يشربها من كفيها . . ثم ترقص له على نار هادئة . . وحملت منه وأنجبت فتاة أطلقت عليها اسم «هوراشيا» تيمناً باسمه . ولم تعد سراً هذه العلاقة . حتى أن الملك جورج الثالث عندما قابله راح يهمز ويلبمز . ولكن نلسون

كان أكبر من كل ذلك . فهذه حياته . وهو حر .

وعندما مرض اللورد هاملتون جلس نلسون وعشيقتة إلى جواره حتى مات سنة ١٨٠٣ .

وقبل استدعائه لمعركة الطرف الأغر جنوبي إسبانيا، كان نلسون يشعر أن هذه آخر معاركه . وأنه لن يعود . وفي المعركة ظهر على سطح السفينة بكل نياشينه العسكرية ، وحاول مساعدوه أن يمنعوه . ولكنه رفض . والفرنسيون الذين أطلقوا عليه النار، سدّدوها إلى النياشين .

ثم كرمه الشعب الإنجليزي وكرم زوجته أيضاً . أما عشيقته فقد استبعدوها تماماً . وكان عليها أن تواجه الدنيا وحدها . عاشت للخمر، ودخلت السجن وفاء لديونها . وماتت نصف مجنونة سنة ١٨١٥ عن ٥٤ عاماً !

أما عبقرى الحروب الحديثة نابليون (١٧٦٩ - ١٨٢١) وأول أباطرة فرنسا، ومؤسس الدولة الفرنسية الحديثة وراعى إصلاحها القانونى والاقتصادى والإدارى، فله عشرات القصص . بعضها يرويها على سبيل الفخر والقرف . . وبقية القصص ترويها الفتيات والسيدات . . وآخر غراميات نابليون كانت فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها، ابنة حارس جزيرة «سانت هيلانة» التى نفي إليها ومات بها . .

وفي الثلاثين من عمره كان نابليون سيد فرنسا. وأقام حكومة عسكرية مطلقة، يحميها الدستور. . وهزمه الروس في معركة ليبسيج سنة ١٨١٣، واستسلم. . ثم هرب من جزيرة ألبا، ليحكم فرنسا مائة يوم، حاول أن يسترد عرشه وشعبه، ولكنه فشل.

وكانت آخر معاركه هي معركة ووترلو سنة ١٨١٥، عندما هزمه ولنجتون القائد الإنجليزي. وقد تزوج نابليون مرتين. وكان هذا البطل العظيم خجولاً. وأول غرامياته كانت مع سيدات يكبرنه في السن. حاول أن يتزوج منهن، فرفضن. . فقد وجدنه صغيراً جداً!

وفي سنة ١٧٩٦ تزوج عشيقة أحد أصدقائه: غنية وقادرة على حمايته اجتماعياً. وأحبها. وفوجيء نابليون وهو إلى جوارها في شهر العسل أن هاجمه كلبها وعقره في عنقه. وغضب نابليون. . فلم يكن يعرف أن له شريكاً من الكلاب! وعرف بعد ذلك أن الكلب ليس إلا واحداً من عشاق كثيرين!

ورافقته إلى مصر عشيقة تنكزت في ملابس الضباط وكانوا يسمونها «الجنرالة» أو «سيدة الشرق». . وكانت تسكن في بيت مجاور لمقر القيادة العسكرية بالقاهرة. . إسمها بولين مورنس (٢٠ سنة). . وكانت ترتدي قبعة من الريش الذهبي وبنطلونات سوداء محزقة جداً. . وكانت إذا غضبت منه ارتدت فستاناً. وإذا رضيت

عنه ارتدت زياً عسكرياً في الفراش . . وقد أسر الإنجليز سفينة كانت هذه الجنرالة على ظهرها . فأعادوها إلى مصر - إمعاناً في السخرية من نابليون !

ثم التقى بفتاة بولندية اسمها ماريا فالفسكا - قدمها البولنديون للقائد البطل ، كما كان المصريون القدماء يلقون بعروس إلى النيل ، طمعاً في أن يفيض بالماء والخيرات . وقد بهره جمالها وذكائها وإخلاصها له . وكتب لها ، وكتبت خطابات من نار ، في منفاه . وطلق نابليون زوجته الأولى ، فهي لم تنجب له أحداً .

واختار زوجة نمساوية بعد أن تأكد أنها من أسرة أنجبت الكثير من الأولاد . . فكان مثل أي فلاح يريد أن يشتري بقرة أو جاموسة . . وكان يتولى بنفسه البحث عن شجرة العائلة وعرف عدد البنين والبنات في الخمسين عاماً الماضية . . وأنجبت له ولداً - سنة ١٨١٠ .

وكان نابليون العظيم يميل إلى الشباب الوسيم . . يداعب شعورهم وآذانهم وأفواههم . . ويدخل يده في صدورهم . . ولذلك كان كل مساعديه من أجمل رجال الجيش الفرنسي .

وفي المكتبة الأهلية بباريس خطابات غرامية بعث بها نابليون إلى جنوده وضباطه .

يقول نابليون : تمنيت أن أشق الشعراء جميعاً فهم يتكلمون

كثيراً عن الحب. وهذا ترف لا يقدر عليه جندي مثلي. لولا أنني
أحترم الفن وعبقريّة الإنسان.

ويقول: في الحرب أعرف بالضبط ما الذي سوف أعمله. . في
الحب لا أعرف شيئاً!
ويقول: لو تفرّغت للحب كما تفرّغت للحرب، ما أبقيت
امراً في حضن زوجها!

ثم يقول: الحرب.. البحر.. الحب.. وأقرب الأصدقاء: لا
أمان لهم!

دوق ولنجتون (١٧٦٩ - ١٨٥٢) ولد في نفس السنة التي ولد
بها نابليون الذي انتصر عليه في معركة ووترلو..

وهو إيرلندي الأصل. وشخصيته غير جذابة. جاف خشن.
قرر أن يكون جندياً. وهو إذا تكلم فكأنه مدفع رشاش: كلماته
تخرج بسرعة وعباراته ناقصة..

تزوج الفتاة التي رفضته. فقد كان ضابطاً صغيراً عندما تقدم
لها وكانت هي من أسره نبيلة. قالت له الأسرة: ولكنك لا تستطيع
أن تفتح بيتاً. مرتبك لا يكفي لشراء خشب للموقد. وكان رده:
سوف تتغير الظروف، ولكن سيظل قلبي عاشقاً لها.

وعندما تدرج في العسكرية وأصبح لامعاً، بعثت إليه الأسرة
تقول: الآن يمكنك أن تتزوج إبتنا! وتزوجها.. وأنجب ولدين.

وأبعدته الحروب عنها . حتى جاءت معركة ووترلو . وانتصر على نابليون . وأحب ممثلة فرنسية . وكانت هذه الحسناء الصغيرة تقول : لقد كنت عشيقة نابليون وولنجتون . . ثم تهز كتفها قائلة : وكان ولنجتون أفضل !

وفجأة ظهرت مذكرات امرأة لعوب اسمها هاريت تروي غرامياتها مع المشاهير وتهدد عشرات آخرين بأنهم إن لم يدفعوا مائة جنيه ، فسوف تفضحهم . . كثيرون بادروا ودفعوا - إلا ولنجتون قائلاً : كثيرات سوف يفعلن ذلك . . تشرفاً بهذه العلاقة أو ادعاء لها !

وكان يعيب على زوجته أنها اكتفت به . . فهي لا تبذل مجهوداً في حمايته من الأخريات .

وكان يقول : إنها تحتاج إلى جهد مضاعف . ولكن قدرها أن تتزوج رجلاً مشهوراً تدور الكواكب من حوله ليلاً ونهاراً . ثم أنه بشر .

ويعيب على زوجته أنها إذا ركبت عربة إلى جواره راحت تقرأ في الكتب متجاهلة الجماهير على الجانبين !

ولكن عرفنا فيما بعد أن زوجته لم تكن تفعل ذلك تعالياً ، وإنما لأنها مصابة بقصر النظر . . فقد كانت لا تقوى على تمييز وجوه الناس . وكانت تخشى أن تصادف أحداً تعرفه ، ثم لا تحييه فيغضب !

وهذا الضعف في النظر هو الذي يجعل كثيراً من الناس يلجأون إلى حيلة معروفة: فهم دائمو الابتسام . . ويكون ابتسامهم نوعاً من الترحيب العام لمن يعرفون ولمن لا يعرفون، لمن يكرهون ولمن يحبون!

وفي يوم تلقى ولنجتون نسخة من الكتاب المقدس من إحدى الراهبات. ذهب إليها يشكرها، جميلة. مثيرة. حاول معها. فاشتريت أن يطلق زوجته. فرفض. . وظلت على هذا الحب ١٧ عاماً حتى مات. وحاولت كثيرات بعد وفاة زوجته.

وقد اعترف ولنجتون في آخر أيامه: ولا امرأة واحدة قد أحبتني . . ولا واحدة. لقد قلن كثيراً جداً. ولكني لم أصدق شيئاً من كل ذلك!

أما لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤) أول رئيس لروسيا السوفياتية وأبو ثورتها ودولتها الحديثة وأقوى شخصية سياسية في القرن العشرين، فلم يكن بهذه القوة دائماً - مع المرأة. فهو من أصل ألماني يهودي. له خمسة من الإخوة. هو ثالثهم. وفي سنة ١٨٨٧ شنقوا أخاه، فقد تأمر على اغتيال القيصر اسكندر الثالث. وبعد ذلك بشهور اعتقل لينين لاشتراكه في مظاهرات الطلبة. .

وفي سنة ١٩٠١ اختار لنفسه إسم «لينين» . . وهو رجل قصير
ممتلئ الجسم . أصلع . له عيناان مغوليتان .

وقاد الثورة السوفياتية ٢٢ عاماً في منفاه بسيبيريا وسويسرا
وألمانيا وفرنسا وإنجلترا وبولندا . ولما قامت الثورة ضد آل رومانوف
سنة ١٩١٧ ، أيقن لينين أن هذه فرصته . وأن القدر قد ناداه لإنقاذ
الشعب الروسي . وحاول كثيرون أن يسرقوا منه السلطة . ولكنه
استطاع أن ينفرد بها وكان جريئاً عنيفاً دمويّاً . ومات مسموماً .

أحب ثلاث نساء كنّ مثله غارقات في الثورة . والرابعة ضايقها
هذا الاندماج والاستغراق في السياسة فهجرته وهربت منه .

أول حب له كان من أبولوناريا . . يهودية كانت تكتب له
المنشورات وتوزعها وتنظّم كل اللقاءات السرية . وتقدم لها سنة
١٨٩٥ فرفضته . لأنها لم تستطع أن تحبّه !

وأحبته ناديزاده . . وحكم عليه بالنفي ، وعليها بالسجن .
فطلبت أن تلحق به . ووافقت السلطات بشرط أن يتزوجا .
وتزوجا . وكانت تعشق زوجها الذي هو الثورة . وكانت هي زوجته
وعشيقتة وسكرتيرته وطاهيته وعضواً في الحزب - وظلت كذلك حتى
موتها . .

ثم كان على علاقة بواحدة مطلقة غنية وكان يعقد الاجتماعات
السرية في بيتها في ليننغراد .

وظلت هذه العلاقة تسع سنوات . وكانا مختلفين تماماً: هي أرسقراطية رفيعة فنانة ، وهو فوضوي عنيف خشن دموي .

وقابل في باريس زوجة اسمها أنيسة . . دعتة أن يعيش معها ومع زوجها . . ورافقتة في كل مكان يذهب إليه . ولما ماتت سنة ١٩٢٠ سار في جنازتها . ولم يستطع أحد أن يتحدث إليه في أي شيء . ولما لاحظ الرفاق أن هذا العملاق الجبار يبكي أدهشهم ذلك ، لأنه كتلة من الحديد والجليد . . ويقال أن صحته ساءت بعد وفاتها حتى مات .

ولسبب غير معروف كان موسوليني (١٨٨٣ - ١٩٤٥) لا يستحم إلا نادراً . وكان يكره المرأة التي تستحم كثيراً ، ولا يطيق المرأة التي تضع عطرأ . ولذلك كان يفضل الفلاحات والخادومات .

وموسوليني هو زعيم إيطاليا عشرين عاماً . أبوه حداد وأمه مدرسة . طرد كثيراً من المدارس لأنه كان يستخدم السكين في المناقشة مع زملائه . وكان طالباً ذكياً . وقد اشتغل بالتدريس في سن صغيرة . وفصل من المدرسة بسبب هذا الأسلوب العنيف في التفاهم ، أو في عدم القدرة على ذلك .

ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره ، كان قد سجن ست مرات بسبب إثارة الشغب ضد الحكومة . وأصبح شهيراً لأنه خطيب جماهيري ولأنه ثوري عنيف .

واشترك في الحرب العالمية الأولى، وعندما عاد مشياً على قدميه إلى روما، تعلّم في الطريق مشية الأوزة - التي نقلها هتلر بعد ذلك .

ونجح في تنظيم الحزب الفاشي لمحاربة الشيوعية والاشتراكية، وكان أتباعه نصف مليون . . وفي سنة ١٩٢٢ نجح في أن يفرض على الملك إيمانويل أن يجعله رئيساً للوزراء - وهو في التاسعة والثلاثين . . أما هدفه فهو أن تتوسع إيطاليا لتشمل البحر الأبيض المتوسط . وكان يقول: إن البحر الأبيض بحيرة إيطالية . .

وكان يقول أيضاً متلاعباً باللغة الإيطالية: إن البحر ليس هدفاً، وإنما هو طريق إلى هدف أبعد من ذلك!

ولكن ساء حظه عندما ارتبط بالنازية وهتلر حتى أقيل من كل مناصبه سنة ١٩٤٣ . . وبعد سنتين لم يجد أحداً من الألمان يحميه، فأعدموه رمياً بالرصاص!

وكان موسوليني يؤمن بالخط ويتشائم بسرعة . فكان يكره أن يرى أحداً أعرج . أو يرى مظلة مفتوحة ويضع في جيبه تمثالاً للقديس أنطونيو . وكان يغمى عليه إذا شم رائحة الأثير . . أو رأى جثة!

وكان يحب الأفلام الهزلية، ويقضي الليالي يتفرج عليها . وليس مهماً أن يتابع أحداثها ويرى في ذلك نوعاً من الراحة والاستجمام والعلاج .

وقد عرف مجموعة كثيرة من النساء . يلتقي بهن بسرعة في أي مكان عام أو خاص . ولا يطيق أن تنام امرأة إلى جواره - حتى زوجته!

ولما تقدم لخطبة فتاة اسمها «راكيلة» رفضته . وهدد أمها أن يقتلها بالرصاص ، وأن يقتل نفسه في سريرها . فوافقت على زواجه من ابنتها . وكان عنيفاً في معاملة زوجته التي أنجبت له كل أولاده . وفي أحد الأيام عاد مخموراً وحطّم كل ما في البيت . فأمسكت الزوجة سكيناً تقول: إذا عدت مخموراً مرة أخرى ، فسوف أقطع رقبتك!

وكان على يقين من أنها تعني ما تقول . ولم يذق الخمر بعد ذلك!

ولكن حبه الطويل كان لفتاة أخرى أصبحت شهيرة هي : كلارا بتاتشي . ولم يخف هذا الحب عن أحد . حتى عن زوجته .

وفي يوم زارتها زوجته ورأت الأبهة التي تعيش فيها وقارنت بين حالها وحال العشيقة . وعندما ودّعتها قالت لها : إن زوجي لا يستخدم الماء . والصابون . . وكنت أظنه الوحيد في العالم ، حتى وجدتك أنت أيضاً - فأني نوع من الخنازير أنتما!

ثم كانت هذه النبوءة : أرجو أن أراك في ميدان الدعارة! وعندما أعدم موسوليني كان في هذا الميدان ، وعلّقوه من

ساقيه . . وكانت معه عشيقته كلارا ورفضوا أن يقتلوا . ولكنها
توسلت لهم وهي راكعة عند قدميه أن يقتلوا معه . وأعدموها .
وعلّقوها من ساقها . . ولما انقلب فستانها على رأسها ، تقدمت
بعض السيدات يغطيها !

أما التفسير الطبي لعقلية موسوليني فهو أن قراراته عنيفة
متضاربة . وخطبه غير متماسكة . . وسبب ذلك أنه أصيب بالزهري
في سن مبكرة . ولم يشأ أن يعالج نفسه ، رغم إلحاح مساعديه
وعشّاقه . . فانتقل الزهري إلى المخ !

أما أقوى زعيم في القرن العشرين هتلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥) فهو
رجل صحيح من الناحية الجنسية . وليس كما أشيع عنه وذلك
بشهادة أعدائه وأصدقائه .

وهو مؤسس الحزب «النازي» أي حزب العمل الوطني الألماني
الاشتراكي ، حكم ألمانيا ١٣ عاماً ، وأزهق أرواح ثلاثين مليون
نسمة . . من بينها ملايين من اليهود والغجر وخصومه السياسيين -
وضعهم جميعاً في أفران الغاز !

كان هتلر يحلم بأن يكون رسّاماً . . تقدم لأكاديمية الفنون في
فيينا سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩٠٨ بلوحتين . رفضت اللوحتان . . فقرر
هتلر أن يجعل من أوروبا وآسيا وأفريقيا لوحات من الدم والحديد
والنار والدموع .

إشترك في الحرب العالمية الأولى، وكان جندياً شجاعاً. حصل على نياشين عسكرية. أصابته الغازات السامة في حلقه. ولذلك كان صوته الساحر أجشّ غليظاً رناناً، استولى على ملايين الألمان. فدفعهم إلى الإيمان به والسير وراءه فوق جثث الملايين في أوروبا وروسيا.

ودخل السجن. وفي السجن أُلّف إنجيل النازية، قصة حياته بعنوان «كفاحي» وفي سنة ١٩٣٣ أصبح مستشاراً لألمانيا. وكانت له قدرة فريدة على تنويم الجماهير. واستطاع أن يقضي على خصومه السياسيين مستعيناً بقوته الخاصة من أصحاب القمصان البنية.

أما فلسفته فتقوم على إيمانه المطلق بسيادة الجنس الآري وتفوقه على الأجناس الأخرى وهذا الإيمان هو الذي جعله يفتك باليهود. ثم استولى على منطقة الراين التي كان يحتلها الحلفاء واسترد النمسا ومنطقة السوديت في تشيكوسلوفاكيا. وبعدها غزا أوروبا تمهيداً لفرض سطوته على العالم - لمدة ألف عام!!

وفي أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ زحفت مدرعاته على بولندا. وبدأت الحرب العالمية الثانية، التي كان يديرها بنفسه، متجاهلاً نصائح خبراء الحرب الألمان.

تآمر عليه قواده سنة ١٩٤٤. وفشلت المؤامرة. واعتقلهم وعدّ بهم تعذيباً بطيئاً بالأسلاك الكهربائية والنار والغاز.

وفي سنة ١٩٤٥ انتحر هتلر في نخباً تحت قصر المستشارية في برلين، ومعه زوجته إيفا براون. وليس صحيحاً أنه مصاب بشذوذ جنسي من أي نوع. إنه رجل هادئ.. لطيف مع المرأة عطوف على الأطفال. أحب فتاة بافاروية إسمها إيفا براون. نموذج للريفية الألمانية. لا ثقافة. ولا ذكاء. فقط تحب أن تكون إلى جواره. وكانت مرحة. وقد ظهرت في حياته فتيات كثيرات كانت هن نهاية واحدة: الانتحار بالرصاص والسقوط من مكان مرتفع.. وكان الجستابو، جهاز المخابرات الألمانية، هو الذي يدفعهن إلى ذلك.. حرصاً على سلامة هتلر.. وخوفاً من أن يذعن أسرار الأمن القومي والنشاط الداخلي لهتلر سياسياً وعسكرياً.. ومن بين اللاتي انتحرن ابنة أخته ولنفس السبب!

وكان لهتلر هواية التقاط الصور للفتيات عاريات، وقد اتخذن وضعاً خاصاً. وكان يقول: إن هذا الوضع أعرفه أنا وحدي حتى إذا وقعت هذه الصور في يد أي أحد آخر، فلن يعرف من هي صاحبته!

وأخيراً ثعلب الصحراء رومل (١٨٩١ - ١٩٤٤) أعظم قادة الحرب الألمان في معارك الصحراء وفي بناء حائط الأطلنطي - وهذا رأي جميع العسكريين والمؤرخين. فهو جندي من الدرجة الأولى، وضابط شجاع ذكي، بعيد النظر. أما علاقته بجنوده فهي شخصية. وهو مثلهم الأعلى، لأنه يقدمهم على رجله وعلى سيارته

وعلى دبابته . ولم يقع جندي واحد في الصفوف الأولى لم يجد رومل إلى جواره . . وفي مرات كثيرة كان الجنود يحاولون بصعوبة أن يقدموا له التحية وهم غارقون في الدم ، فكان ينحني على أيديهم يقبلها . . و يترحم عليهم وسط الغبار والنار . .

لقد حارب الحلفاء في شمال إفريقيا فبهرهم وقهرهم .

وفي سنة ١٩٤٤ إتهموه بأنه تآمر على هتلر . والحقيقة أنه لم يفعل . ولكنه كان صديقاً للمتآمرين . واعتقلوه مع اثنين من القادة الكبار .

صحيح أنه كان ينتقد هتلر ، وأخطائه العسكرية الفادحة . ولكن لم يفكر في اغتياله . وخيروه بين المحاكمة وبين أن يموت بيده . . فاختر السم !

وقد تزوج رومل الفتاة لوسي مولين سنة ١٩١٦ . جميلة . داكنة الشعر . قوية الشخصية . وسيطرت عليه تماماً . فكانت هي الجنرال وهو الجندي الصغير . ولم يكن يخفي حبه لها . وكان يقول : لا بد أن يكون هناك جنرال في كل مكان ، هو وحده الذي يلقي الأوامر ويتابع تنفيذها . وزوجتي هي هذا الجنرال !

وعندما أصبح بطلا أسطورة ، كان يتلقى ألوف الخطابات من ألوف البنات . فكان يقرأ الخطابات ويرى الصور الرائعة ويضحك قائلاً : إنهن جميعاً يقدسن لحظة واحدة من حياتي عندما أصبحت

بطلاً . . ولكن زوجتي كانت تقدر كل اللحظات قبل ذلك عندما لم أكن شيئاً!

وكل هذه الخطابات محفوظة حتى الآن في متحف الأسرة . وله ولد واحد هو مانفرد عمدة مدينة اشتجارت . .

ولم تكن صناعته الكلام . فكان يعلق على الخطابات قائلاً :
جماليات مثيرات ولكني قررت أن أكون مخلصاً للجنرال زوجتي!

وقبل أن يتناول السم التقى بإبنة وقال له ضاحكاً : إنتهى كل شيء . لن تراني يا ولدي بعد اليوم . . ولا تهتم كل هذه الانتصارات العظيمة التي حققتها . . ولكن من المؤكد أنني وفّرت الهدوء في البيت . . فلن أوافق على أن تشتري أمك البيانو الذي كانت تتمناه!

فقد كانت رديئة الأداء!

وفي ١٤ أكتوبر سنة ١٩٤٤ زاره بعض جنرالات هتلر . وهدوء استأذن من زوجته ومن إبنة قائلاً :

كلمة لو قالها زوجها لعاش أبرياء كثيرون!

يقول كازاتوف في كتابه «تاريخ حياتي» الذي امتد ١٢ مجلداً:
وجدت نفسي أتعلق بفساتين النساء. ولا أدعي أنني أكثر الناس
فهماً للمرأة ولكني أكثرهم إلحاحاً واحتمالاً لأحذيتها.. ولا توجد
امراة تستطيع أن تقاوم رجلاً يطيل النظر إليها..

ويقول: لم أنس امرأة رفضتني.. ولن تنسى المرأة رجلاً تركها
وانتجه إلى إحدى صديقاتها.. ولم أنس امرأة صدقت كل
أكاذيبى.. فكم من واحدة قلت لها: يا أجمل مخلوقات الله، يا
أعظم العشاق، يا ملكة على عرش القلوب، لو كان في الأرض
عدن، لو كمت كل النساء عند قدميك.. ولن أنسى ما حييت امرأة
عندما صدقت كل ذللك طليت مني أن أركع أنا أيضاً عند
قدميها.. وكنت أصرح قائلاً: يا أكذوبتي أفيقي.. يا مخلوقتي بل
أنت التي يجب أن تضيء رأسي عند قدمي!

ويقول: أكثر العشاق لا يفيقون. . وأكثر العاشقات قد ولدن
مملوءات بالغرور!

هذا الرجل هو جيوفاني كازانوفا (١٧٢٥ - ١٧٩٨) رمز العشق
والذئاب البشرية. وقد تعلم من معاشرة النساء الإيمان بالسحر
والخرافات. وادعى القدرة على علاج الأمراض النفسية بالأحجية
والبخور والتنويم المغناطيسي. . وهو رجل متعدد المواهب: شاعر
وساحر ورسام ومغامر ورحالة.

يقول: لم أولد نبيلًا، ولكن سوف أصبح نبيلًا. .

أمه ممثلة لعبت زوجة راقصاً مشهوراً. وعندما سافرت إلى
لندن وأنجبت ولداً، هذا الولد تبناه ملك بريطانيا جورج الثالث.

درس القانون وحصل على الدكتوراه وهو في السابعة عشرة من
عمره. وطرده من الجامعة لفضيحة جنسية ودخل الجيش. ثم طرده
منه لفضيحة أخرى.

في يوم ذهب لبيت أحد النبلاء. وجد الزوجة جميلة والإبنة

أيضاً. وأوهم صاحب البيت أنه وحده الذي سوف يخرج العفاريات من جسمه. وأن أحد هذه العفاريات قد اختفى تحت لسانه. . وما زال يقنع الرجل حتى عجز عن الكلام تماماً. . وانفرد بالزوجة والإبنة. ومات الرجل. وهرب كازانوفنا إلى الدول الأوروبية ١٨ عاماً.

وفي الخمسين من عمره عمل أميناً لمكتبة أحد النبلاء الألمان. ووجد الساعات تمر بطيئة مملّة. هنا قرر أن يكتب مذكراته فجاءت في ٤٥٤٥ صفحة. وبعد أن كتب هذه المذكرات ظل زاهداً في الحياة كارهاً للمرأة لا يغريها ولا يسمعها ٣٥ عاماً حتى مات. ولم تعرف مذكراته هذه إلا في سنة ١٩٦٦. وعندما نشرت هذه المذكرات أدركنا أنه كان أقل من الشهرة التي استحقها، فهو لم يعرف في حياته كلها إلا ١٣٢ امرأة - أي واحداً على عشرة من الذين عرفتهم الممثلة الفرنسية سارة برنار والأديب الفرنسي موبسان والمطرب الأمريكي الفيس برسلي!

وقد جاءت هذه العبارة في آخر المذكرات: مهما عرفت من النساء. . فكل واحدة عالم مختلف تماماً. . فأنا لم أعرف إلا بعضهن. . أما الباقيات فيحتجن إلى مليون سنة أخرى!

أما هاتا هاري (١٨٧٦ - ١٩١٧) فكل ما يعرفه عنها الناس أنها أشهر جاسوسة في التاريخ. . وأنها تعمل لحساب الألمان ضد الفرنسيين. أي أنها كانت تستخدم جمالها وخداعها لتجمع

معلومات عن الأسلحة من عشرات الضباط الذين عرفتهم . .
ولذلك استحققت أن يعدها الفرنسيون رمياً بالرصاص!

وإذا كان لدى أحد معلومات أكثر فهو يصفها بأنها أول راقصة
عارية في كباريات أوروبا.

كانت طالبة في أحد الأديرة بهولندا، قرأت إعلاناً في الصحف
عن ضابط يريد أن يتزوج. فبعثت للصحيفة تقول أنها على
استعداد لذلك. ولم يكن هذا الذي نشرته الصحف سوى مقلب
ديبره أصدقاء أحد الضباط. والتقت بالضابط. هي عمرها ١٨ عاماً
وهو في الأربعين. أحبها، فتزوجته. وأنجبت منه ولداً. وسافرت
معه إلى أندونيسيا. ولما عرف زوجها أن لها علاقة بضباط آخرين
هددها بالرصاص. وفي يوم فوجئت بأن أحد الأندونيسيين قد وضع
السم للإبنتها، انتقاماً من اعتداء زوجها على زوجته. فما كان من ماما
هاري إلا أن خنقت الرجل حتى الموت!

وهربت إلى باريس، وكانت العادة في ذلك الوقت: أن تهرب
إلى باريس كل امرأة جرحت كبرياؤها!

وفي باريس عرفها الناس ترقص في فستان شفاف مرصع
بالمجوهرات. ثم تنزع هذا الفستان لترقص عارية تماماً. وكان
الأغنياء يتسابقون على شراء فستانها وكانت تتفنن في جعل الفستان
عشرين قطعة. وتلقي على كل واحد قطعة مقابل ثمن يتقاضاه

صاحب الكباريه . . وكانت تتلوى مثل أفعى ابتلعت ألف قطعة من الماس . . فلا أحد يدري إن كان الماس فوق الجلد أو تحت الجلد . .

وماتا هاري هندية الأصل . إعتادت على الرقص في المعابد واسمها باللغة الملاوية معناه : عين النهار أي الشمس . .

بدأت الصحف الفرنسية تروي عنها الحكايات . . إنها جاسوسة ألمانية لها رقم رمزي . . ويقال أنها كانت تستحم في اللبن ، بينما الأطفال يموتون جوعاً . . وقيل أنهم ضبطوها في مدريد بأسبانيا وقد ركبت دراجة متنكرة في ملابس سيدة عجوز . ولما نقلوها إلى السجن كانت ترقص عارية للحارس . . وقيل أنها قبل تنفيذ الإعدام سألوها : وما هي آخر رغباتك ؟

قالت : أن أستحم في حوض من النبيذ ، وأن يجيء الجنود بملابسهم الرسمية يرتشفون القطرات التي تتساقط من أصابع قدمي !

وقد تطوَّع للدفاع عنها كثيرون . .

وسألوها قبل تنفيذ حكم الإعدام : إن كانت حاملاً .

فالدستور الفرنسي يمنع تنفيذ حكم الإعدام في الحامل حتى تلد . .

فطلبت أن ترى جميع ضباط السجن . وجمعوهم . ونظرت

إليهم جميعاً واحداً واحداً وقالت: لست حاملاً!

وسألوها: إن كانت لها أمنية أخرى!

قالت: كانت عندي أمنية جنونية.. تمنيت وأنا أمام تمثال أبي الهول أن يكون أباً لجميع أولادي؟

وفي سنة ١٩٦٢ أثبت الإنجليز براءتها تماماً من الجاسوسية. وإنما الفرنسيون قد اختلقوا هذه القصة، تغطية لهزائمهم المتكررة أمام الألمان!

ومارلين مونرو (١٩٢٦ - ١٩٦٢) كانت رمزاً للجمال والسذاجة والتعاسة طفلة وشابة وزوجة ونجماً لامعاً وعشيقة لأقوى رجل في العالم الرئيس الأمريكي كيندي ولأخيه من بعده، ويوم كانت زوجة لرجل له عضلات، ولكاتب كبير له موهبة هو آرثر ميللر، وألعوبة في يد العصابات والمخابرات الأمريكية وحالة مرضية للأطباء النفسيين. ولم يحدث في التاريخ أن أحب الناس امرأة جميلة وعطفوا عليها، واتهموا الذين اغتالوها، كما أحبوا مارلين مونرو. وقد تبارى الأدباء والشعراء والرُسامون في البكاء عليها.. حتى الذين لا قلب لهم مثل آرثر ميللر وهرمان مايلر.. وخادمتها وسكرتيرتها وسائقها وبوابها ومصوّرها والقسيس الذي قرأ عليها ما لم تسمع من الإنجيل ورجال المخابرات الأمريكية.. ولم يذبل الورد على قبرها حتى اليوم.. فهو كالدموع متجدد.

كان أبوها يعمل في معامل السينما. وهي من أصل نرويجي اسمها نورماجان مورتنسون. أما طفولتها فهي حزينة تماماً. إنها اليتيم والفقير. عاشت مع إحدى قريباتها حتى السابعة. ثم أدخلوها أحد الملاجئ حتى الثالثة عشرة. ورعاها الزوج الثالث لأُمها، حتى تزوجت في السادسة عشرة. وقد روت كيف كان عذابها فظيلاً وهي في الملجأ، وكيف أكرهت على الجنس، وكل أنواع الشذوذ مع زميلاتهن ومدرساتهن ومديرة الملجأ..

عملت في أحد مصانع الطائرات، عندما اكتشفها مصوّر مغمور. وهي أيضاً اكتشفت نفسها، فقد أدركت حبها الغريزي للأضواء والوقوف أمام الكاميرات: جميلة بريئة هشة..

وكانت تحلم بأن تصعد من الفقر والهوان إلى فوق.. إلى آخر المدى تريد أن تكون نجماً.. أحبها المصور.. ولكنها أحبت الصور. تقدم لها. رفضت. واتجهت إلى هوليوود.. إلى الباب الملكي لهوليوود. والباب الملكي هو الذي يجلس عليه عدد من «العواجيز» أصحاب الملايين من المنتجين. والمعنى مفهوم. ومقبول من كل جميلات الشاشة. فهذا هو ثمن المجد..

وغيروا اسمها إلى مارلين مونرو.

وكل الذين أحببتهم مارلين مونرو كانوا كباراً في السن. طبيعي فهي في حاجة إلى الحنان. وإلى الأب والمال والسلطة معاً. وكان

أكبر الكبار هم الشيوخ أصحاب الملايين أصحاب شركات السينما.
ولم تقل «لا»، لأحد منهم .

سألوها: من الذي تحبين أن تتزوجه؟ قالت: إينشتين! وهو
عبقري الفيزياء في زمانها، فبعث إليها بطاقة يقول فيها: مع
احترامي وحيي وشكري .

تزوجت لاعب كرة . وكانت الحياة معه شاقة . فهو قوي ولكنه
غير غيور . وهربت من صاحب العضلات إلى صاحب العقل: آرثر
ميللر . قابلته أول مرة سنة ١٩٥٠ . تقول مارلين مونرو: إنه
جلس أمامي وراح ينظر ناحيتي فقط . وتزوجها سنة ١٩٥٦ .

وكانت الحياة مع مارلين صعبة جداً . فهي حساسة . وهي
تعمل كثيراً . وتتعب . وتنام بصعوبة . وهي عصبية جداً . وتتعاطى
المسكنات والمهدئات والمنومات والمخدرات . . وتقضي وقت راحتها
في السرير . تأكل وتشرب وتتكلم ساعات ، وتمسح يديها في
المخدات ثم تنام ويتساقط عليها الطعام . إنها طفلة لا تريد أن
تكبر . ويستحيل ذلك . . وقد التقط لها آرثر ميللر صورا وهي
تحتضن التليفون وأحذيتها . . ومخدراتها . . وكل ما لديها من فراء . .
والدموع على خديها . .

وكان لا بد أن يطلقها . فكان سنة ١٩٦٠ ، في نفس اليوم
الذي أصبح فيه جون كيندي رئيساً لجمهورية أمريكا .

كانت لها علاقة بالمثل الفرنسي إيف مونتان . غضبت عندما رفض أن يطلق زوجته سيمون سينوريه : لها علاقة مع سائقها ومع الرجل الذي يدلّكها . . ثم قدمها المطرب الكبير فرانك سناترا للرئيس كيندي . وكان يلتقي بها الرئيس كيندي في بيت أخته زوجة الممثل بيتر لوفورد . . وأحياناً في سيارته وأحياناً في طائرته . . وكان يضايقه أنها لا تجيء في موعدها . . فهي لا تنظر إلى الساعة في يدها أو بجوار سريرها . . وكانت تطلبه في البيت الأبيض في ساعات متأخرة من الليل ، فغيّر كل أرقام التليفونات وهرب منها . ثم تركها لأخيه . .

وفي عيد ميلاده ظهرت مارلين مونرو بهرت الناس وهي تقترب من الميكروفون وتقول : عيد ميلاد سعيد يا سيادة الرئيس !

ولما وجدته يتفادى لقاءها هددت بأن تعقد مؤتمراً صحفياً تحكي كل شيء . . وبدأت الشركات السينمائية تعتذر عن عدم التعاقد معها ، لأن مواعيدها غير مضبوطة . . فحياتها مضطربة في العمل والنوم والسهر والخروج والرياضة . . وبدأت تشعر بأوجاع كثيرة في جسمها . . وسموم في طعامها وشرابها . . ولم تعد تعرف إن كان الذي يزورها هو طبيباً أو سفاحاً . . أو زميلاً أو مندوب المخابرات . .

وبلغت حالتها النفسية أقسى وأقصى درجاتها في سنة ١٩٦٢ . . ووجدوها ميتة في فراشها . قالوا منتحرة . وقالوا قتيلة . وقالوا

العصابات . . وقالوا المخابرات، حماية حياة الرئيس والأمن القومي . . فقد كانت مارلين هي أول من قال أن هناك محاولة لاغتيال كاسترو . . وأنها سمعت ذلك وهي في أحضان الرئيس . .

وفي مسرحية «بعد السقوط» لأرثر ميللر يتحدث فيها عن زوجته السابقة مارلين مونرو، ويعيب عليها أنها لا تقول . . لا . . وسبب ذلك أن لديها إحساساً بأنها مدينة لعدد كبير جداً من الناس . . وأنها لذلك في حالة امتنان دائم للآخرين . .

أما غلطتها فهي هذا الشعور الذي لا معنى له . فهم الذين يجب أن يمتنوا لها؛ إنها صاحبة الفضل على المنتج والمخرج والمصور . فهي مصدر ثرائهم جميعاً فقد باعوها في الدنيا وكسبوا من لحمها ودمها وابتسامتها وجمالها مئات الملايين . فلا فضل لأحد، وإنما الفضل لها وحدها . !

ولكنها كانت قد اعتادت على أن تظل الحمل الوديع الجميل لكل هذه الكلاب من تجار الرقيق الأشقر!

أما الشيخ الذي بهر نساء العالم رغم أنه لم يفتح فمه بكلمة واحدة فهو رودلفو فالتينو (١٨٩٥ - ١٩٢٦) فقد كان بطل السينما الصامتة . . فقد وجد العالم في فيلم الشيخ الذي قام ببطولته عودة إلى الرومانسية وإلى حياة الخيام في الصحراء، حيث يعيش الرجل للحب والمرأة للبيت والأولاد . . ولم تكن الدول الصناعية قد عرفت وملأت الحياة الصناعية الميكانيكية . ولكنها كانت في مراحلها

الأولى . عندما كانت المرأة تطلب المساواة بالرجل ، والخروج إلى الشارع والمكتب والمصنع . . وليأكل الأطفال في البيت أصابعهم وليموتوا برداً وجوعاً . المهم أن تتساوى مع الرجل في كل شيء مهما كان الثمن . ولكن بظهور فالنتينو رمزاً للحب والحياة والموت من أجله ، تدفقت الملايين في أمريكا وأوروبا يتساءلون : هل من الممكن أن تعود الحياة إلى الوراء ؟

وقد ظهر فالنتينو في فيلم «إبن الشيخ» وفيلم «دماء ورمال» وهو إيطالي الأصل ولد حالماً . لا يصلح لأي عمل . ضاق به أبواه . بعثا به إلى أمريكا يجرب حظّه . لم يكن يعرف كلمة إنجليزية واحدة . ولكن يعرف شيئاً واحداً : كيف يكون أنيقاً نظيفاً ، ذئباً دائماً .

طلب أن يقوم بدور الجنائني في بيت مليونير ثم تسلل إلى الكباريات وعمل راقصاً احتياطياً - أي يظل واقفاً في حالة استعداد دائم ليراقص أية امرأة وحيدة . وتحدثت عنه النساء ، وتسابقت عليه الفتيات ورغم أنه ذئب مدرب تدريباً جيداً ، فقد تعلم من «الذئبة» أن يكون خجولاً . . كان ذلك يغري الفتيات بأن يهجمن عليه ، ويتسابقن في إثارته والفوز به في النهاية - وهذا ما يريد!

واستدرجته إحدى الفتيات إلى هوليوود - وبسرعة دخل السينما . وفي وقت قصير جداً كان بطلاً لعشرة أفلام .

يقول فالتينو: أن تعرف امرأة واحدة هذه لعنة، أن تعرف ألف امرأة - هذا ألعن!

وقد تزوج سيدة أكبر منه . غنية جميلة . واكتشف في أول يوم أنه ارتكب غلطة فظيعة . خانها . حاول أن يدخل البيت تركته حتى الصباح . ثم هرب إلى فراش صديقة لها .

ثم تزوج راقصة باليه روسية . ولم يكن قد طلق زوجته الأولى . ودخل السجن . وطلقها . ثم ألف الاثنان معاً ديواناً من الشعر عنوانه «أحلام اليقظة» .

يقول في إحدى قصائده: ولدت مفتوح العينين . . وجدت صعوبة في فهم الدنيا . . وعرفت أن هناك أكثر من دنيا . . دنيا الرجال ودنيا النساء . . ودنيا النساء هي الأقوى وهي الأكثر غموضاً . .

وفي قصيدة أخرى يقول: ولدت متأخراً في الزمان . . تمنيت أن أولد من ثلاثة قرون . . لأعيش من أجل المحبوبة وأموت في سبيلها، بشرط أن تموت هي أولاً . . فليس أروع من امرأة كلها حياة، إلا امرأة ماتت في ثوب عرسها .

يسمونها في الأرجنتين إيفيتا . . إنها إيفيتا بيرون (١٩١٩ - ١٩٥٢) زوجة الرئيس خوان بيرون . أقوى امرأة في بلادها . وقد عملت وزيرة للصحة ووزيرة للعمل من ١٩٤٦ حتى وفاتها . .

إسمها ماريا إيفا دورانة ابنة غير شرعية لأحد الفلاحين . .
سافرت إلى بيونس آيريس وهي في الرابعة عشرة من عمرها لتجرب
حظها على المسرح ، لم تستطع فلهجتها ريفية وأسلوبها وملابسها .
فاتجهت إلى الإذاعة ، فكانت أحسن الممثلات ، أطول من معظم
نساء الأرجنتين وممثلة . تفك الخط بصعوبة . دفعتها غريزتها
وطموحها إلى أن تعثر على الكولونيل خوان بيرون وكانت زوجته قد
ماتت . وعاشت معه . وتزوجته بعد سنتين ، ثم أصبح رئيساً
للأرجنتين . فأطلقت رصاصها وسمومها على كل الأغنياء وكل
الذين وقفوا في طريقها في الإذاعة والمسرح . وأحبها الشعب الذي
أطلقت عليه لقب : عراة الصدور . أي الذين لا يرتدون
قميصاً . . وراحت تطالب بكل حقوق المرأة وأنشأت مؤسسة
خيرية ، تحولت إليها أموال كثيرة - بعض هذه الأموال دخلت
حسابها في سويسرا . .

ولما ماتت بالسرطان عن ثلاثة وثلاثين عاماً ، أعلنها الشعب
قديسة للبلاد! وهي ذات شخصية قوية تريد القوة والمال . وقفت في
شبابها أمام المصوّرين عارية وعندما أصبحت في السلطة أو هي
السلطة ، جمعت كل هذه الصور وأحرقتها وأودعت المصوّرين
السجون . .

عندما كانت في إيطاليا التف حولها الناس يقولون : مومس!
وكان إلى جوارها في السيارة أحد جنرالات البحر فقال لها إنني

تركت البحر من عشرين عاماً ومع ذلك ينادونني أمير البحر! ولا يهملك. سوف يقولون كثيراً. وسوف يكون لكل شيء صدى؟

عندما قابلت زوجها الكولونيل بيرون كان عمرها ٢٤ سنة، وهو ٤٨ سنة أمسكته بأظافرها وأنيابها فهو فرصتها وقدرها ووسيلتها إلى المجد. وهي التي أقنعت به بأن يقفز إلى السلطة عن طريق الجيش. . وأن يكون سيد البلاد وهي سيدتها.

وبعد وفاتها أقام الرئيس بيرون اتحاداً للمدارس الثانوية - وكان الهدف اختيار أجمل الطالبات وإرسالهن إليه. وكان هناك مركز خاص يستعرض الفتيات ليختار واحدة كل يوم!

ويقال أن المليونير أوناسيس قرر أن يلتقي بها وحدها. وكان له ذلك وأعدت له طبق عجة دفع فيه خمسين ألف دولار - أعلى عجة أكلها في حياته في أجمل ليلة! وكانت فضيحة!

وظلت إيفيتا أسطورة في بلادها. وظهرت في لندن أوبرا غنائية اسمها إيفيتا سنة ١٩٧٠ ومن أشهر أغانيها المحبوبة في العالم كله: لا تبكي من أجلي يا أرجنتين. . فلن أتخلى عنك!

تقول إيفيتا: امرأة تعيش من أجل نفسها. ليست امرأة فنحن النساء قد خلقنا الله لندفع الرجال إلى أبعد مما يستطيعون. .

وتقول: طبيعي جداً أن تبذل المرأة نفسها من أجل الحب، ففي هذا البذل قمة عظمتها وحريتها أيضاً!

ثم تقول: من أجل الأرجنتين أحببت زوجي وأخلصت له
وسوف أموت من أجله!

أما الانتقام الشخصي الذي اتخذ عنفاً دموياً وطنياً فصورته
الحديثة هي أولريكة ماينهوف (١٩٣٤ - ١٩٧٦) زعيمة العصاة
الألمانية المعروفة باسم: بادر - ماينهوف. لقد أفزعت هذه الفتاة
ألمانيا كلها وشغلت كل قوات البوليس شهوراً لا ينامون ولا
يأكلون..

ولكن في ١٦ يونية سنة ١٩٧٢ اقتربت قوات البوليس من بيت
بالقرب من المطار دقوا الباب خرجت فتاة طويلة منكوشة الشعر
مفتوحة العينين. وفي البيت وجدوا مسدسات وقنابل. وأمام النيابة
روت جرائمها كلها في ٣٥٤ صفحة: سرقة وتزوير وقتل ونسف
وخطف وسطو..

شيء غريب حقاً أن تتحول فتاة مثالية رقيقة ناعمة إلى
مجرمة.. أما أنها مثالية فمعنى ذلك أنها لا ترضى عن الواقع وتتمنى
شيئاً أفضل. فإن كانت كاتبة عبّرت عن ذلك بقلمها.. أو كانت
ثورية دموية استخدمت المسدس والقنبلة. وقد استراحت إلى
ذلك..

تقول أولريكة: لو أنه في أول لقاء لنا قال عبارة واحدة
لطيفة.. لو أنه جعلني أشعر لحظة واحدة أنه ممتن لأنني تزوجته
وتركت كثيرين غيره، أغنى وأجل لو أنه قتل لتغير التاريخ!

وكانت تقصد زوجها. فهو صاحب ورئيس تحرير إحدى المجلات الثورية. عرفها. تزوجها ترك لها المجلة، وراح يسكر ويلعب القمار ويهرب إلى فراش أخريات جميلات غنيات. وتركها تشم الحبر وتمسح عرقها بورق الصحف، وتحرق أصابعها بالسجائر، ولما انتشرت المجلة، كان في حاجة إلى مزيد من المال. فأدخل فيها الحب والجنس والزواج والفضائح فقررت أن تتركه. وهربت معها ابنتان توأمان.

وكانت أولريكة قد عاشت بعض الوقت مع إحدى قريباتها: أستاذة جامعية. ومنها تعلمت مبادئ الاشتراكية. ودخلت الجامعة وتظاهرت مع الطلبة ضد القنبلة الذرية. واحتلال الأمريكان لفيتنام. وكان ذلك هو جوهر مقالاتها الملتهبة. حتى اكتشفت خيانة زوجها. فقامت هي وعدد من الشبان بمهاجمة بيت زوجها. وسرقة كل ما به من تحف. وإطلاق الرصاص على اللوحات والتماثيل وإحراق كل الكتب!

وحاولت مع عدد من الإرهابيين خطف الزعيم الإرهابي بادر، الذي كوّنت معه عصابتها الشهيرة..

فقد سمحت له إدارة السجن أن يعمل في إحدى المكتبات في برلين، فخطفوه وقادت هي الهجوم يوم ١٤ مايو سنة ١٩٧٠.. واختارت أولريكة واحداً من هذه العصابة عشيقاً لها.

وأرسلت طفلتيها إلى الشرق الأوسط ليتدرّبا على أعمال المقاومة ضد إسرائيل. ولكن بعض المنظمات الفلسطينية أعادت الفتاتين إلى أمهما - فقد اكتشفوا أنها إرهابية بلا قضية!

وحاولت تهريب الطفلتين إلى خارج ألمانيا. ولكن زوجها أفلح في القبض عليهما في جنوب إيطاليا. .

وعرفت أولريكة المخدرات، ولذلك احتاجت إلى الفلوس. فهاجمت محلات كثيرة. وهاجمت البنوك. . ثم ألقي القبض على بادر وهو يكدّس السلاح في أحد الجراجات. . ثم ألقي القبض عليها. وكانت تصرخ في داخل السجن تطلب أي كمية من الحشيش أو الأفيون. . ثم طلبت أن ترى طفلتيها ولكن الأب رفض. . ثم طلبت أن ترى عشيقها، ولكنه رفض. . ثم طلبت أن تسمع ولو كلمة واحدة من الرجل الذي أحبه وتزوجته. . طلبت أن يقول لها ولو كذباً كلمة: أحبك، لتكون آخر ما تسمع ويكون هو آخر من ترى، رفض. .

وشنقت نفسها. . وسار في جنازتها ألوف الشبان قد وضعوا لافتة على وجوههم. وهم يهددون بالانتقام!

ثم نشر زوجها خطابها الأخير الذي بعثت به من السجن: إنني أطالب بمحاكمتك علناً. . فأنت المسؤول عن كل ما ارتكبت. . من جرائم. . كان يجب أن أشنقك أنت، لا هؤلاء الأبرياء. . لقد أسأت فهمي من أول لحظة، فأنا أرقّ وأكثر إحساساً مما تتصور. .

ولكن وجهي الجامد قد خدع كل الناس . .
وخدعك أنت أيضاً . . أبعث لي بكلمة واحدة . سوف أحشر
خطابك في أذني . . فأسمع صوت الورق وهو يتثنى في أذني . .
وأتوهم أنك تقول لي . . أحبك !

الفهرس

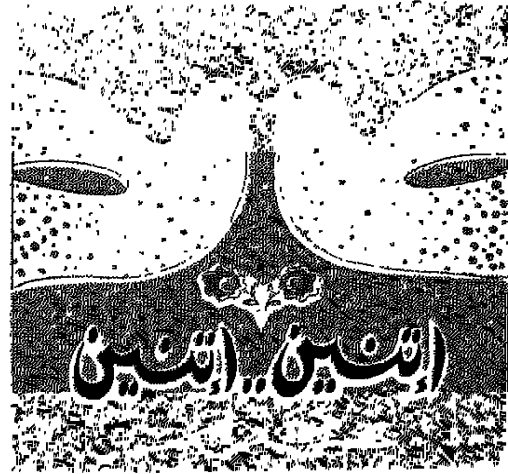
٥	أكثر من اثنين دائماً
١٥	هذا النوع من النساء
٣٣	الكبار والكبائر والكلمات الصغيرة
٥٣	المستحيل : زوجة السلطان
٧٣	يسعدني كثيراً أن تموت كل النساء من أجلى
٨٩	الرجل « العيل » مشكلة العصر
١٠٩	السندويش : مقبرة الحضارة الإنسانية !
١٢٧	إذا كنت تحبها حقاً تزوج غيرها ؟
١٤١	« واسكى روحك فى روحى بكأس الأبدية » !
١٥٣	الحديث الحلو واللحن الشجى
١٦٧	ما هذا الطوق فى عنق الحمامة ؟
١٨١	لآخر دمة فى عينيه وقطرة من دمها
١٩٥	زينب والاحتقار العظيم !؟
٢٠٩	آه .. لو كانت تحتقره قليلاً ؟
٢٢٥	علماء النفس ليست لهم نفس
٢٤١	لست فيلسوف طول الوقت !
٢٥٧	أبطال الحرب .. أسرى الحب
٢٧٧	كلمة لو قالها زوجها لعاش أبرياء كثيرون

رقم الإيداع : ٨٨/١٦٦٢

التزقيم الدولى - ١٧٠ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشارقة

القاهرة : ١٦ شارع جزار، خليج - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - بوليا، خريوت - هاتف : ٥١١٠١١٠١
 بيروت : ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٢٥ - ٨١٧٧١٣ - بوليا، خريوت - هاتف : ٥١١٠١١٠١



● هناك أكثر من اثنين فى أى مكان وفى
أى وقت منذ آدم وحواء فى الجنة
ومعهما الشيطان والأفعى والملائكة
ومخافة الله حتى نزلا إلى الأرض فامتلات
بهما الدنيا .

بل إن الإنسان إذا كان وحده فى
زنازة فى سجن .. أو كان راهبا فى
صومعة .. أو كان جاجارين فى أحد
الأقمار الصناعية فهو ليس وحده فى أى
وقت بل إنه فى عيون وآذان مئات الملايين
من سكان الأرض .

● وعندما سئلت رابعة العدوية وقد
جلست وحدها : من معك ؟ قالت أنا
وحدى مع الله وحده !

● وأنت عندما تنظر إلى أعماقك فلست
وحدك .. فأنت أكثر من إنسان ، أكثر
من صورة لنفسك .

دارالشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس : ٣٩٣٤٨١٤

سريوت : ص ب ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣